النصائح الدينية
والوصايا الايمانية



سلسلة كتب الإمام الحدّاد (1)

النصائح الدينيّة
والوصايا الإيمانيّة

للإمام شيخ الإسلام قطب الدّعوة والإرشاد
الحبيب عبد الله بن علويّ الحدّاد الحضرميّ الشّافعيّ
رحمه الله تعالى



الطبعة الثالثة

١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م

مصححة ومنقحة

بالتعاون مع

الناشر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان

هاتف: ٣٤٢٨٨٦ ــ ص.ب: ٥٩٢٠ ـ ١١٣ ـ تلكس: ٤٣٢١٨ ــ فاكس ٨٦٠١٣٨ ـ ١ ـ ٩٦١

تعريف مُوجز عن الإمام الشهير عبد الله بن علوي بن محمّد الحداد

هو سيّدنا الإمام العلّامة الدّاعي إلى الله بقوله وفعله قطب الارشاد الحبيب عبد الله بن علوي بن محمّد الحدّاد ولد رضي الله عنه بالسبير من ضواحي مدينة تريم بحضرموت ليلة الخميس ٥ صفر سنة ١٠٤٤هـ وتربّى في تريم وقد كُفَّ بصره وهو صغير فعوّضه الله عنه بنور البصيرة وجدّ واجتهد في طلب العلوم النافعة وعكف على عُلماء عصره في مُقدّمة مشايخه سيدنا الحبيب عُمر بن عبد الرّحمن العطاس والحبيب العلّامة عقيل بن عبد الرحمن السّقاف والحبيب العلّامة عبد الرحمن بن شيخ عيديد والحبيب العلامة سهل بن أحمد باحسن الحديلي باعلوي ومن مشايخه أيضًا الإمام العلّامة عالم مكّة المكرمة السّيد محمّد بن علوي السّقاف .

ثم نصبه الله للدعوة والإرشاد داعيًا إلى الله تعالى

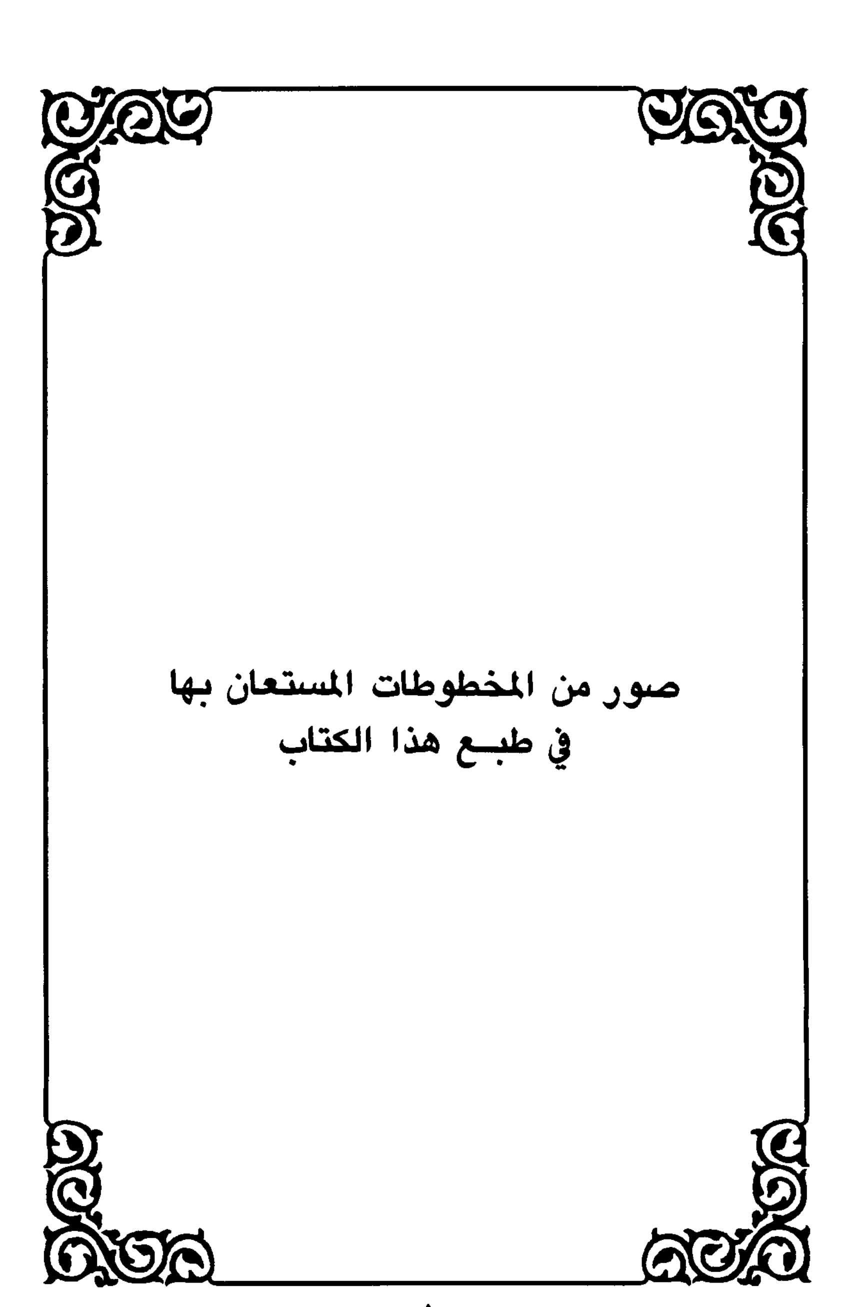
بالحكمة والموعظة الحسنة فأقبل عليه الناس وانتشر
صيته في البلدان وانتفع به القاصي والداني فنفع الله
به الكثير وأرشد الجم الغفير وانتشرت دعوته في كل مكان
وانتفع الناس بوعظه وكتبه وأخذ عنه الجم الغفير
فمن كبار تلامذته ابنه سيدنا الحبيب حسن بن عبد الله الحداد
والحبيب أحمد بن زين الحبشي والحبيب عبد الرحمن بن عبد الله
بلفقيه والحبيبين محمد وعمر أبناء زين بن سميط والحبيب عمر بن
عبد الرحمن البار والحبيب علي بن عبد الله بن عبد الرحمن السقاف
والحبيب محمد بن عمر بن طه الصافي السقاف وغيرهم العدد الكثير.
وله مؤلفات كثيرة جمعت النصائح والمواعظ والحكم وانتشرت
انتشارًا كبيرًا وكتب لها القبول والمحبة ونفع الله بها الناس
وقد ترجمت بعض مؤلفاته إلى لغات أجنبية في العصر الحاضر
مثل الإنجليزية والفرنسية. ومؤلفاته غنية عن التعريف

ومشهورة لدى الكبير والصّغير ومنها النصائح الدينيّة. والدعوة التامّة ورسالة المعاونه وغيرها من الوصايا والرسائل ومجموع كلامه تثبيت الفؤاد وديوانه العظيم الدّر المنظوم الجامع للحكم والعلوم ووصاياه ومكاتباته وأكثر مؤلفاته مطبوعة وأقبل عليها الناس إقبالاً شديداً وأعجب بها العلماء والعارفون وجعلوها بمنزلة الغذاء يقرئون فيها في كثيرٍ من الأوقات وقالوا عنها انها جمعت الخلاصة والزبدة من كلام الإمام حجّة الإسلام الغزالي ولا يستغني عنها كل مسلم فهي وجيزة وجامعه ونفع الله بها ببركة مؤلفها الإمام الحدّاد رضي الله عنه وكان رضي الله عنه قد سافر إلى الحرمين الشريفين وأدّى النسكين وزار جدّه سيّد الكونين سيدنا محمد عليه أفضل الصّلاة والسّلام وذلك في عام ١٠٧٩ هجريّة واجتمع بعلماء الحرمين الشريفين الذين اغتبطوا به وعرفوا قدره وأثنوا عليه .

ولم يزل يدعوا الناس إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة حتى وفاته إلى رحمة الله تعالى فتوفي ليلة الثلاثاء ٧ ذو القعدة عام ١١٣٢ هجرية ودفن بمقبرة زنبل بتريم رحمه الله رحمة واسعة ورضي الله عنه ونفعنا به وبعلومه في الدارين آمين .

طه بن حسن بن عبد الرحمن السقاف

حرر الجمعة ٢٢ شوال سنة ١٤١٢



صور من المخطوطات المستعان بها
في طبــع هذا الكتاب

كتاب النصائح الدينية والوصايا
الإيمانية تأليف سيدنا وبركتنا ووسيلتنا
إلى ربنا غوث البلاد العلامة العارف الحبيب
عبد الله بن علوي بن محمد
الحداد باعلوي نفع
الله به آمين
آمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

صفحة الغلاف من المخطوطة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم سبحانك لا
علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم الحمد لله
رب العالمين الذي جعل الدعوة إلى الهدى والدلالة على الخير
والنصيحة للمسلمين من أفضل القربات وأرفع الدرجات
وأهم المهمات في الدين وذلك سبيل أنبياء الله والمرسلين
وأوليائه الصالحين والعلماء العاملين الراسخين في
العلم واليقين وصلى الله على سيدنا محمد الرسول الأمين
والحبيب المكين خاتم النبيين وإمام المتقين وقائد
السابقين واللاحقين وعلى آله وأصحابه المخلصين الصادقين
وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين
أما بعد فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت
هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن
كانت

الصفحة الأولى من المخطوطة الأولى

كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته
إلى ما هاجر إليه رواه البخاري ومسلم وقال عليه
الصلاة والسلام الدين النصيحة قلنا لمن قال لله ولكتابه
ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم رواه مسلم
وهذا الكتاب ألفناه وجمعنا فيه نبذا من
النصائح الدينية والوصايا الإيمانية وقصدنا بذلك
النفع والانتفاع والتذكير لأنفسنا ولإخواننا
من المسلمين وقد جمعناه بعبارة سهلة قريبة وألفاظ
سلسة مفهومة حتى يفهمه الخاص والعام من أهل
الإيمان والإسلام وسميناه كتاب
النصائح الدينية والوصايا الإيمانية نسأل الله تعالى
أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ومقربا إلى جواره
في جنات النعيم وأن يعظم النفع به لنا ولكافة
إخواننا من المؤمنين فإنه ولي ذلك والقادر عليه
وحسبنا الله ونعم الوكيل وما توفيقي إلا بالله

الصفحة الثانية من المخطوطة الأولى

فقال اكثروا من قول لا اله الا الله وقال عليه السلام لا اله الا الله
نصف الميزان والحمد لله تملاه ولا اله الا الله ليس لها من
دون الله حجاب وورد ان عمودا من نور واقفا بين يدي الله
تعالى فاذا قال القائل لا اله الا الله اهتز ذلك العمود فيقول
الله تعالى له اسكن فيقول كيف اسكن ولم تغفر لقايلها
فيقول تعالى قد غفرت له فيسكن وورد ايضا ان العبد
اذا قال لا اله الا الله لم تمر لا اله الا الله في صحيفته الا محتها
حتى تجد حسنة فتسكن الى جنبها وورد ايضا ان لو
كانت السموات السبع وما فيهن في كفة ولا اله
الا الله في كفة لرجحت بها لا اله الا الله وما ورد في
فضل هذه الكلمة كثير شهير والقصد الاشارة دون
الاستقصا وكفى في معرفة فضلها انها الكلمة التي فيها
يدخل الانسان في الاسلام ومن ختم له عند الموت بها فاز
بالسعادة الابدية التي لا شقاوة بعدها اللهم يا كريم
نسالك ان تحيينا وتميتنا وتبعثنا على قول لا اله الا الله

صفحة من داخل المخطوطة الأولى

الترغيب والترهيب وقال رواه ابن حبان في صحيحه واللفظ له والحاكم
وذكر المنذري الحديثين الذين قبله في الكتاب المذكور ايضا رحمه الله
وجزاه عن المسلمين خيرا الحديث السابع عن أبي ذر
رضي الله عنه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه
عن ربه أنه قال يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته
بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته
فاستهدوني أهدكم يا عبادي إنكم تخطئون بالليل
والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم
يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا
نفعي فتنفعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم
وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي
شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على
أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا يا عبادي
لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني
فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص
المخيط إذا أدخل البحر يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم
إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن
إلا نفسه رواه مسلم والترمذي وابن ماجه

الصفحة قبل الأخيرة من المخطوطة الأولى

وقد ختمنا كتابنا هذا بالاحاديث من حديث رسول الله صلى الله عليه
وسلم كما افتتحناه بشيء منها تبركا وتيامنا بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ونرجوا
بذلك ان يجعل الله الكلام المولف بين ذلك مقبولا لديه ومقربا الى رضاه
وفي سبيل طاعته وتبرئه وان يغفر لنا ويتجاوز عنا ما وقع فيه من خطا او تخليط
وما داخلنا فيه من ريا او تصنع للناس او مباهاة او اعجاب ونستغفر الله
من جميع ذلك ومن ساير الذنوب ونتوب اليه منها ومن يغفر الذنوب
الا الله ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم وتب علينا انك انت
التواب الرحيم ربنا لا تواخذنا ان نسينا او اخطانا ربنا ولا تحمل علينا اصرا
كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف
عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين
لا اله الا انت سبحانك اللهم استغفرك لذنبي واسالك رحمتك
اللهم زدني علما ولا تزغ قلبي بعد اذ هديتني وهب لي من
لدنك رحمة انك انت الوهاب . تم الكتاب
بحمد الله وعونه وحسن توفيقه
سبحان ربك رب العزة عما يصفون
وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

الصفحة الأخيرة من المخطوطة الأولى

وان منكم الا واردها كان على ربك حتماً مقضياً

ثم ننجي الذين اتقوا وقال تعالى وينجي الله

الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم

يحزنون ومن ذلك المخرج من الشدايد والرزق

من حيث لا يحتسب واليسر وعظم الاجر قال الله

تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه

من حيث لا يحتسب ومن يتق الله يجعل له

من امره يسرا ومن يتق الله يكفر عنه سياته

ويعظم له اجرا ومن ذلك الوعد بالجنة قال

الله تعالى تلك الجنة التي وعد المتقون

الصفحة الأولى من المخطوطة الثانية

وازلفت الجنة للمتقين عند ربهم جنات النعيم

ان المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند

مليك مقتدر ومن ذلك الكرامة في الدنيا والاخرة

قال الله تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم فجعل

الكرامة عنده بالتقوى لا بالانساب ولا بالاموال

ولا بشي اخر فكم وعد الله ورسوله على التقوى

من خيرات وسعادات ودرجات وحسنات و

صلاح وفلاح وغنايم وارباح يطول ذكرها

ويتعذر حصرها وما احسن ما قيل في المعنى بيت

من يتق الله فذاك الذي • سيق اليه المتجر الرابح •

الصفحة الثانية من المخطوطة الثانية

وورد ان عمودا من نور واقفا بين يدي الله عز وجل
فاذا قال القائل لا اله الا الله اهتز ذلك العمود فيقول الله
تعالى له اسكن فيقول كيف اسكن ولم تغفر لقائلها فيقول
الله تعالى قد غفرت له فيسكن وورد ايضا ان العبد اذا قال
لا اله الا الله لم تمر لا اله الا الله على سيئة في صحيفة الا محتها
حتى تجد حسنة فتسكن الى جنبها وورد ايضا ان لو كانت
السموات السبع والارضون السبع وما فيهن في كفة ولا
اله الا الله في كفة لرجحت بهن لا اله الا الله وما ورد في
فضل هذه الكلمة كثير شهير والمقصد الاشارة دون
الاستقصاء ويكفي في معرفة فضلها انها الكلمة التي يدخل بها
الانسان في الاسلام ومن ختم له عند الموت بها فاز بالسعادة
الابدية التي لا شقاوة بعدها اللهم يا كريم نسالك
ان تحيينا وتميتنا وتبعثنا على قول لا اله الا الله مخلصين
في الدنيا واحبابنا والمسلمين امين وقال صلى الله عليه وسلم

صفحة من داخل المخطوطة الثانية

احتوشته ملايكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من
بين ايديهم ورايت رجلا من امتي يلهث عطشا كلما ورد حوضا
منع فجاءه صيامه فسقاه وارواه ورايت رجلا من امتي والنبيون
قعود حلقا حلقا كلما دنا لحلقة طردوه فجاءه اغتساله من الجنابة
فاخذه بيده فاقعده الى جنبي ورايت رجلا من امتي بين يديه
ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه
ظلمة ومن تحته ظلمة فهو متحير فيها فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه
من الظلمة وادخلاه النور ورايت رجلا من امتي يكلم المومنين
ولا يكلمونه فجاءته صلة الرحم فقالت يا معشر المومنين كلموه
فكلموه ورايت رجلا من امتي يتقي وهج النار وشررها بيده عن
وجهه فجاءته صدقته فصارت سترا على وجهه وظلا على
راسه ورايت رجلا من امتي اخذته الزبانية من كل مكان
فجاءه امره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذاه من ايديهم
وادخلاه مع ملايكة الرحمة ورايت رجلا من امتي جاثيا

على ركبتيه

الصفحة قبل الأخيرة من المخطوطة الثانية

ليقبض روحه فاذا دخل قبره ورد الروح في جسده وجاءه

ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان فاذا قامت الساعة انحط

عليه ملك الحسنات وملك السيئات فانتشطا كتاباً

معقوداً في عنقه ثم حضر معه واحد سايق واخر شهيد

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قدامكم لامراً

عظيماً ماتقدرواله فاستعينوا بالله العظيم ذكره الحافظ

السيوطي رحمه الله تعالى في شرح الصدور وقال اخرجه ابن

ابي الدنيا وابو نعيم الحديث الثاني عن عبد الرحمن بن سمره

رضي الله عنه قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال

اني رايت البارحه عجباً رايت رجلاً من امتي جاءه ملك الموت

ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرده عنه ورايت رجلاً

من امتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوءه فاستنقذه

من ذلك ورايت رجلاً من امتي احتوشته الشياطين فجاءه

ذكر الله فخلصه من بينهم ورايت رجلاً من امتي قد

الصفحة الأخيرة من المخطوطة الثانية

تنبيه واستدراك

هذا الكتاب مؤلف على طريقة السابقين ، الذين غلب اهتمامهم بموضوع ما يكتبون على اهتمامهم بفهرسة الكتاب ووضع الأبواب والفصول لهُ . . . وحرصاً على عمل ذلك من غير مساسٍ بأصل الكتاب فقد عملت مباحث بصفحات مستقلة . . . وعناوين بالهامش . . . لعموم الفائدة بذلك . . .

والله ولي التوفيق . . .

الناشر



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ .
سُبْحَانَكَ ! لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ .

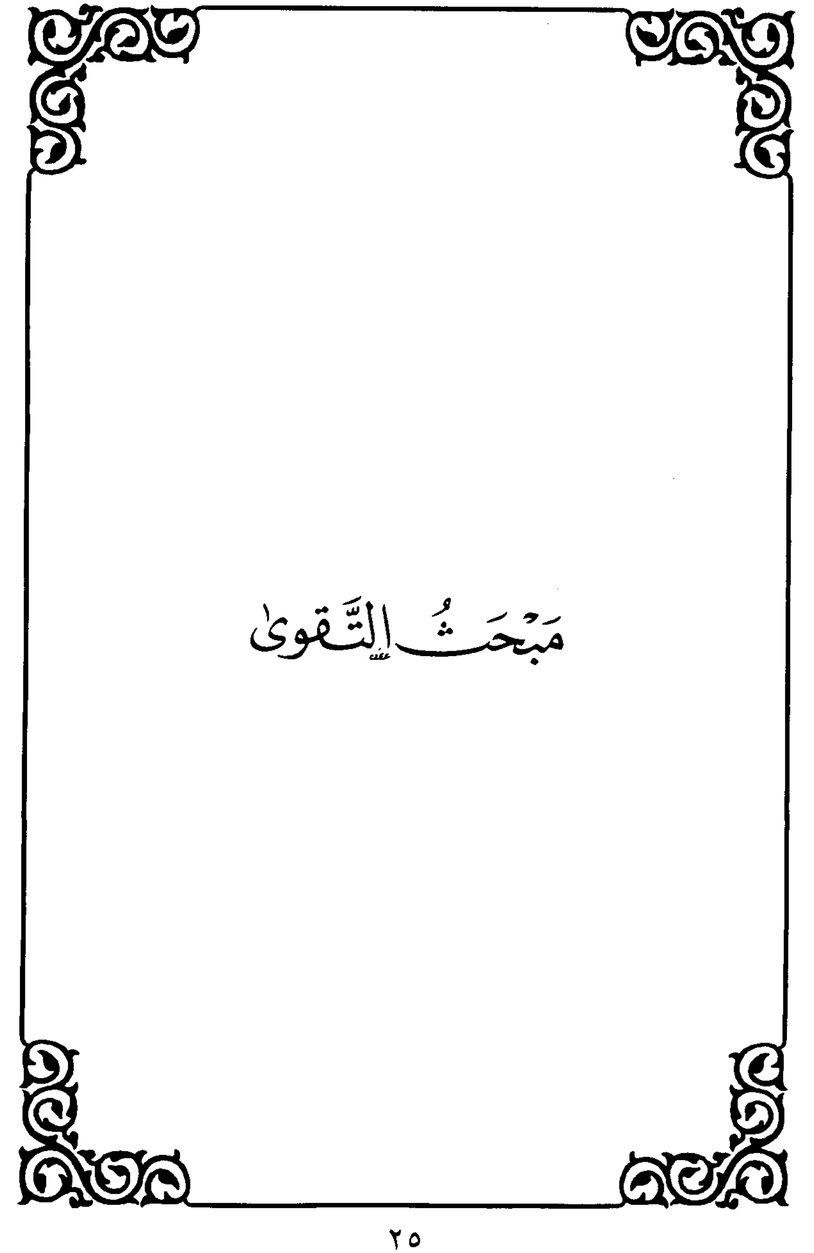
الحمد لله رب العالمين ، الذي جعل الدعوة إلى الهدى ، والدلالة على الخير ، والنصيحة للمسلمين ، من أفضل القربات ، وأرفع الدرجات ، وأهم المهمات في الدين ؛ وذلك سبيل أنبياء الله المرسلين ، وأوليائه الصالحين ، والعلماء العاملين الراسخين في العلم واليقين . وصلىٰ الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد الرسول الأمين ، والحبيب المكين ، خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، وسيد السابقين واللاحقين ، وعلى آله وأصحابه المخلصين الصادقين ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

(أما بعد) فقد قال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله

ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو آمرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » (رواه البخاري ومسلم) . وقال عليه الصلاة والسلام : « الدين النصيحة » . قالوا : لمن يا رسول الله؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » (رواه مسلم) .

وهذا كتاب أَلَّفناه وجمعنا فيه نُبذاً من النصائح الدينية ، والوصايا الإيمانية . وقصدنا بذلك النفع والانتفاع ، والتذكر والتذكير لأنفسنا ولإخواننا من المسلمين . وقد جعلناه بعبارة سهلة قريبة ، وألفاظ سلسة مفهومة ؛ حتى يفهمه الخاص والعام ، من أهل الإيمان والإسلام . وسميناه كتاب (النصائح الدينية والوصايا الإيمانية) . نسأل الله تعالىٰ أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، ومقرباً إلى جواره في جنات النعيم ، وأن يعظم النفع به لنا ولكافة إخواننا من المؤمنين ؛ فإنه وليُّ ذلك ، والقادر عليه . وحسبنا الله ونعم الوكيل . وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

* * *



مَبْحَثُ التَّقوى



قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٤/ ٨٧] . ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء : ٤/ ١٢٢] . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٠٢ـ١٠٥] .

فقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٠٢] . أمر منه عز وجَلَّ لعباده المؤمنين بتقواه . وكأنه سبحانه قد جمع في التقوى جميع الخيرات العاجلة والآجلة ، ثم أمر عباده المؤمنين بها ليفوزوا ويظفروا بما جعله فيها من الخير والصلاح ، والسعادة والفلاح ؛ رحمة بعباده المؤمنين . وكان بالمؤمنين رحيماً .

« والتقوىٰ » وصية الله رب العالمين للأولين والآخِرين ،

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ٤/ ١٣١] . فما من خير عاجل ولا آجل ، ظاهر ولا باطن إلا والتقوىٰ سبيل موصل إليه ، ووسيلة مبلِّغة له . وما من شر عاجل ولا آجل ، ظاهر ولا باطن إلا والتقوى حرز حريز ، وحصن حصين للسلامة منه ، والنجاة من ضرره .

وكم علَّق الله العظيم في كتابه العزيز على التقوى من خيرات عظيمة ، وسعادات جسيمة .

فمن ذلك المعية الإلهية الحفظية اللطفية ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢/ ١٩٤] .

ومن ذلك العلم اللدني قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢/ ٢٨٢] .

ومن ذلك الفرقان عند الاشتباه ووقوع الإشكال ، والكفارة للسيئات ، والمغفرة للذنوب ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال : ٨/ ٢٩] .

ومن ذلك النجاة من النار ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم : ١٩/ ٧١ـ٧٢] . وقال : ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر : ٣٩/ ٦١] .

ومن ذلك المخرج من الشدائد ، والرزق من حيث لا يحتسب ، واليسر وعظم الأجر قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٦٥/ ٢ـ٣] . ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٦٥/ ٤] . ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق : ٦٥/ ٥] .

ومن ذلك الوعد بالجنة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم : ١٩/ ٦٣] . وقال الله تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الرعد : ١٣/ ٣٥] . ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٦/ ٩٠] .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [القلم : ٦٨/ ٣٤] .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر : ٥٤/ ٥٤ـ٥٥] .

ومن ذلك الكرامة في الدنيا والآخرة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ٤٩/ ١٣] . فجعل الكرامة عنده بالتقوى ، لا بالأنساب ولا بالأموال ولا بشيء آخر . وكم وعد الله ورسوله على التقوى من خيرات وسعادات ، ودرجات وحسنات ، وصلاح وفلاح ، وغنائم وأرباح ، يطول ذكرها ، ويتعذر حصرها .

وما أحسن ما قيل في المعنى :

مَـنْ يتَّـقِ اللهَ فَـذَاكَ الَّـذي ‏ ‏ ‏ سِيْـقَ إليـهِ ٱلْمَتْجَـرُ الـرّابِـحُ

وقيل أيضاً :

مَـنْ عَـرَفَ اللهَ فلَـمْ تُغْنِـهِ مَعْـرِفَـةُ اللهِ فَـذَاكَ الشَّقـي
ما ضرَّ ذا الطّاعةِ ما نالَهُ فـي طـاعـةِ اللهِ ومـاذا لَقِـي
ما يصنَعُ ٱلعبدُ بعزِّ ٱلْغِنىٰ وٱلْعِـزُّ كُـلُّ ٱلْعِـزِّ لِلْمُتَّقِـي

أقوال العلماء في التقوى

قال العلماء ـ رضوان الله عليهم ـ : التقوى عبارة عن امتثال أوامر الله تعالىٰ ، واجتناب نواهيه ظاهراً وباطناً ، مع استشعار التعظيم لله ، والهيبة والخشية والرهبة من الله .

وقال بعض المفسرين ـ رحمهم الله ـ في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران : ٣/١٠٢] . هو أن يطاع فلا يعصىٰ ، ويذكر فلا ينسى ، ويُشكر فلا يُكفر . انتهىٰ .

ولن يستطيع العبد ولو كان له ألفُ ألفِ نفس إلى نفسه ، وألفُ ألفِ عمر إلى عمره ، أن يتقي الله حق تقاته ولو أنفق جميع ذلك في طاعة الله ومحابه ، وذلك لعظم حق الله تعالىٰ على عباده ، ولجلال عظمة الله ، وعلو كبريائه ، وارتفاع مجده . وقد قال أفضل القائمين بحق الله ، وأكملهم ، محمد ﷺ في دعائه ، اعترافاً بالعجز عن القيام بإحصاء الثناء على الله : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك . لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

وقد بلغنا أن لله ملائكة لم يزالوا منذ خلقهم الله في ركوع

وسجود ، وتسبيح وتقديس ، لا يفترُون عنه ، ولا يشتغلون بغيره ، فإذا كان يوم القيامة يقولون : « سبحانك! ولك الحمد . ما عرفناك حق معرفتك! ولا عبدناك حق عبادتك » .

وقد قال بعض العلماء : إن قوله تعالىٰ : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٠٢] . منسوخ بقوله : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ٦٤/ ١٦] . وقال بعضهم : الآية الثانية مبيِّنة للمراد من الآية الأولى لا ناسخة لها ؛ وهذا هو الصواب إن شاء الله تعالىٰ ، فإن الله تعالىٰ ـ وله الحمد ـ لا يكلف نفساً إلا وسعها . وإن كان له ذلك لو أراده وأمر به ، لأن له أن يفعل في ملكه وسلطانه ما يشاء . ولكنه سبحانه قد خفف ويسَّر ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٤/ ٢٨] . ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ٢/ ١٨٥] .

قال الإمام الغزالي رحمه الله في « الإحياء » : لما نزل قوله تعالىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢/ ٢٨٤] . شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ورضي عنهم ؛ فجاءوا إليه وقالوا : يا رسول الله ، كُلِّفنا ما لا نطيق! وفهموا من الآية المؤاخذة والمحاسبة حتى على حديث النفس ؛ فقال لهم عليه السلام : « أتريدون أن تقولوا كما قالت بنو إسرائيل : سمعنا وعصينا! ولكن قولوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك

المصير » . فقالوا ذلك ، فأنزل الله : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢/ ٢٨٥] .

فحكى ذلك عنهم وما بعده من دعائهم : بأن لا يؤاخذهم بالنسيان والخطأ ، وأن لا يحمل عليهم الإصر ، إلى آخر ما أخبر به عنهم . فاستجاب لهم وخفَّف ويسَّر ورفع الحرج ، فله الحمد كثيراً .

وبيَّن ذلك عليه السلام بقوله : « تُجُوِّز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرِهوا عليه ، وما حدَّثوا به أنفسهم ما لم يقولوا أو يعملوا » الحديث .

* * *

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٠٢] . أمر منه سبحانه بالموت على الإسلام ، وهو دين الله الذي أخبر في كتابه أنه الدين عنده ، وأنه لا يقبل من أحد سواه ، وأنه الدين الذي رضيه لرسوله ولعباده المؤمنين ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٩] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٣/ ٨٥] .

وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى

﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة : ٥/ ٣] . وليس يَقْدِر الإنسان على أن يميت نفسه على الإسلام ، ولكن قد جعل الله له سبيلاً إلى ذلك ، إذا أخذ به كان قد أتى بالذي هو عليه ، وامتثل ما أمره به ، وهو أن يختار الموت على الإسلام ، ويحبه ويتمناه ، ويعزم عليه ، ويكره الموت على غيره من الأديان ، ولا يزال داعياً متضرعاً وسائلاً من الله أن يتوفاه مسلماً ؛ وبذلك وصف الله أنبياءه والصالحين من عباده فقال مخبراً عن يوسف بن يعقوب عليهما السلام : ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٢/ ١٠١] . وعن السحرة حين آمنوا فتوعدهم فرعون بالعقوبة : ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٧/ ١٢٦] . وحكى الله تعالىٰ عن إبراهيم عليه السلام أنه أوصى بنيه ، وعن يعقوب أنه أوصىٰ بنيه أيضاً عليهم السلام بالموت على الإسلام فقال تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢/ ١٣٢] .

* * *

وعلى الإنسان الاجتهاد في حفظ إسلامه وتقويته بفعل ما أُمر به من طاعة الله تعالىٰ ، فإن المضيِّع لأوامر الله متعرض للموت على غير الإسلام ؛ فإنَّ تَرْكَه لذلك دليل على استهانته بحق الدين وعلى الاستخفاف به ، فليحذر المسلم من ذلك غاية الحذر .

وعليه أيضاً أن يجانب المعاصي والآثام ، فإنها تُضْعِف

الإسلام وتوهنه ، وتزلزل قواعده وتعرضه للسلب عند الموت ، كما وقع ذلك ـ والعياذ بالله ـ لكثير من الملابسين لها ، والمصرين عليها .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الروم : ٣٠/ ١٠] . ما يدل على ذلك ؛ فتأمله ، وخذ نفسَك بامتثال أوامر الله تعالىٰ ، واجتناب محارمه . وإن وقعتَ في شيء منها فتب إلى الله تعالىٰ منه ، واحذر كلَّ الحذر من الإصرار عليه .

ولا تزال سائلاً من الله حسن الخاتمة ، وقد بلغنا أن الشيطان ـ لعنه الله ـ يقول : قصم ظهري الذي يسأل الله تعالىٰ حسن الخاتمة . **أقول** : متى يُعجَب هذا بعمله! أخاف أن قد فطن .

وأكثِرْ من الحمد والشكر لله على نعمة الإسلام ، فإنها أعظم النعم وأكبرها ؛ فإن الله لو أعطى الدنيا بحذافيرها عبداً ومنعه الإسلام لكان ذلك وبالاً عليه . ولو أعطاه الإسلام ومنعه الدنيا لم يضره ذلك ، لأن الأول يموت فيصير إلى النار ، وهذا الثاني يموت فيصير إلى الجنة .

وعليك أن لا تزال خائفاً وجلاً من سوء الخاتمة ، فإن الله مقلب القلوب ، يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء . وفي الحديث الصحيح : « والذي لا إلٰه غيره إن أحدَكم ليعمل

بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » الحديث .

وفيه غاية التخويف لأهل التقوى والاستقامة ، فضلاً عن أهل التفريط والتخليط . وكان بعض السلف الصالح يقول : والله ما أَمِنَ أحد على دينه أن يُسلب إلا سُلب . وقد كان السلف الصالح ـ رحمة الله عليهم ـ في غاية الخوف من خاتمة السوء مع صلاح أعمالهم وقلة ذنوبهم ، حتى قال بعضهم : لو عُرض عليَّ الموت على الإسلام بباب الحجرة ، والشهادة بباب الدار ، يعني الشهادة في سبيل الله ، لاخترت الموت على الإسلام على باب الحجرة ، على الشهادة على باب الدار ؛ لأني لا أدري ما الذي يَعرِض لقلبي فيما بين الحجرة إلى باب الدار !

وقال آخر لبعض إخوانه : إذا حضرني الموت فاقعد عند رأسي وانظر ، فإن رأيتني قد مُتُّ على الإسلام فخذ جميع ما معي فبعه ، وخذ به سكراً ولوزاً وفرِّقه على الصبيان . وإن رأيتني قد مت على غير ذلك فأَعلِم الناس ليصلي عليَّ من أراد أن يصلي ، على بصيرة . وكان قد ذكر له علامة يعرف بها الفرق بين الأمرين . قال : فرأيته قد مات على الإسلام . وفعل

ما أمره به من التصدق على الصبيان . وحكاياتهم في ذلك كثيرة مشهورة .

واعلم أنه كثيراً ما يُختَم بالسوء للذين يتهاونون بالصلاة المفروضة ، والزكاة الواجبة ، والذين يتتبعون عورات المسلمين ، والذين ينقصون المكيال والميزان ، والذين يخدعون المسلمين ويغشونهم ويلبسون عليهم في أمور الدين والدنيا ، والذين يكذِّبون أولياء الله ، ويُنكرون عليهم بغير حق ، والذين يَدَّعُون أحوال الأولياء ومقاماتهم من غير صدق ، وأشباه ذلك من الأمور الشنيعة .

ومن أخوف ما يخاف منه على صاحبه سوء الخاتمة ، البدعة في الدين ، وكذلك إضمار الشك في الله ورسوله واليوم الآخر ، فليحذر المسلم من ذلك غاية الحذر ، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم .

اللهم يا أرحم الراحمين ، نسألك بنور وجهك الكريم ، أن تتوفانا مسلمين ، وأن تلحقنا بالصالحين في عافية يا رب العالمين .

* * *

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران : ٣/١٠٣] . أمرٌ بالاعتصام بدين الله ، وهو التمسك

والأخذ به ، والاستقامة عليه ، والاجتماع على ذلك . ونهيٌ عن التفرق فيه ، لأن الجماعة رحمة والفرقة عذاب ، ويد الله مع الجماعة ، كما قال عليه الصلاة والسلام .

ولما كان قيام هذا الدين الشريف في أصله بالاجتماع ، والمعاونة واتحاد الكلمة . كان الافتراق فيه وعدم المساعدة على إقامته موجباً لِوَهنه وضعفه ؛ فظهر أن الاجتماع في الدين أصل كلِّ خير وصلاح . والتفرق فيه أصل كل شر وبلاء .

* * *

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : ٣/١٠٣] . أمرٌ بشكره تعالىٰ على نعمة الألفة التي أنعم الله بها عليهم بعد العداوة الشديدة التي كانت بين الأوس والخزرج . وهم أنصار الله ورسوله خصوصاً ، وبين سائر العرب عموماً ؛ فإنهم إنما كانوا يقتتلون ويتناهبون ، ويأكل بعضهم بعضاً حتى بعث الله فيهم رسوله ، وأنزل عليه كتابه ، فجمع به شتاتهم ، وألَّف بين قلوبهم ، وأزال به ما كان بينهم من الضغائن والعداوات ، والفتن والمقاطعات ، فأصبحوا بنعمته إخواناً في دينه ونصرة رسوله ، وتعظيم شعائره ، وقد ذكر الله تعالىٰ ذلك في معرض الامتنان على رسوله عليه السلام في قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ . . . ﴾ [الأنفال : ٨/ ٦٢-٦٣] . وقد كانوا من قبل أن يبعث الله إليهم رسوله على شفا حفرة من النار ، وذلك بما كانوا عليه من الكفر بالله وعبادة الأصنام ، فأنقذهم الله منها بما شرعه لهم من توحيده والعمل بطاعته ؛ فطلب الله منهم سبحانه أن يشكروه على ذلك ، ويعرفوا حق نعمته عليهم في إنقاذهم من الضلالة ، واجتماعهم بعد الفرقة . وحذَّرهم في ضمن ذلك من موجبات الفرقة ، والاختلاف بعد الاجتماع والائتلاف ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٠٣] . أي تزدادون هدىً إلى هداكم ؛ كما قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد : ٤٧/ ١٧] .

* * *

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾ . أي جماعة ، ﴿ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٤] وهو ـ أعني الخير على الجملة ـ الإيمان والطاعة . والدعوة إلى ذلك منزلة عند الله رفيعة ، وقربة إلى الله عظيمة .

قال ﷺ : « من دعا إلى هُدىً كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه من غير ان ينقص من آثامهم شيء » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الدالُّ على الخير كفاعله » .
فمن جعل الدعاء إلى الخير دأبه وشُغله فقد أخذ بحظ وافر من ميراث رسول الله ﷺ ، وسار على سبيله التي قال الله تعالىٰ فيها : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٢/١٠٨] . فلم يكن شغله عليه الصلاة والسلام في جميع أوقاته غير الدعوة إلى الله بقوله وفعله ؛ ولذلك بعثه الله ، وبذلك أمره ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ [الرعد : ١٣/٣٦] . فأقرب الناس من رسول الله ﷺ وأولاهم به في الدنيا والآخرة ، أحرصهم على هذا الأمر ، وأكثرهم شغلاً به ، وأتمهم دخولاً فيه ، أعني به الدعوة إلى الخير المفسَّر بالإيمان والطاعة ، والنهي عن ضديهما اللذين هما الكفر والمعصية .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٤] . والفلاح : هو الفوز بسعادة الدنيا والآخرة .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : من أعظم شعائر الدين ، وأقوى دعائم الإسلام ، وأهم الوظائف على المسلمين ، وبهما قِوام الأمر وصلاح الشأن كله . وبإهمالهما تتعطل الحقوق ، وتُتعدىٰ الحدود ، ويخفى الحق ويظهر الباطل .

والمعروف : عبارة عن كل شيء أمر الله بفعله ، وأحب من عباده القيام به . والمنكر : كل شيء كره الله فعله ، وأحب من عباده تركه . والقيامُ بذلك ، أعني الأمر والنهي ، لابد منه ، ولا رخصة في تركه ؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ؛ وذلك أضعف الإيمان » . وفي رواية أخرى : « وليس وراء ذلك ـ يعني الإنكار بالقلب ـ من الإيمان مثقال ذرة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقّر كبيرنا ، ويأمر بالمعروف ويَنْهَ عن المنكر » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « والذي نفسي بيده ، لتأمرُنَّ بالمعروف ، ولتنهَوُنَّ عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم أو ليبعثن الله عليكم عقاباً من عنده » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا هابت أمتي أن تقول للظالم يا ظالم ؛ فقد تُوُدِّعَ منها » ومعنى ذلك : فقد ذهب خيرها ، ودنا هلاكها .

* * *

ولا يقبل الله تعالىٰ الأعذار الباردة ، والتعللات الكاذبة التي يتعلل بها أبناء الزمان في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذلك كقولهم : إنه لا يُقبل منا مهما أمرنا أو نهينا . أو أنه يحصل لنا بواسطة الأمر والنهي أذى لا نطيقه ، وأشباه

ذلك من توهمات من لا بصيرة له ، ولا غَيرة على دين الله . وإنما يجوز السكوت عند تحقق وقوع الأذى الكثير ، أو تيقُّن عدم القبول ، ومع وجود ذلك فالأمر والنهي أفضلُ وأولىٰ ، غير أنه يُسقط الوجوب . والعَجَبُ أن أحدهم إذا شُتم أو أُخذ من ماله ولو شيئاً يسيراً تضيق عليه الدنيا ولا يمكنه السكوت ، ولا يتعلل بشيء من تلك التعللات التي يتعلّل بها في السكوت على المنكرات . فهل لهذا محمل ، أو وجه سوى أن أعراضهم وأموالهم أعز عليهم من دينهم!

وإذا سلمنا لهم أنه لا يُسمع منهم إذا أمَروا أو أنكروا ، فما الذي يحملهم على مخالطة أهل المنكر ومعاشرتهم!؟ وقد أوجب الله عليهم تركهم والإعراضَ عنهم مهما لم يستجيبوا لله ورسوله . وقد ثبت أن الذي يشاهد المنكرات ولا ينكرها مع القدرة شريكٌ لأصحابها في الإثم . وكذلك الذي يرضى بها وإن لم يكن حاضراً عندها . بل وإن كان بينه وبين الموضع الذي تُعمل فيه مثل ما بين المشرق والمغرب . والذي يخالط أهل المنكر ويعاشرهم وإن لم يعمل بعملهم معدودٌ عند الله منهم ، وإن نزلت بهم عقوبة أصابته معهم ، ولا ينجو ولا يسلم إلا بالنهي ، ثم بالمجانبة والمفارقة لهم إن لم يقبلوا وينقادوا للحق .

والحبُّ في الله لأهل طاعته ، والبغضُ في الله لأهل معصيته من أوثق عُرىٰ الإيمان . وقد بلغنا عن رسول الله ﷺ

أنه قال : « لما أحدث بنو إسرائيل الأحداث نهتهم علماؤهم فلم يستجيبوا لهم ، فخالطوهم بعد ذلك وواكلوهم ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله بقلوب بعضهم على بعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم » .

وفي قصة أهل القرية التي كانت حاضرة البحر : أنهم لما استحلّوا الاصطياد المحرّم عليهم يوم السبت تفرقوا ثلاث فرق ؛ ففرقة اصطادوا واستحلوا ما حرم الله عليهم ، وفرقة أمسكوا ونهوهم ولم يفارقوهم ، وفرقة فارقوهم وخرجوا من بين أظهرهم بعد النهي لهم ، فلما نزلت العقوبة عمت الأولى وكذا الثانية ، لإقامتهم مع أهل المعصية وإن لم يعملوا بعملهم . ونجت الفرقة الثالثة ، وذلك قوله تعالىٰ : ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف : ٧/ ١٦٥] . فمسخهم الله قردةً ولعنهم ، كما في الآية الأخرى : ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ﴾ [النساء : ٤/ ٤٧] . وتكون الهجرة والمجانبة لأهل المعاصي ، عند الإياس من قبولهم للحق .

* * *

واعلم أنه ليس بواجب على أحد أن يبحث عن المنكرات المستورة حتى ينكرها إذا رآها ، بل ذلك محرم لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ ﴾ [الحجرات : ٤٩/ ١٢] . ولقول النبي عليه الصلاة

والسلام : « من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته . . » الحديث . وإنما الواجب هو الأمرُ بالمعروف عندما ترى التاركين له في حال تركهم ، والإنكارُ للمنكَر كذلك . فاعلم هذه الجملة ؛ فإنا رأينا كثيراً من الناس يغلَطون فيها .

ومن المهمِّ : أن لا تصدِّق ولا تقبل كل ما يُنقل إليك من أفعال الناس وأقوالهم المنكَرة حتى تشاهد ذلك بنفسك ، أو ينقله إليك مؤمن تقيٌّ لا يجازف ، ولا يقول إلا الحق . وذلك لأن حسن الظن بالمسلمين أمرٌ لازم ، وقد كثرت بلاغات الناس بعضهم على بعض ، وعمَّ التساهل في ذلك ، وقلّت المبالاة ، وارتفعت الأمانة ، وصار المشكور عند الناس من وافقهم على هوى أنفسهم وإن كان غير مستقيم لله! والمذمومُ عندهم من خالفهم وإن كان عبداً صالحاً ، فتراهم يمدحون من لا يستأهل المدح لموافقته إياهم وسكوته على باطلهم ، ويذمُّون من يخالفهم وينصحهم في دينهم!!

هذا حال الأكثر إلاَّ من عصمه الله ، فوجب الاحتراز والتحفظ والاحتياط في جميع الأمور ، فإن الزمان مفتون وأهله عن الحق ناكبون إلا من شاء الله منهم وهم الأقلون .

* * *

واعلم أن الرفق واللطف ، ومجانبة الغلظة والعنف ، أصلٌ كبير في قبول الحق والانقياد له ، فعليك بذلك مع مَن أمرتَه أو

نهيتَه أو نصحتَه من المسلمين ، وأَحْسِن السياسة في ذلك ، وكَلِّمه خالياً ، ولِنْ له جانباً ، واخفض له جناحاً ، فإن الرفق ما كان في شيء إلا زانه ، ولا نُزع من شيء إلا شانه ، كما قال عليه الصلاة والسلام ، وكما قال الله تعالىٰ لرسوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٥٩] .

* * *

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٠٥] نهيٌ من الله لعباده المؤمنين عن التشبه بالمتفرقين المختلفين في دينهم من أهل الكتاب ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الذين اختلفوا في دينهم ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فاستعظم ـ رحمك الله ـ جدّاً عذاباً سمَّاه الإلٰه العظيم عظيماً ، وتفكَّر فيه وانجُ بنفسك منه ، وذلك بملازمة الكتاب والسنة ، ومجانبة الزيغ والبدعة ، والآراء المختلفة والأهواء المتفرقة .

* * *

واعلم أنه كما تفرق أهل الكتاب واختلفوا في دينهم ، فقد تفرقت هذه الأمة واختلفت أيضاً على وفق ما أخبر به رسول الله ﷺ في قوله : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارىٰ على ٱثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق

أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النار إلا فرقة واحدة » .
وقد افترقت هذه الأمة على هذا العدد من زمان قديم ، وتمّ ما وعد به الصادق الأمين على وحي الله تعالىٰ وتنزيله ، ولما سئل عليه الصلاة والسلام عن الفرقة الناجية مَن هي؟ قال : « التي تكون على مثل ما أنا عليه وأصحابي » . وأمر عليه الصلاة والسلام عند الاختلاف بلزوم السواد الأعظم وهو الجمهور الأكثر من المسلمين . ولم يزل أهل السنة بحمد الله تعالىٰ من الزمان الأول إلى اليوم هم السواد الأعظم ، وصح أنهم الفرقة الناجية بفضل الله لذلك ، ولملازمتهم للكتاب والسنة ، وما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وبعد : فإنا والحمد لله قد رضينا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبيّاً ورسولاً ، وبالقرآن إماماً ، وبالكعبة قبلةً ، وبالمؤمنين إخواناً . وتبرَّأنا من كل دين يخالف دين الإسلام ، وآمنا بكل كتاب أنزله الله ، وبكل رسول أرسله الله ، وبملائكة الله ، وبالقَدَر خيره وشره ، وباليوم الآخر ، وبكل ما جاء به محمد رسول الله ﷺ عن الله تعالى ، على ذلك نحيا وعليه نموت ، وعليه نبعث إن شاء الله من الآمنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، بفضلك اللهم يا رب العالمين . وقد قال رسول الله ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً » . وقال عليه

الصلاة والسلام : « من قال حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، كان حقاً على الله أن يرضيه » .

* * *

واعلموا معاشر الإخوان أنه من رضي بالله رباً : لزمه أن يرضى بتدبيره واختياره له ، وبمُرِّ قضائه ، وأن يقنع بما قسمه له من الرزق ، وأن يداوم على طاعته ، ويحافظ على فرائضه ، ويجتنب محارمه ، ويكون صابراً عند بلائه ، شاكراً لنعمائه ، محبّاً للقائه ، راضياً به وكيلاً ووليّاً وكفيلاً ، مخلصاً له في عبادته ، ومعتمداً عليه في غَيبته وشهادته . لا يفزع في المهمات إلا إليه ، ولا يعوّل في قضاء الحاجات إلا عليه سبحانه وتعالىٰ .

ومن رضي بالإسلام ديناً : عظّم حرماته وشعائره ، ولم يزل مجتهداً فيما يؤكده ويزيده رسوخاً واستقامة من العلوم والأعمال ، ويكون به مغتبطاً ، ومِن سَلْبه خائفاً ، ولأهله محترماً ، ولمن كفر به مبغضاً ومعادياً .

ومن رضي بمحمد ﷺ نبياً : كان به مقتدياً ، وبهديه مهتدياً ، ولشرعه متَّبِعاً ، وبسنته متمسِّكاً ، ولحقِّه معظِّماً ، ومن الصلاة والسلام عليه مكثراً ، ولأهل بيته وأصحابه محباً ، وعليهم مترضياً ومترحماً ، وعلى أمته مشفقاً ولهم ناصحاً .

فينبغي لك أيها المؤمن : أن تطالب نفسك بتحقيق هذه المعاني التي ذكرناها في معنى قولك : « رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً » وكلِّف نفسك الاتصاف بها ، ولا تقنع منها بمجرد القول ، فإنه قليل الجدوى ، وإن كان لا يخلو عن منفعة .

وكذلك فافعل في جميع ما تقوله من الأذكار والأدعية ونحوها ، وطالب نفسك بحقائقها والاتصاف بمعانيها ، مثال ذلك : أن تكون عند قولك « سبحان الله » ممتلىء القلب بتنزيه الله وتعظيمه ، وعند قولك « الحمد لله » ممتلىء القلب بالثناء على الله تعالىٰ وشكره ، وعند قولك « رب اغفر لي » ممتلئاً من الرجاء في الله أن يغفر لك ، ومن خوفه أن لا يغفر لك ، فقس على ذلك .

واجتهد في الحضور مع الله ، وتدبر معاني ما تقوله ، واجتهد في الاتصاف بما يحبه الله منك والاجتناب لما يكرهه .

إصلاح القلب

واصرف عنايتك إلى أمر القلب والباطن ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم ونياتكم » فحقِّق قولك بعملك ، وعملك بنيتك وإخلاصِك ، ونيتَك وإخلاصَك بتصفية ضميرك وإصلاح قلبك ، فإن القلب هو الأصل وعليه المدار .

وفي الحديث : « ألا إن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح

سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد سائر الجسد ؛ ألا وهي القلب » . فوجب الاهتمام به ، وصرف العناية إلى إصلاحه وتقويمه ، وهو ـ أعني القلب ـ سريع التقلب ، كثير الاضطراب حتى قال عليه الصلاة والسلام فيه : « إنه أسرع تقلُّباً من القِدْر إذا استجمعت غليانها » . وكان عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يدعو : « يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك » . ويقول : « إن القلوب بين أُصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامها وإن شاء أزاغها » ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا حلف واجتهد في اليمين يقول : « لا . . ومقلِّب القلوب » . وقال تعالىٰ حاكياً عن إبراهيم خليله عليه السلام : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٢٦/ ٨٧ـ٨٩] . فاحرص كل الحرص ـ رحمك الله ـ على أن تأتي ربك بالقلب السليم من الشرك والنفاق ، والبدعة ومنكرات الأخلاق ، مثل الكبر والرياء ، والحسد والغش للمسلمين ، وأشباه ذلك . واستعن بالله واصبر ، واجتهد وشمِّر ، وقل كثيراً : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٣/ ٨] . فبذلك وصف الله الراسخين في العلم من عباده المؤمنين .

* * *

القسوة والغفلة

وإياك والقسوة ، وهي غلظ القلب وجموده حتى لا يتأثر بالموعظة ، ولا يرقّ ولا يلين عند ذكر الموت والوعد والوعيد ، وأحوال الآخرة ، قال ﷺ : « أبعد الأشياء من الله تعالىٰ القلبُ القاسي » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « من الشقاء أربع : قسوة القلب ، وجمود العين ، والحرص ، وطول الأمل » . فاحترز من هذه الأربع . وفي الحديث الآخر : « واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل » .

والغفلة دون القسوة ، وهي مذمومة ، وفيها غاية الضرر . والقلبُ الغافل : هو الذي لا يستيقظ ولا يتنبَّه إذا وردت عليه المواعظ والزواجر ، ولا يلتفت إليها من غفلته وسهوه ، واشتغاله بلعبه ولهوه ، وزخارف دنياه ، واتِّباع هواه ، قال الله تعالىٰ لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧/٢٠٥] . فنهاه عن أن يكون من أهل الغفلة ، كما نهاه عن طاعة الغافلين والسماع منهم في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ١٨/٢٨] .

ومن الغفلة أن يقرأ العبد القرآن الكريم أو يسمعه فلا يتدبره ولا يتفهم معانيه ، ولا يقف عند أوامره وزواجره ، ومواعظه وقوارعه . وكذلك أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وكلام السلف الصالح رضوان الله عليهم .

ومن الغفلة أن لا يكثر ذكر الموت وما بعده من أمور الآخرة ، وأحوال أهل السعادة وأهل الشقاوة فيها ، ولا يُدْمِن على الفكر في ذلك .

ومن الغفلة أن لا يكثر مجالسة العلماء بالله وبدينه ، المذكِّرين بأيامه وآلائه ووعده ووعيده ، المحرِّضين على طاعته وعلى اجتناب معصيته بأفعالهم وأقوالهم ، ومن لم يجدهم فكتبهم التي صنفوها تُجزِي عن مجالستهم عند فقدهم .

على أن الأرض لا تخلو إن شاء الله منهم ، وإن عمَّ فساد الزمان وتفاحش ظهور الباطل وأهله ، وأدبر الخاص والعام وأعرضوا عن الله وعن إقامة الحق إلاَّ من شاء الله وقليلٌ ما هم ، وذلك لقول النبي عليه الصلاة والسلام : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من ناوأهم حتى يأتي أمر الله » مع أخبار وآثار كثيرة تدل على أن الأرض لا تخلو في كل زمان عن عصابة من أهل الحق ، مستقيمين على كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ يدعون الناس إلى التمسك بالكتاب والسنة ، غير أنهم يَقِلُّون جداً في آخر الزمان ، وقد يستترون حتى لا يعرفهم ويهتدي إليهم إلا الطالب الصادق ، والراغب المخلص ، والله تعالىٰ أعلم .

* * *

واعلموا معاشر الإخوان ـ أيدنا الله وإياكم ـ أن خير القلوب وأحبها إلى الله : ما كان نظيفاً نقياً من الباطل والشكوك ، ومعاني الشر كلها ، واعياً للحق والهدى ، ومعاني الخير والصواب .

وفي الحديث : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن . وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر . وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق . وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق ، فمَثَل الإيمان فيه مَثَل البقلة يمُدها الماء العذب ، ومَثَل النفاق فيه مَثَل القرحة يمدها القيح والصديد فأي المادتين غلبت عليه ذهبت به » .

قلت : والظاهر أن هذا القلب الأخير وصف قلوب أهل التخليط والتفريط من عامة المسلمين .

وفي الحديث أيضاً : « إن الإيمان يبدو في القلب لمعة بيضاء ثم تزيد حتى يَبْيَضَّ القلب كله . وإن النفاق يبدو في القلب نكتة سوداء ثم تزيد حتى يَسْوَدَّ القلب كله » نسأل الله العافية والوفاة على الإسلام لنا وللمسلمين .

وإنما يزيد الإيمان بالمداومة على الأعمال الصالحة والإكثار منها مع الإخلاص لله .

وأما النفاق فزيادته بالأعمال السيئة : من ترك الواجبات ، وارتكاب المحرمات ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام :

« من أذنب ذنباً نكت في قلبه ، نكتة سوداء ؛ فإن تاب صُقل قلبه وإن لم يتب زاد ذلك حتى يَسْوَدَّ قلبه » . فذلك الرَّان الذي قال الله تعالىٰ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ٨٣/ ١٤] . فلا شيء أشر وأضر على الإنسان في الدنيا والآخرة من الذنوب ، ولا يكاد يخلص إليه سوء ولا يناله مكروه إلا من جهتها ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : ٤٢/ ٣٠] .

فينبغي للمؤمن أن يكون على نهاية الاحتراز منها ، وفي غاية البعد عنها ، وإن أصاب منها شيئاً فليبادر بالتوبة منه إلى الله ، فإنه تعالىٰ يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ، ظلموا أنفسهم فعرضوها لسخط الله بالوقوع في معصيته ، ثم بالإصرار عليها بتركهم التوبة منها التي أمرهم ربهم بها ووعدهم بقبولها ، ووصف نفسه بذلك فقال تعالىٰ : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [غافر : ٤٠/ ٣] . فتأملوا ـ رحمكم الله ـ هذه الآية ، وما جمعت من المعاني الشريفة والأسرار اللطيفة الباعثة على الخوف والرجاء . والرغبة والرهبة ، وغير ذلك ، ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر : ٤٠/ ١٣ـ١٤] .

* * *

وقال علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ : إن لله في الأرض آنيةً ألا وهي القلوب ، فخيرها أصفاها وأصلبها وأرقها . ثم فسر ذلك فقال : أصفاها في اليقين ، وأصلبها في الدين ، وأرقُّها على المؤمنين .

قلت : واليقين عبارة عن تمكن الإيمان من القلب واستيلائه عليه ، وهو الطمأنينة التي سألها إبراهيم عليه السلام ربه فيما أخبر عنه بقوله : ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة : ٢/ ٢٦٠] .

فبان من هذا أن اليقين غاية الإيمان ونهايته . وفي الحديث : « اليقين هو الإيمان كله » وما نزل من السماء أشرف من اليقين ، وكفى باليقين غنى . وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام : « سلوا الله اليقين والعافية ، فإنه ما أوتي أحد بعد اليقين أفضل من العافية » .

وأما الصلابة في الدين فهي القوة فيه ، والثبات عليه ، والغَيرة له حتى يقول الحقَّ وإن كان مُرّاً ، ولا يخاف في الله لومة لائم . وبذلك وصف الله أحِبَّاءه في قوله : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ . [المائدة : ٥/ ٥٣ـ٥٤] .

وبذلك وصف رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال فيه : « أقواكم في دين الله عمر ، قوله الحق ، وما له في الناس من صديق » .

وقد كان رضي الله عنه من أصلب المؤمنين في دين الله ، وأشدهم أخذاً به في حق نفسه وفي حق غيره ، حتى صارت الأمثال تُضرب به في عدله ، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وقيامه بالحق على القريب والبعيد ، رضي الله عنه وعن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين .

الرقة على لمؤمنين

وأما الرقة على المؤمنين فأن يكون رحيماً بهم مشفقاً عليهم ، وذلك من أشرف الأخلاق وأفضل الخصال ، وبه وصف الله رسوله فقال : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ٩/١٢٨] .

وقال رسول الله ﷺ : « الراحمون يرحمهم الرحمن . ومن لا يَرحمْ لا يُرحمْ » . وقال رسول الله ﷺ أيضاً : « إن أبدال أمتي لا يدخلون الجنة بكثرة صلاة ولا صيام ، بل بسلامة الصدور وسخاوة النفوس ، والرحمة بكل مسلم » .

قلت : ولا يُفهَم من هذا أن الأبدال ليسوا بمكثرين من الصلاة والصيام ، بل كانوا مكثرين منهما ومن غيرهما من الأعمال الصالحة . ولكن هذه الأوصاف التي وصفهم بها

نبي الله ﷺ قدَّمتهم إلى الله وقرَّبتهم إليه لفضلها وشرفها أكثر من غيرها من بقية أعمالهم الصالحة لأنها من أعمال القلوب ، وأوصاف السرائر . . فافهم .

واعلم أنها لا توزن أعمال القلوب بأعمال الجوارح في الخير والشر إلا وترجح أعمال القلوب رجحاناً بيِّناً على أعمال الجوارح ، وتزيد عليها زيادة كثيرة . ومن هذه الحيثية فَضَلَ أهلُ التصوف ، المعتنون بتزكية القلوب ، والمهتمون بما يخصها من الأوصاف والأعمال الصالحة ، غيرَهم من طوائف المسلمين من العباد والعلماء الذين ليس لهم من العناية بأمر الباطن مثل ما لأهل التصوف ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم .

والرحمة بالمسلمين أمرٌ واجب وحق لازم ، وهي بالضعفاء والمساكين وأهل البلايا والمصائب أولى وأوجب . ومن لم يجد في قلبه عند مشاهدة ضعفاء المسلمين وأهل البلاء منهم ، رقة ورحمة فهو غليظ القلب ، قد غلبت عليه القسوة ، ونزعت منه الرحمة ، ولا تنزع الرحمة إلا من شقي ، كما قال عليه الصلاة والسلام .

فإن وَجَد مع ذلك ـ أعني هذا القاسي ـ في نفسه تكبراً وأنفة واستنكافاً من مخالطة أهل الضعف والمسكنة من المسلمين فسحقاً له وبعداً ومقتاً من الله ، قد حل به ما استوجب من الطرد عن باب الله ، ويكون في جملة المتكبرين المنازعين لله

تعالىٰ ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » .

* * *

ومن الرقة : خشوع القلب وكثرة البكاء من خشية الله . وذلك وصف شريف ، ومسعى حميد ، به وصف الله أنبياءه والصالحين من عباده فقال تعالىٰ : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم : ١٩/٥٨] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء : ١٧/١٠٩] .

وقد عدَّ عليه الصلاة والسلام في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : « رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » وقال عليه الصلاة والسلام : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله » يعني في الجهاد ، وكان البكاء الخالص من خشية الله عزيزاً جداً حتى صار بهذه المنزلة من الله مع كثرة من يبكي من الناس ، حتى ورد عنه عليه الصلاة والسلام : « لا يلج النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ، وحتى يلج الجمل في سمِّ الخياط » ، وفي رواية : « من خرج من عينه مثل رأس الذباب من خشية الله » وقد سوّى عليه الصلاة والسلام بين المدمع من خشية الله وبين الدم يهراق في سبيل الله . وورد : « لو أن باكياً بكى في أمة لرحمهم الله ببكائه » ، فتبين بما

ذكرناه أن البكاء كثير ، وأن الذي يكون من خشية الله فقط من البكاء قليل ، فابك من خشية الله ، فإن لم تبك فتَبَاك . وإياك والرياء والتصنع والتزين للمخلوقين فتسقط بذلك من عين رب العالمين .

* * *

وإن عزّ عليك البكاء فتذكّر ما بين يديك من أهوال الآخرة التي أنت ملاقيها من غير شك ولا ريب ، إن كنت قد آمنت بالله وبما جاء به محمد رسول الله ﷺ ، فسوف تبكي لا محالة إن كان لك قلب يفقه ، وعقل يعقل ، فإن لم يكن لك شيء من ذلك فاعُدد نفسك في الأنعام السائمة في المرعى ، والبهائم الراتعة في الكلأ ، فإن الله تعالىٰ إنما خاطب أهل القلوب وذكرهم ، فقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٥٠/٣٧] .

وقال تعالىٰ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٣٨/٢٩] . وفي غير موضع من الكتاب العزيز : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ٢/٢٦٩] . وهم أولو العقول ، فانظر كيف نفى التذكر عن غيرهم .

كما خص الله تعالىٰ بالتذكُّر أهلَ الإنابة وهم الراجعون إليه ، وأهل الخشية وهم الخائفون منه ، وأهل الإيمان وهم المصدقون به وبرسوله وبوعده ووعيده ، فقال الله تعالىٰ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ . [غافر : ٤٠/ ١٣] .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۞ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى : ٨٧/ ٩ـ١٠] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥١/ ٥٥] .

فشرع التذكُّرَ وأمر به رسوله عموماً ، وخص بنفعه المؤمنين من عباده ، وكان ذلك لهم حجة عنده ومحجة إليه ، كما كان على الآخرين حجةً قائمة مدحِضةً لحججهم الباطلة ، فإنهم أعرضوا بعد العلم ، وأنكروا بعد المعرفة ، ولم يستجيبوا لله ورسوله ، ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت : ٤١/ ٥] . ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [فاطر : ٣٥/ ٤٢] .

فهذا وصف من دعاه ربه إلى توحيده وطاعته على لسان رسوله فأبى واستكبر ، وجحد وكفر . ومن آمن بلسانه وصدَّق بظاهره ، وأنكر بقلبه فهو المنافق ، الذي له ما للكافر وعليه ما عليه من غضب الله ولعنته .

ومن آمن بقلبه ولسانه ، وضيّع ما فرض الله عليه من طاعته ، وارتكب ما حرّم الله عليه من معصيته ، فأمره في غاية الخطر ، ويخشى عليه إن لم يتداركه الله بالتوفيق لتوبة خالصة

قبل مماته أن يلتحق بالمنافقين والكافرين ، ويكون معهم في نار الله الموقدة ﴿ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴾ [الهمزة : ١٠٤/ ٧-٩] .

فاثبُت أيها المؤمن المطيع على طاعة ربك ، واستكثر منها ، واصبر عليها ، وأخلص له فيها ، ودم على ذلك حتى تلقاه جلّ وعلا ، فيرضيك ويرضى عنك ، ويحلك دار كرامته ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾

[الرعد : ١٣/ ٣٥] .

وانزع أيها المؤمن العاصي عن معصيتك ، وتب إلى ربك منها من قبل أن ينزل بك الموت ، فتلقى ربك دنِساً خبيثاً ، فتكون كما قال الله ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [طه : ٢٠/ ٧٤] . ولا تأمن إن لم تبادر بالتوبة من عصيانك أن يُنزل الله بك عقاباً من عقابه ، فإن العاصين لربهم متعرضون لذلك في كل وقت ، ألم تسمع قول الله تعالىٰ : ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٤٥ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٤٦ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

[النحل : ١٦/ ٤٥-٤٧] .

اللهم اجعلنا يا كريم بتذكيرك منتفعين ، ولكتابك ورسولك

متبعين ، وعلى طاعتك مجتمعين . وتوفنا يا ربنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، ووالدينا وأحبابنا برحمتك يا أرحم الراحمين .

* * *

واعلموا معاشرَ الإخوان ـ أيقظ الله قلوبنا وقلوبكم من سِنة الغفلة ، ووفقنا وإياكم للاستعداد للنقلة من الدار الفانية إلى الدار الباقية ـ أن من أضر الأشياء على الإنسان طول الأمل .

طول الأمل

ومعنى **طول الأمل** : استشعارُ طول البقاء في الدنيا حتى يغلب ذلك على القلب فيأخذ في العمل بمقتضاه ، وقد قال السلف الصالح ـ رحمة الله عليهم ـ : من طال أمله ساء عمله . وذلك لأن طول الأمل يحمل على الحرص على الدنيا ، والتشمير لعمارتها ، حتى يقطع الإنسان ليله ونهاره بالتفكر في إصلاحها ، وكيفية السعي لها تارةً بقلبه وتارةً بالعمل في ذلك ، والأخذ فيه بظاهره ، فيصير قلبه وجسمه مستغرقين في ذلك ، وحينئذ ينسى الآخرة ويشتغل عنها ، ويسوِّف في العمل لها ، فيكون في أمر دنياه مبادراً ومشمِّراً ، وفي أمر آخرته مسوِّفاً ومقصِّراً ، وكان الذي ينبغي له أن يعكس الأمر ، فيشمِّر للآخرة التي هي دار البقاء وموطن الإقامة ، وقد أخبره الله تعالىٰ ورسوله ﷺ أنه لا ينالها بدون السعي والطلب والجدّ في ذلك والتشمير له . وأما الدنيا فهي دار زوال وانتقال ، وعن

قريب يرتحل منها إلى الآخرة ويُخلِّفها وراء ظهره ، وليس مأموراً بطلبها والحرص عليها ، بل هو منهي عنه في كتاب الله تعالىٰ ، وفي سنة رسوله ﷺ ، ونصيبهُ المقدر له منها لا يفوته ولو لم يطلبه ، ولكنه لما طال عليه الأمل حمله على الحرص على الدنيا والتسويف في الآخرة ، فلا يخطر له أمرُ الموت ، ووجوب الاستعداد له بالأعمال الصالحة ، إلاَّ وعدَ نفسه بالفراغ لذلك من أشغال الدنيا في أوقات مستقبَلة كأنَّ أجله في يده يموت متى شاء . وهذا كلّه من شؤم طول الأمل ، فاحذروه ـ رحمكم الله ـ واجعلوا التسويف والتأخير في أمور الدنيا ، والمبادرة والتشمير في أمور الآخرة ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « اعمل لدنياك كأنك لا تموت أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك ميت غداً » .

واستشعِرُوا قربَ الموت ، فإنه كما في الحديث : « أقرب غائب ينتظر » وما يدري الإنسان! لعلّه لم يبقَ من أجله إلا الشيء اليسير ، وهو مقبل على دنياه ومعرضٌ عن آخرته ، فإن نزل به الموت وهو على تلك الحالة رجع إلى الله ، وهو غير مستعد للقائه ، وربما يتمنى الإمهال عندما ينزل الموت به فلا يجاب إليه ولا يمكّن منه ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢٣/٩٩ـ١٠٠] . فلا يطيل الأمل ويسوِّف العمل ، ويغفل عن

الاستعداد للموت إلا أحمق مغرورٌ ، وقد قال رسول الله ﷺ : « الكيِّس من دان نفسه ـ يعني حاسبها ـ وعَمِل لما بعد الموت . والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » . فطول الأمل من اتِّباع هوى النفس والانخداع بأمانيها الكاذبة .

وقال بعض السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ : لو رأيتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره . وقال آخر : كم من مستقبلٍ يوماً لم يستكمله ، ومؤمِّلٍ غداً لم يدركه . وقال آخر : ربّ ضاحك مِلءَ فيه ولعل أكفانه قد خرجت من عند القصَّار . وفي الحديث : « ينجو أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرُها بالحرص وطول الأمل » .

وقال علي رضي الله عنه : أخوف ما أخاف عليكم اتباعُ الهوى وطول الأمل . فأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق ، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة ، ومن نسي الآخرة لم يعمل لها ، ومن لم يعمل لها قدم إليها وهو مفلس من الأعمال الصالحة التي لا نجاة ولا فوز في الآخرة بدونها ، فإن طلب عند ذلك أن يُرَد إلى الدنيا ليعمل صالحاً حيل بينه وبين ذلك ، فيعظمُ عند ذلك تحسُّره وندمُهُ حيث لا ينفع الندم .

وفي وصية رسول الله ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وفي ذلك غايةُ الحثِّ على قِصَر الأمل ، وقلّة الرغبة في الدنيا . وكان ابن عمر

يقول : إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح . وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك .

* * *

واعلم أن الناس في الأمل على ثلاثة أصناف :

أصناف الناس من الأمل

الصنف الأول : وهم السابقون من الأنبياء والصديقين ، لا أمل لهم أصلاً ، فهم على الدوام مستشعرون لنزول الموت بهم ، مستعدون له بالإقبال الدائم على الله وعلى طاعته ، متفرغين عن أشغال الدنيا بالكلية ، إلا ما كان منها ضرورياً في حق أنفسهم أو في حق من لا بُدَّ لهم منه من أتباعهم . وقد صاروا من الإقبال على الله وعلى الدار الآخرة بحيث لو قيل لأحدهم : إنك ميتٌ غداً لم يجد موضعاً للزيادة على ما هو عليه من العمل الصالح ، لانتهائه فيه إلى الغاية القصوى التي ليس وراءها غاية وكذلك لا يجد شيئاً يتركه ، لأنه قد ترك كل شيء لا يحب أن ينزل به الموتُ وهو ملابس له . وإلى ما ذكرناه من حال هذا الصِّنف الشريف الإشارةُ بقوله ﷺ : « والذي نفسي بيدهِ ما رفعتُ قدمي فظننت أني أضعُها حتى أقبض ، ولا رفعتُ لقمةً فظننت أني أسيغها حتى أغصّ بها من الموت . . » الحديث . وكان عليه الصلاة والسلام ربما يتيمم والماء منه قريب ؛ فيقال له في ذلك فيقول : لا أدري! لعلي لا أبلغه » .

والصنف الثاني : وهم المقتصدون من الأخيار والأبرار لهم

أمل قصير لا يلهيهم عن الله وعن ذكره ، ولا ينسيهم الدار الآخرة ، ولا يشغلهم عن الاستعداد للموت ، ولا يحملهم على عمارة الدنيا وتزيينها ، والاغترار بزخارفها وشهواتها الفانية المنغِّصة . ولكنهم لم يُعطَوا من القوة مثل ما أعطي الصِّنف الأول من دوام الاستشعار لنزول الموت في كل وقت ، ولو دام عليهم ذلك لتعطلت عليهم أمور معايشهم التي لابدّ لهم منها ، وربما تتعطل عليهم أمور آخرتهم من غلبة الذهول والدهش عليهم ؛ فإن استشعار نزول الموت على الدوام أمرٌ عظيم لا تستقل بحمله إلا قوة النبوة أو الصديقية الكاملة .

ومن هذه الحيثية يقال : إن من الأمل رحمة ؛ أعني هذا الأمل الذي لولا وجوده لتزلزت أمور الدين والدنيا ، وإلى ذلك الإشارة بما بلغنا أن الله تعالىٰ لما أخرج ذرية آدم عليه السلام يوم الميثاق من ظهره ورأت الملائكة كثرتهم قالوا : يا ربنا ، لا تسعهم الدنيا! فقال تعالىٰ : « إني جاعل موتاً » فقالوا : لا يهنؤُهم العيش؟ فقال : « إني جاعل أملاً » .

وعن النبي عليه الصلاة والسلام : « إن الملائكة يقولون لأهل الميت إذا انصرفوا عن قبره . انصرفوا إلى دنياكم ، أنساكم الله موتاكم » والملائكة عليهم السلام لا يدعون للمؤمنين بالشر الذي هو طول الأمل المذموم ؛ بل بالخير الذي هو قِصَر الأمل ـ أعني القدر الذي لا يلهي عن الآخرة ، ويتيسر معه القيام بالمعايش التي لا غنى عنها ـ والله أعلم .

والصنف الثالث : وهم المغرورون والحمقى الذين طال عليهم الأمل جداً حتى أنساهم الآخرة ، وألهاهم عن ذكر الموت ، وأقبلوا بقلوبهم على محبة الدنيا ، والحرص على عمارتها ، وجمع حُطامها ، والاغترار بزخارفها وزينتها ، والنظر إلى زهرتها التي نهى الله نبيه عليه الصلاة والسلام عن مدِّ العين إليها فقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾

[طه : ٢٠/١٣١] .

فترى أحدَهم لا يكاد يذكر الآخرة ، ولا يتفكر فيها ، ولا يخطر له أمر الموت وقُرب الأجل ، وإن خطر له نادراً لم يؤثر في قلبه شيئاً ، وإن خاف من تأثيره فيه صرفه عنه ، وأدخل على نفسه ما ينسيه ذلك ، حتى لا يتشوش عليه إقباله على الدنيا والتمتع بلذاتها وشهواتها .

والأمل على هذا الوجه هو الأمل المردي المذموم على الإطلاق ، وصاحبه من الخاسرين الذين ألهتهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله ، وسوف يقول عندما ينزل به الموت ويعاين الآخرة : ﴿ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ [المنافقون : ٦٣/١٠] . على وفق ما ذكر الله في كتابه حيث يقول تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ

﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ٩ـ ١١] .

وقد بلغنا أن ملك الموت عليه السلام يظهر للإنسان عندما يبقى من أجله شيء يسير فيخبره به فيقول له : يا ملك الموت ، أخرني قليلاً لأتوب إلى ربي وأستغفره . فيقول له الملك : قد طالما أُخِّرْت وعُمِّرت فلم تتب ولم ترجع إلى ربك حتى الآن . وقد انقضت المدة وبلغت الأجل الذي كتبه الله لك ، فلا سبيل إلى التأخير .

قال بعض العلماء ـ رحمة الله عليهم ـ : فلو كانت الدنيا بأسرها لهذا الإنسان وأمكنه أن يشتري بها ساعة واحدة يزيدها في عمره ، ويعتذر فيها إلى ربه ، لَفَعَل .

ثم إن الغفلة عن الآخرة والإعراض عنها بالكلية إقبالاً على الدنيا واشتغالاً بها قد يكون سببه طول الأمل كما ذكرناه ، وقد يكون سببه شكاً في الآخرة وتردداً في كونها حقاً ـ والعياذ بالله من ذلك ـ فإنه من الكفر بالله ورسوله . والعلامة المميزة للغافل عن الآخرة بين أن يكون سبب غفلته طول الأمل أو الشك ، هي أن الغافل الذي يكون سبب غفلته طول الأمل إذا مرض أو حصل له شيء يتوقع عنده قرب الموت يكثر ذكر الآخرة ، ويتحسر على ترك العمل لها ، ويتمنى أن يعافى ليعمل صالحاً . والذي تكون غفلته عن الشك لا يظهر عليه عند

المرض ونحوه شيء مما ذكرناه ؛ بل يظهر عليه التأسف على فراق دنياه ، والتخوف على أولاده وأمواله أن تضيع من بعده ؛ وأشباه ذلك مما يدل على قصور النظر والرغبة في أحوال الدنيا . فاعتبر هذا ـ رحمك الله ـ في نفسك ، وفي غيرك حتى تعظه وتنصحه إن شممت منه روائح الشك في الدار الآخرة . فليس الشك في الآخرة في الذم والخطر بمنزلة طول الأمل ، وإن كان طول الأمل المنسي للآخرة مذموماً جداً .

* * *

ذكر الموت

واعلم أن الإكثار من ذكر الموت مستحب ومرغَّب فيه ، وله منافع وفوائد جليلة منها : قِصَر الأمل ، والتزهيد في الدنيا ، والقناعة منها باليسير ، والرغبة في الآخرة والتزود لها بالأعمال الصالحة ؛ وقد قال رسول الله ﷺ : « أكثروا من ذكر هاذم اللذات » يعني الموت .

وكان عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل فينادي : « جاء الموت بما فيه ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة . [1] » الحديث . ولما سئل صلوات الله عليه عن الأكياس من الناس من هم؟ قال : « أكثرهم للموت ذكراً ، وأحسنهم له استعداداً ، أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا ونعيم الآخرة » .

---

(١) الراجفة : نفخة الصعق . الرادفة : نفخة البعث .

قلت : وليس ذكر الموت النافع هو أن يقول الإنسان بلسانه : الموت الموت فقط ؛ فإن ذلك قليل المنفعة وإن أكثر منه ، بل لا بد مع ذلك من تفكر القلب واستحضاره عند ذكر الموت باللسان . كيف يكون حاله عند الموت وأهواله وسكراته ، ومعاينته أمور الآخرة . وما الذي بقي من أجله وبم يختم له ، وكيف كان حال من مضى من أقرانه وأصحابه عند الموت ، وإلى أي مصير صاروا!! وأشباه ذلك من الأفكار والأذكار النافعة للقلب والمؤثرة فيه .

قال بعض السلف : أنظر كل شيء تحب أن يأتيك الموت وأنت عليه فالزمه ، وكل شيء تكره أن يأتيك الموت وأنت عليه فاجتنبه . فتأمل ـ رحمك الله ـ هذه المقالة ، فإنها عظيمة النفع لمن عمل بها . والله الموفق والمعين ، لا رب غيره .

وأما كراهية الموت فأمر طبيعي لا يكاد الإنسان ينفك عنه ، وذلك لأن الموت مؤلم في نفسه ، ومفرق بين الإنسان وبين محبوباته ومألوفاته من دنياه . ولما قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » قالت له عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله ، كلنا نكره الموت؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « إن المؤمن إذا حضره الموت بُشر برحمة الله ، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا حضره الموت بُشِّر بعذاب الله ؛ فكره لقاء الله

وكره الله لقاءه » وفي وصف المؤمن المحبوب المذكور في قوله عليه الصلاة والسلام عن الله : « ما تقرب المتقربون . . . » فساق الحديث عن الله تعالىٰ إلى أن قال تعالىٰ : « وما ترددت في شيء أنا فاعله كترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

فانظر كيف وصفه بكراهية الموت مع كمال إيمانه ، وعلو منزلته عنده تعالىٰ ، تعلم صحة ما ذكرناه .

وفي أخبار موسىٰ عليه السلام : أنه لطم ملك الموت حين جاءه ليقبضه فأخرج عينه .

نعم ، قد تنغمر كراهية الموت حتى لا تُحَس في حال قوة إشراق أنوار المعرفة واليقين ، ويكون ذلك لأهله في وقت دون وقت . وأما الأمر العام في أهل الإيمان : فهو أنهم يحبون الموت لما فيه من لقاء الله ، والمصير إلى الدار الباقية ، والخروج من الدنيا محلِّ الفتن والمحن . ويكرهون الموت بالنفس بالطبع ، لما فيه من الألم وفراق المحبوبات ، وكلما كان الإيمان أقوى كانت الكراهية أقل ومقتضى الطبع أضعف ، وبالعكس . فتفطن لذلك ، والله يتولىٰ هداك .

* * *

طول العمر

وأما طول العمر في طاعة الله فهو محبوب ومطلوب ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « خيركم من طال عمره وحسن

عمله » . وكلما كان العمر أطول في طاعة الله كانت الحسنات أكثر والدرجات أرفع . وأما طوله في غير طاعة الله فبلاءٌ وشر : تكثر السيئات وتتضاعف الخطيئات .

ومن زعم من الناس أنه يحب طول البقاء في الدنيا ليستكثر من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالىٰ ، فإن كان مع ذلك حريصاً عليها ، ومشمراً فيها ، ومجانباً لما يشغل عنها من أمور الدنيا ، فهو بالصادقين أشبه . وإن كان متكاسلاً عنها ومسوفاً فيها ـ أعني الأعمال الصالحة ـ فهو من الكاذبين المتعللين بما لا يغني عنه ، لأن من أحب أن يبقى لأجل شيء وجد في غاية الحرص على ذلك الشيء مخافة أن يفوته ويحال بينه وبينه . سيما والعمل الصالح لا يمكن إلا في الدنيا ، ولا يتصور وجوده في غيرها البتة ، لأن الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل ، فتفكر في ذلك جداً عسى الله أن ينفعك به ، واستعن بالله واصبر ، واجتهد وشمر ، وبادر بالأعمال الصالحة من قبل ألا تجد إليها سبيلاً ، واغتنم فسحة المَهَل من قبل أن يفجأك الأجل ، فإنك غرض للآفات ، وهدف منصوب لسهام المنيات ، وإنما رأس مالك الذي يمكنك أن تشتري به من الله سعادة الأبد . هذا العمر . فإياك أن تنفق أوقاته وأيامه وساعاته وأنفاسه فيما لا خير فيه ولا منفعة ، فيطول تحسرك ، ويعظم أسفك بعد الموت إذا عرفت قدر الفائت وتحققته .

وقد ورد أنه تُعرض على الإنسان في الدار الآخرة ساعات

أيامه ولياليه في هيئة الخزائن كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة بعدد ساعاتهما ، فيرى الساعة التي عمل فيها بطاعة الله خزانة مملوءة نوراً ، والتي عمل فيها بمعصية الله مملوءة ظلمة ، والتي لم يعمل فيها بطاعة ولا معصية يجدها فارغة لا شيء فيها . فيعظم تحسره إذا نظر إلى الفارغة أن لا يكون عمل فيها بطاعة الله فيجدها مملوءة نوراً .

وأما التي يجدها مملوءة ظلمة فلو قضي عليه أن يموت عند النظر إليها من الأسف والحسرة لمات ، غير أنه لا موت في الآخرة .

فالعامل بطاعة الله يكون فيها فرحاً مغتبطاً على الدوام ، يزيد فرحه واغتباطه على ممر الأيام . والعامل بمصعية الله تَرِحٌ مغموم ، لا يزال يزداد ترحه وغمه إلى غير نهاية . فاختر لنفسك ـ رحمك الله ـ ما دمت في دار الاختيار ما ينفعها ويرفعها ، فإنك لو قد مُتَّ خرج الأمر عن اختيارك .

* * *

وبادر ولا تسوف ، فإن التسويف شر ، والإنسان معرَّض لآفات وشواغل كثيرة ، قال ﷺ : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك » . وقال عليه الصلاة والسلام : « بادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغَلوا ، وصِلُوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » .

قلت : فالمغبون فيهما من أوتيهما فعاش صحيحاً فارغاً ، ينفق صحته وفراغه في الغفلات والبطالات ، أو في معاناة الأشغال الدنيويات الملهيات عن ذكر الله وعن الأعمال الصالحات ، وإنما يستبين له أنه مغبون بعد الموت حين يعاين ما فاته من الدرجات العُلىٰ التي لو أنفق في طلبها صحته وفراغه لنالها .

قال علي كرم الله وجهه : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾

[التغابن : ٦٤/٩] .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام : « ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها » وذلك إذا رأوا قدر الفائت بسبب الغفلة في تلك الساعة من القرب والنعيم .

وأما من أنفق صحته وفراغه في معاصي الله ومساخطه فهو خاسر ممقوت وليس بمغبون ، إنما المغبون من ينفقها في البطالات والمباحات . وقد يكون معنى الغبن في الصحة والفراغ : أن لا يعطاهما الإنسان فيبتلى بالأمراض أو الضعف وكثرة الأشغال ، فلا يتمكن بسبب ذلك من الأعمال الصالحات التي يتمكن منها الأصحاء الفارغون ، فافهم ههنا قوله تعالىٰ :

﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤/ ٩٥] .
وقوله عليه الصلاة والسلام : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالىٰ من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، فاحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، فإن غلبك أمر فقل قدَّر الله وما شاء فعل . وإياك و « لو » فإن « لو » تفتح عمل الشيطان » .

قلت : لأن « لو » لا يقولها في الأكثر إلا عاجز كسلان ، يفوِّت الأمور الحسنة عند التمكن منها من عجزه وكسله ، أو معتمدٌ على حوله وقوته ، وسعيه وحيلته ، يحسب أنه ينجو باحترازه وحرصه عما قضى الله عليه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا يُغني حَذَر من قَدَر » . فتأمل ذلك وأمعن النظر فيه ، فإنه معنى جليل ، تحته علم كثير . وإلى الله عاقبة الأمور .

* * *

أماني المغفرة

وأما أماني المغفرة ودخول الجنة من غير سعي لذلك بفعل المأمورات ، والمسارعة في الخيرات ، مع ترك المحظورات ، ومجانبة السيئات ، فهو حُمقٌ وغرور ، وموالاةٌ للشيطان ـ لعنه الله ـ بقبول تزويره وتلبيسه ، وترويجه للشر في معرض الخير ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء : ٤/ ١١٩-١٢٠] . فمن ظن أنه يُذنب ثم لا يتوب إلى الله توبةً صحيحةً ، وأنه تعالىٰ يغفر له ، وكذلك يتكاسل عن الطاعات ويتشاغل عنها بأمور الدنيا ، ويتوهم مع ذلك أن الله تعالىٰ يكرمه ويرفعه في درجات الجنة مع المحسنين فهو المتمني المغرور ، العاجز الأحمق ، وذلك لأن الله تعالىٰ يقول وقوله الحق : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾

[النجم : ٥٣/ ٣١] .

ثم وصف الله الذين أحسنوا بقوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم : ٥٣/ ٣٢] . واللمم : هو الصغائر من الذنوب التي لا يكاد العبد يخلو منها . وقال تعالىٰ : ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص : ٣٨/ ٢٨] . أي لا نجعلهم سواء عندنا لا في الدنيا ولا في الآخرة ، كما قال تعالىٰ : ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية : ٤٥/ ٢١] . فأبطل حسبانهم وتوهُّمَهم ، وذم حكمهم بذلك ، أعني ظنهم التسوية بينهم وبين أهل الإحسان عند ربهم .

* * *

وقد وصف الله ملائكته وأنبياءه عليهم السلام ، وعباده المؤمنين في كتابه بالأعمال الصالحة ، وبالملازمة لها ، والمسارعة فيها مع الخوف والخشية والإشفاق والوجل ، فقال تعالىٰ في الملائكة : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾

[الأنبياء : ٢١/ ٢٦ـ٢٨] .

وقال تعالىٰ في الأنبياء : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء : ١٧/ ٥٧] . وقال أيضاً فيهم : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٢١/ ٩٠] .

وقال تعالىٰ في المؤمنين : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢١/ ٤٨ـ٤٩] . وقال أيضاً فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾

[المؤمنون : ٢٣/ ٥٧ـ٦١]

ولما سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن قوله

تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون : ٢٣/ ٦٠] . أهو أن الرجل يزني ويسرق ثم يخاف . قال : « لا ، بل هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه . . » الحديث .

ولما وصف الله بعض أعدائه وصفهم بالغرور والتمني فقال عن واحد منهم : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف : ١٨/ ٣٦] . يعني من جنته التي أعجب بها ونسي نعمة الله عليه فيها ، وتكبَّر بها وافتخر على من هو خير منه من عباد الله ! فانظر ذلك في جملة قصته التي حكاها الله عنه ، وعن العبد الصالح في قوله : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ [الكهف : ١٨/ ٣٢] .

وقال تعالىٰ عن آخر من الأعداء المغرورين : ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [مريم : ١٩/ ٧٧] . يعني في الآخرة ، فكذبه الله وتوعَّده بالعذاب وإنزاله به .

وقال تعالىٰ عن آخر منهم : ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت : ٤١/ ٥٠] .

فانظر الآن ـ رحمك الله ـ بأي شيء وصف الله أحبابه وأولياءه ، وبُغَضاءه وأعداءه ، فبأي الفريقين اقتديتَ وتشبَّهت كنتَ معه ، فإن من تشبه بقوم فهو منهم ، كما ورد .

وقد تبين لك عن ملائكة الله وأنبيائه وعباده الصالحين :

أنهم كانوا يسارعون في الخيرات وأنهم ملازمين لصالح العمل ، ومجانبين للسيئات والزلل ، مع الخوف من الله والوجل ، وأن الأعداء كانوا على الضدِّ من ذلك : على العصيان وترك الإحسان ، مع الغرور ، والأمن من مكر الله ، والتمني على الله ، فاختر لنفسك صحبة خير الفريقين ، وتشبه بهم في الأعمال والأوصاف ، تكن معهم إن شاء الله .

* * *

واعلم أن أماني المغفرة مع الكسل والبطالة من أضر شيء على الإنسان ، وقد فشت على ألسنة المخلِّطين من أهل هذا الزمان ، ولذلك طوَّلنا الكلام فيها رجاء أن ينفع الله به من وقف عليه منهم ، فينتبه من غفلته ، ويستيقظ من رقدته عندما يعلم أن أهل النبوة وأهل الصلاح كانوا في نهاية الخوف من الله ، حتى كان نبينا محمد ﷺ يقول : « لو آخذني الله أنا وابن مريم بما جنت هاتان ـ يعني السبابة والإبهام ـ لعذَّبَنا ثم لم يظلمنا شيئاً » .

ولاشك أن الأنبياء والأولياء أعرف بالله وبكرمه العظيم ورحمته الواسعة من غيرهم ؛ فلم يبق إلا أن يكون أهل التخليط والتفريط أولى بالخوف من كل وجه ، وعلى كل حال .

* * *

واعلم أن المتمني المغرور مقطوع الحجة بأيسر مئونة ، فإذا قال : إن الله تعالىٰ لا تضره الذنوب ، ولا تنفعه الطاعة ، وهو غني عني وعن عملي ، فقل له : صدقت ، ولكن الذنوب تضرك والطاعات تنفعك ، وأنت فقير إلى العمل الصالح . ثم قل له : اقعد عن الكسب والحركة والسعي للمعاش ، فإن الله تعالىٰ قد ضمن لك الرزق ، وخزائن السموات والأرض في قبضته ؛ فسوف يقول لك : صدقت ، ولكن لابد من السعي والحركة ، وقلما رأينا شيئاً يحصل بدون ذلك . فقل له : إن الدنيا التي أمرك الله بتركها ، ونهاك عن الرغبة فيها ، وضمن لك قدر الكفاية منها لا تحصل إلا بالسعي والطلب . والآخرة التي رغبك الله فيها ، وأمرك بطلبها ، وأخبرك في كتابه وعلى لسان نبيه بأنك لا تنجو فيها من عذابه ، وتفوز بثوابه حتى تسعى لها وتجتهد في طلبها نراك مضيعاً لها ، وغير مكترث بها ؛ فما أنت إلا شاك مرتاب ، أو أحمق مغرور ، قد عكست الأمر ، ووضعت الأشياء في غير مواضعها . فبأي حجة ، وبأي وجه تلقى الله ، وتلقى رسوله ﷺ الذي أرسله إليك يدعوك من الدنيا إلى الآخرة!؟ فعند ذلك تنقطع حجته ، ولا يدري ما يقول .

* * *

واعلم ـ رحمك الله ـ يقيناً أنه كلما كان الإيمان أقوى

والعمل أصلح ، كان الخوف أكثر . وكلما كان الإيمان أضعف والعمل أسوأ ، كان الخوف أقل ، والأمن والاغترار أغلب ؛ فاعتبر ذلك في نفسك وفي غيرك تجده بيِّناً .

وعلى الجملة ، فإن المؤمن الصادق هو الذي يعمل بالصالحات ، ويخلص فيها ، ويرجو القبول والثواب عليها من فضل الله ، ويجانب السيئات ، ويبعد عنها ، ويخاف أن يبتلى بها ، ويخشى العقاب على ما عمله منها ، ويرجو المغفرة من الله بعد التوبة والإنابة إلى الله ، فمن كان من المؤمنين على غير هذه الأوصاف فهو من المخلِّطين ، وأمره في غاية الخطر . فافهم هذه الجملة ، وطالب نفسك بها تنج وتفز إن شاء الله تعالىٰ .

واعلم أن عنوان السعادة أن يوفق الله العبد للعمل الصالح في حياته ، وييسره له . وعنوان الشقاوة أن لا ييسَّر للعمل الصالح ، ويبتلى بالعمل السوء ؛ قال رسول الله ﷺ : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، مَن خُلِق للجنة يُسِّر لعمل أهل الجنة ، ومَن خُلِق للنار يُسِّر لعمل أهل النار » ولما قبض الله القبضتين قال لقبضة السعداء : هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون . وقال لقبضة الأشقياء : وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون .

ثم اعلم أن المؤمن البصير بالدين ، الراسخ في العلم

واليقين : هو الذي يحسن العمل لله ، ويجتهد في ذلك بكليته ، ثم يعتمد على الله وعلى فضله ، ولا يعتمد على عمله وإحسانه . وعلى هذا الوصف مضى الأنبياء والعلماء وصالحو السلف والخلف عليهم السلام والرحمة والرضوان .

وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله : « لن يدخل أحد الجنة بعمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته » .

ثم كان ﷺ يجتهد في الأعمال الصالحة إلى الغاية والنهاية ، حتى تورَّمت قدماه من طول القيام بالليل .

وأما الذي يجتهد في الأعمال الصالحة ويعتمد عليها فهو معجب بنفسه ، جريء على ربه ، وربما يُبتلىٰ ليستبين له عجزه وعدم صلاحيته لشيء من الصالحات لولا فضل الله ورحمته ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٢٤/ ٢١] . وكما بلغنا : أن عابداً عَبَدَ اللهَ خمسمائة سنة ، فإذا كان يوم القيامة يقول الله له : يا عبدي ادخل الجنة برحمتي . فيقول : يا رب ، بل بعملي! فيأمر الله به فيحاسب على نعمة البصر فتستغرق جميع عبادته وتبقى عنده نعم الله كثيرة ، فيأمر به إلى النار فيقول : يا رب! أدخلني الجنة برحمتك ، فيأمر به إليها ويثني عليه ويمدحه جل وعلا . فقد ظهر أنه لابد من أمرين :

أحدهما : إصلاح العمل . والثاني : الاعتماد على الله دونه .

وما أحسن ما قاله الشيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه ، حيث يقول في ذلك : بك لا نَصِلُ ، ولابد منك . يعني أننا لا نصل بالعمل دون فضل الله ، ولابد من العمل امتثالاً لأمر الله .

وقال الشيخ أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالىٰ : من ظن أنه بالعمل يصل فهو مُتَعَنٍّ[1] . ومن ظن أنه بدون العمل يصل فهو مُتَمَنٍّ ـ يعني أن يصل إلى الله ، والمتمني : هو الذي لا يعمل ويزعم أنه متكل على فضل الله ، وذلك غرور وحماقة ؛ فإنه لا يصح منه الاتكال على الله وعلى فضله إلا مع العمل الصالح كما تقدم .

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : إن أماني المغفرة قد لعبت بأقوام حتى خرجوا من الدنيا مفاليس . أي : من الأعمال الصالحة .

وقال أيضاً : إن المؤمن جمع إحساناً وخوفاً ، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً .

قلت : وذلك عجيب جداً ، لأن الخوف بصاحب الإساءة

---

(١) مُتَعَنٍّ : متكلف ما يشق عليه .

أليق ، لتعرضه بإساءته لسطوات الله ، وإنما أمن مع الإساءة لانتكاس قلبه وعمىٰ عين بصيرته ، ولكن ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف : ١٨/ ١٧] .

اللهم اهدنا وكن لنا يا ربنا ولياً مرشداً إلى ما تحبه منا ، وترضىٰ به عنا ؛ فقد فوضنا إليك أمرنا ، وتوفنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين .

* * *

الإيمان بالقضاء والقدر

وأما الاحتجاج بالقدر الذي يجريه الشيطان اللعين على ألسنة كثير من عامة المسلمين ففيه خطر كبير . وهو أن أحدهم إذا قيل له ، وقد ترك بعض الواجبات أو فعل بعض المحرمات : لِمَ فعلتَ ذلك وخالفت أمر الله وأمر رسوله؟ فيقول : ذلك مقدَّر علي ، ومكتوب ومقضي ؛ يعذر بذلك نفسه ، ويرفع الحرج عنها ، ويحتج على الله تعالىٰ الذي له الحجة البالغة على جميع خلقه في كل حال ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء : ٢١/ ٢٣] .

وأقول : إن قول العاصي هذا أعظم من معصيته ، وأكثر ضرراً عليه في دنياه وآخرته ؛ لأن معنى هذه المقالة يدل من صاحبها إنه قالها عن اعتقاد باطن على تزلزل قواعد دينه من أصلها ، فمتى يتوب هذا العاصي ، ومتى يندم على فعله القبيح ، ومتى يستغفر منه! وهو لا يرى له فعلاً ، ويرى أنه

مجبور مقهور ، ليس له اختيار ولا قدرة . وهذا هو بعينه مذهب الجبرية : وهم فرقة من المبتدعين في الدين ، يقولون بعدم الاختيار . على ضد ما تقوله المعتزلة : وهم فرقة أخرى من أهل البدعة . ومعتقد أهل الحق والسنة والجماعة : وسط بين هاتين الفرقتين . وهو كما قال بعض العلماء : خارج من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين .

ومعتقد أهل السنة جعلنا الله منهم بفضله : أنه لا يكون كائن صغير ولا كبير إلا بقضاء الله تعالى ومشيئته ، وإرادته وقدرته . وأن العباد وأفعالهم خيرها وشرها خَلْقُ الله تعالىٰ ، ثم بعد ذلك يطالبون أنفسهم بامتثال أوامر الله كل المطالبة ، ولا يرخِّصون لها في ترك شيء منها ويحملونها على ترك المنهيات وعلى اجتنابها رأساً . وإن وقعوا في شيء منها بادروا إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار . وإن فرطوا في شيء من الأوامر بادروا بقضائه وتابوا إلى الله تعالى من تركه . ولا يحتجُّون لأنفسهم على الله أبداً ، ولا يعذرونها بسبق القدر ، ولا يرخصون في ذلك لأحد ؛ فإن الله تعالىٰ وصف بعض أعدائه في كتابه بالاحتجاج بالمشيئة ثم أنكر عليهم ذلك ووبخهم عليه ؛ ولم يقبله منهم ورده عليهم وكذبهم فقال تعالىٰ : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۢ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍۢ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ

﴿إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام : ٦/ ١٤٨-١٤٩] .

وفي الآية الأخرى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾

[النحل : ١٦/ ٣٥] .

فإياك والاقتداء بالمشركين في الاحتجاج على الله رب العالمين .

وحسبك من القدر الإيمان به خيره وشره ، ثم كلِّف نفسك الامتثال لأمر الله والاجتناب لنهيه ، وتب على الدوام من تقصيرك عن القيام بحقه تعالىٰ ، واستعن بالله تعالىٰ ، وتوكل عليه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إذا ذُكر القدر فأَمسكوا » فنهى عن الخوض فيه ؛ لما في ذلك من الخطر وكثرة الضرر .

وسأل رجل علياً رضي الله عنه ، عن القدر ؟ فقال له في جوابه : هو بحر عميق فلا تَلِجْهُ ، وطريق مظلم فلا تسلكه . سرُّ الله تعالى قد خفي عليك فلا تُفشِه .

وسأل رجل من ولاة الأمور محمد بن واسع ـ رحمه الله ـ عن القدر ؟ فقال له : جيرانك من أهل القبور ، لك في التفكر فيهم شغل شاغل عن القدر .

وقد مضى عمل السلف والخلف من أهل الحق على الإيمان

بالقدر خيره وشره . وانعقد إجماعهم ـ رحمة الله عليهم ـ على ذلك ، وعلى الإمساك عن الاحتجاج بالقضاء والقدر عند ترك الأمر وإتيان النهي . وكانوا يرون ذلك من أعظم المنكرات ـ أعني الاحتجاج بأمر القدر عند ارتكاب المحارم وترك الواجبات ـ فإن كنت من أهل الحق فاقتد بهم ، واسلك سبيلهم ؛ وإلا فقد سمعت ما قاله الله تعالىٰ للمتبعين غير سبيل المؤمنين ، واسمعه الآن ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء : ٤/ ١١٥] .

ثم اعلم ـ رحمك الله ـ أنه لا يجوز ولا يصح للمؤمن أن يعتقد في نفسه أنه لا حرج ولا جناح عليه إذا ترك واجباً أو فَعَل محرماً ، لأن القدر غالب له وسابق عليه . ثم إذا صدر منه فعل أو ترك لا يرضىٰ الله به ؛ فإن احتج بالقدر على إقامة العذر لنفسه وهو باقٍ على الاختيار والتمييز فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً .

وقد خشيت أن تكون هذه البلية قد دبَّت إلى أناس من المنسوبين إلى العلم والصلاح ، فضلاً عن غيرهم من عامة المسلمين ، ويكاد يدل على وجود هذا الأمر منهم أنه لا يظهر عليهم كثير توجع وتألم وتأسف عندما يصدر من بعضهم ما يلام عليه ويُذم به شرعاً . فليتق الله مؤمن أحسَّ من نفسه بذلك ، وليتكلف نفيهُ عنها ، وليعلم أن الله لا يعذره بالقدر ، ولا يقبل

منه الاحتجاج به ما دام مختاراً أبداً ، فإذا سمعت من أحد المسلمين هذه الحجة الساقطة فازجره عنها ، وعرِّفه بأن إثمه في الاحتجاج بالقضاء والقدر على ترك الأوامر وفعل المحرمات ، أعظم من إثمه على نفس الترك للواجب والفعل للمحرم . فليتق الله ولا يجمع على نفسه بليتين ، ويقودها إلى سخط ربه من جهتين .

* * *

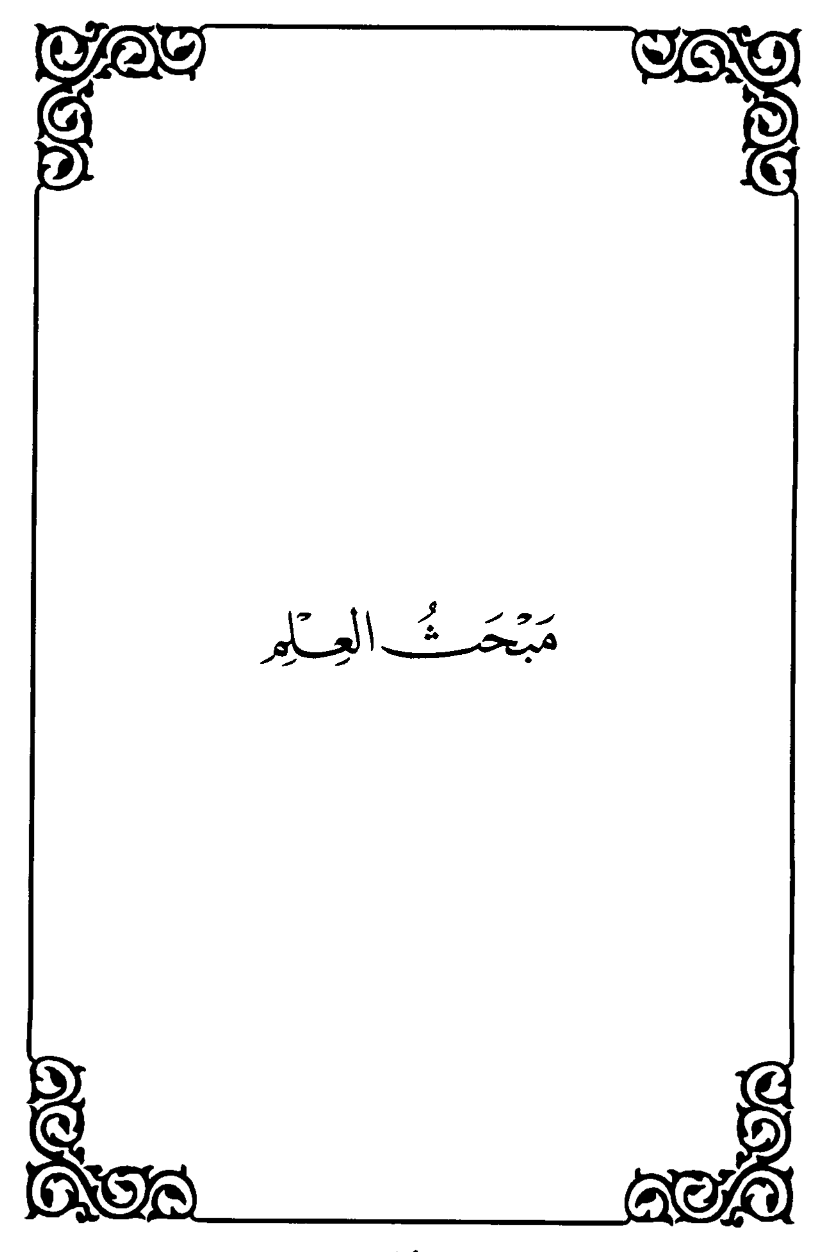
وأما ذكر القضاء والقدر والتذكير به عند الشدائد والبلايا والمصائب فلا بأس به ، وهو احتجاج على النفس وليس احتجاجاً لها ؛ لأن العبد المبتلى والمصاب إذا علم أن المبتلي له هو ربه الرحيم به ، وأنه بذلك البلاء سبق عليه الكتاب من الله تعالى تحقق وأيقن أن في ضمن ذلك له صلاحاً وخيراً كثيراً ؛ فيحمله العلم بذلك على الرضا والتسليم لله الحكيم العليم . فقد وضح وتبين لك أن الاحتجاج بالقدر عند الأمر والنهي محظور ومذموم ، فاحذره ، وعند البلاء والمصائب نافع ، ولكن لمن يعقل عن الله تعالىٰ ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : ٥٧/ ٢٢-٢٣] .

وإنْ تذكر العبد عند المصائب والبلايا ما وعد الله عليها من

الدرجات والحسنات ، والكفارات للسيئات ، فذلك حسن ، وهو أنفع لعامة المسلمين وأقرب إلى أفهامهم ؛ لأن النظر إلى العلم الأزلي والقضاء والقدر السابق يفتقر إلى فطنة وبصيرة يخلو عنها كثير من الناس ، بخلاف الوعد الأخروي فإن كل أحد يفهمه ، وكذلك الوعيد .

ومن أجل ذلك كان التذكير بالوعد والوعيد عام المنفعة عند البلايا وعند الطاعات ، وعند المعاصي وغير ذلك . ولهذا ترى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ مشحونين بذكر الوعد والوعيد ، والوعظ والتذكير بهما ؛ فافهم هذه الجملة وتأملها ترشد . وتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

* * *



مَبْحَثُ العِلْمِ

العلم الواجب

واعلموا معاشر الإخوان منَّ الله علينا وعليكم بالعافية واليقين ، وسلك بنا وبكم مسالك المتقين أنه لابد لكل مسلم ومسلمة من معرفة العلم ، ولا رخصة لأحد من المسلمين في تركه أبداً ، أعني العلم الذي لا يصح الإيمان والإسلام بدون معرفته . وجملتُه : العلم بالله ورسوله واليوم الآخر ، والعلم بما أوجب الله فعله من الفرائض ، وبما أوجب تركه من المحارم ، وقد قال رسول الله ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « اطلبوا العلم ولو بالصين » . والصين : إقليم بعيد من أبعد المواضع ، وقليل من الناس الذي يصل إليه لبعده . فإذا وجب على المسلم أن يطلب العلم وإن كان في هذا المحل البعيد ، فكيف لا يجب عليه إذا كان بين العلماء ولا يلحقه في طلبه كثير مَئُونة ، ولا كبير مشقة؟ فأما علوم الإسلام فترجع جملتها إلى قول رسول الله ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام في الحديث المشهور فقال له : أخبرني عن الإسلام ؟ قال : « الإسلام أن تشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ،

وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً » ثم قال له : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : « الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره . . » الحديث بطوله .

وأما ما يجب علمه على كل مسلم من علوم الإيمان فيوجد في عقائد الأئمة المختصرة التي وضعوها لعامة المسلمين ، مثل عقيدة الإمام الغزالي رحمه الله ، وهي جامعة نافعة وفيها زيادات كثيرة على القدر الواجب عِلْمُه على كل مؤمن ، ولكنها مؤكِّدات ومقوِّيات ومكملات للإيمان . وسنورد في آخر هذا التصنيف إن شاء الله (عقيدة وجيزة تشتمل على ما لابد من علمه من علوم الإيمان) .

وأما علوم الإسلام فتوجد في تصانيف الأئمة من الفقهاء رضي الله عنهم ، والواجب من ذلك هو القدر الذي لا يسع مسلماً أن يجهله ، كالعلم بوجوب الصلوات الخمس ، وكيفية فعلها وشرائطها ومواقيتها والطهارة لها ، وما في معنى ذلك . وكالعلم بوجوب الزكاة والقَدْر الواجب منها ، والوقت الذي تجب فيه . والعلم بوجوب صوم شهر رمضان وشرائط الصوم ومبطلاته ، والعلم بوجوب الحج على المستطيع وشروط الاستطاعة .

* * *

وبالجملة : فيجب على المسلم أن يعلم بوجوب جميع الـواجبـات العينيّـة ، وبتحـريـم جميـع المحـرمـات التـي هـو مستهدَف للوقوع فيها : كالزنا واللواط وشرب المسكر ، وظلم الناس ، والسرقة والخيانة ، والكذب والنميمة ، والغيبة وأشباه ذلك .

وأما العلم بأحكام الزكاة على من لا مال له تجب عليه الزكاة فيه فلا يجب . وكذلك العلم بأركان الحج وشرائطه في نفسه لا يجب على غير المستطيع ، ولا على المستطيع حتى يعزم على السفر أو على الشروع في الحج . وأما العلم بوجوب الزكاة والحج على كل مسلم فيجب علم ذلك على الجملة .

وأما العلم بشروط البيع والشراء والمعاملات والنكاح فيجب على من أراد الدخول في شيء منها أن يعلم حكم الله تعالى فيها ، وما تصح به ، وما تفسد به ، في ابتدائها وفي الدوام عليها .

لابدَّ له من ذلك ، وإلا وقع فيما يُسخِطُ اللهَ عليه شاء أم أبى . فإن الجاهل متعرض بجهله لسخط الله وللوقوع في الهلاك على كل حال ، وكيف لا يكون كذلك ، وربما يعتقد في بعض الواجبات أنها من المحرمات ، أو أنها ليست بواجبة ، وفي بعض المحرمات أنها من الواجبات أو من الطاعات ، أو أنها ليست بمحرمة ، وفي ذلك غاية الخطر

ونهاية الضرر على أهل الجهل ؛ وربما وقعوا بسبب جهلهم في أمور تشبه الكفر ، أو هي الكفر بعينه كما يعرف ذلك من تأمل أحوالهم ، واعتبر أفعالهم وأقوالهم ، وليس يعذرهم الله في شيء من ذلك ، فإنه سبحانه قد فرض عليهم طلب العلم ، ويسّر لهم الأسباب ، وأوجب على العلماء تعليمهم ، فتقصيرهم بعد ذلك كله اشتغالاً بالدنيا ، واتباعاً للهوى يزيدهم عن الله بعداً ، ويوجب لهم عنده مقتاً وطرداً .

وهذا كله في العلم الواجب الذي لا يسع أحداً من المسلمين أن يجهله .

والعجب أنك ترى الجاهل المغرور لا يفتُر عن طلب الدنيا ليلاً ونهاراً ، ولا يزال متكالباً عليها ، شديد العناية بجمعها ومنعها ، والتمتع بها ، ويقيم لنفسه الأعذار الكثيرة على ذلك ، ثم تجده جاهلاً بأمر دينه ، لم يطلب علماً ، ولم يجالس عالماً ليتعلم منه قط .

فإن قيل له في ذلك ، احتج لنفسه بما يسقط به من عين الله من عدم الفراغ ، وكثرة الأشغال ، مع أن الله وله الحمد قد يسّر له طلب العلم بوجوده العلماء ، وبقلة المئونة في تعلم القدر الواجب من العلم ، وأمرُ الدنيا على الضد من ذلك ، فلا يكاد ينال منها شيئاً يسيراً إلا بعُسْر ومشقة وتعب كثير ، فليس ذلك إلا من موت القلب ، وهوان أمر الدين على الإنسان ، وقلة

الاحتفال بأمر الآخرة فإنه يرى حاجته إلى متاع الدنيا ظاهرةً حاضرةً ، ويرى حاجته إلى العلم بعيدةً غائبةً ؛ لأنه لا يحتاج إليه ولا يعرف منفعته إلا بعد الموت ، وهو قد نسي الموت ، ونسي ما بعده لغلبة الجهل عليه ، وفقد العلم عنده .

وصاحبُ هذا الوصف من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ٣٠/٦ـ٧] .

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : يأخذ أحدهم الدرهم على ظُفره فيخبرك بزنته ، يعني من شدة معرفته بأمور الدنيا . قال : ولو سألته عن شروط الطهارة والصلاة لم يعرف شيئاً منها . انتهى بمعناه .

وعلى الجملة : فالجهل رأس الشرور والبلايا كلّها في الدنيا والآخرة . ولو اجتمع على الجاهل أعداؤه ليضرُّوه لم يقدروا أن يضرُّوه بمثل ما قد ضرّ به نفسه ؛ كما قال القائل :

مَا يَبْلُغُ ٱلْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ ... مَا يَبْلُغُ ٱلْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

وكما قال الآخر :

وفي ٱلْجَهْلِ قَبْلَ ٱلْموتِ مَوْتٌ لأَهْلِهِ ... فَأَجْسَادُهُمْ قَبْلَ ٱلْقُبُورِ قُبُورُ

ثم إن الجهل المذموم على الإطلاق : هو أن يجهل الإنسان من العلم ما فرض الله عليه علمه .

فاحذر أيها الأخ من ذلك ، واخرج من ظلمات جهلك إلى

أنوار العلم . وليس بواجب عليك أن تتّسع في العلم ، بل واجب عليك تَعَلُّم القدر الذي لابدَّ لك منه ، ولا غنى لك عنه .

* * *

وكما يجب عليك أن تتعلَّم في نفسك : يجب عليك أيضاً أن تعلّم أهلك وأولادك وكلَّ من لك ولاية عليه ؛ فإن لم تقدر أن تعلمهم كان عليك أن تأمرهم بالخروج إلى أهل العلم حتى يتعلّموا منهم القَدْر المفروض منه ، وإلا أثمتَ وأثموا ـ أعني يأثم منهم من كان مكلفاً .

والقدرُ الواجب من العلم على كل مسلم ليس بكثير ، ولا يكاد يلحق الطالبَ له في طلبه مشقةٌ إن شاء الله لسهولته . ولأن الله تعالىٰ يُعينهُ على ذلك ، وييسِّره له إذا صلحت نيته . وله في طلبه ثواب عظيم .

فضل العلم

قال ﷺ : « من سلك طريقاً يلتمس به علماً يسر الله له به طريقاً إلى الجنة » وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « حضور مجلس علم أفضلُ من صلاة الف ركعةٍ ، وعيادةِ ألف مريض ، وحضورِ ألف جنازة . . » الحديث .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله تكفل لطالب العلم برزقه » .

قلت : وهذا تكفلٌ خاص بعد التكفّل العام الذي تكفل الله به لكل دابّة في الأرض في قوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ١١/٦] . فيكون معناه زيادةَ التيسير ورفعَ المئونة والكُلفة في طلب الرزق وحصوله ، والله أعلم .

وفي الحديث الطويل الذي ذكر فيه عليه الصلاة والسلام فضلَ العلم قال في آخره : « يُلْهَمُه السعداء ـ يعني العلم ـ ويُحْرَمُه الأشقياء » وليس من شيء يجمع جميع أنواع الخير غير السعادة ، وليس من شيء يجمع جميع أنواع الشر سوى الشقاوة .

فقد علمت ـ بما تقدم ـ أنه لا عذر لجاهل عند الله تعالى في ترك العلم ، وكذلك لا عذر لعالم في ترك العمل بعلمه .

* * *

ومثَلُ الجاهل المقصّر في طلب العلم الواجب عليه كمثَل عبدٍ أَرسل إليه سيده كتاباً يأمره فيه بأشياء وينهاه فيه عن أشياء ، فلم ينظر في ذلك الكتاب ولم يعرف ما فيه أصلاً مع القدرة على ذلك والتمكن منه .

ومثَلُ العالم الذي لم يعمل بعلمه كمثَل من نظر في كتاب

سيده وعلم ما فيه فلم يمتثل لشيء من أوامره ولم يجتنب شيئاً من نواهيه التي نصّ عليها في كتابه .

فانظر ـ رحمك الله ـ هل ترى تقصيراً أشنع من تقصير هذين العبدين في حقّ سيدهما؟ وهل تقوم لهما عنده حجة أو عذر! وهل أحد أحق بالعقاب والنَّكال منهما لجراءتهما وقلة تعظيمهما لسيدهما . فاحذر أن تكون أحد الرجلين المشئومين : الجاهل الذي لا يتعلم ، أو العالم الذي لا يعمل فتهلك مع الهالكين . وتخسر الدنيا والآخرة ؛ ذلك هو الخسران المبين .

وأما الاتساع في العلوم الدينية النافعة ، والاستكثارُ منها والزيادةُ على قدر الحاجة فذلك من أعظم الوسائل إلى الله ، وأفضل الفضائل عند الله ؛ ولكن مع الإخلاص لوجه الله في طلب العلم ، ومع مطالبة النفس بالعمل بما تعلم . وتعليمه لعباد الله ؛ مريداً بذلك كله وجه الله والدار الآخرة .

* * *

وتلك المرتبة هي التي تلي مرتبة النبوة . وجميعُ مراتب المؤمنين أَنْزَلُ منها . فإن العلماء العاملين هم الواسطة بين رسول الله ﷺ وبين المسلمين ؛ وقد قال الله تعالىٰ في فضل أهل العلم : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٨] .

فانظر كيف قرنهم مع ملائكته في الشهادة على توحيده ، وقيامه بالقسط وهو العدل .

وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٣٩/٩] . أي : لا يستوون لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولكن يفضِّل الله من يعلم على من لا يعلم بدرجات كثيرة ، قال تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ٥٨/١١] . أي : على الذين آمنوا .

وقال عليه الصلاة والسلام : « العلماء ورثة الأنبياء . لأن الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم . . » الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا حسد إلاَّ في اثنتين : رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً ، فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار » ومعنى الحسد ههنا : الغبطة ، وهي محمودة في أمور الآخرة . وقال عليه الصلاة والسلام : « فضل العالِم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » وفي رواية أخرى : « كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » .

فإذا كان فضل العالم على العابد بهذه المثابة مع أن العابد لا يخلو عن علم بعبادته ؛ ولولا ذلك لم يسمَّ عابداً فكيف يكون فضل العالم على الجاهل؟

وفضائل العلم وأهله لا تحصى ، وكتابُ الله وسنةُ رسوله

ﷺ وآثار السلف الصالح مشهورة ومعروفة في ذلك . والكتب مشحونة بها ؛ أعني بفضائل العلم والعلماء .

قال علي رضي الله عنه : العلم خير من المال . العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال . والعلم يزيد بالإنفاق ، والمال ينقص به . والعلم حاكم ، والمال محكوم عليه .

* * *

واعلم أن العالِم الذي لا يعمل بعلمه مسلوب الفضيلة ؛ فلا ينبغي له أن يغتر بما ورد عن الله وعن رسوله في فضل العلم ، ويوهم نفسه أنه داخل في ذلك بمجرد العلم من غير عمل ؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام : « تعلموا ما شئتم ، فوالله لا يُقبل منكم حتى تعملوا به » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من ازداد علماً ولم يزدد هدًى، لم يزدد من الله إلا بُعداً » .

وإنما صار العلم بتلك المنزلة الرفيعة عند الله لما فيه من المنفعة العامة لجميع عباد الله تعالى .

وإذا لم ينتفع العالم بعلمه في نفسه فكيف ينتفع به غيره؟

فاعرف من ههنا بطلان الفضيلة في حق من يعلم ولا يعمل . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » . وكان عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع .

وليس عند العالم الذي لا يعمل بعلمه إلا صورة العلم

ورسمه دون معناه وحقيقته ؛ كما قال بعض السلف ـ رحمة الله عليهم ـ : العلم يهتف بالعمل ؛ فإن أجابه وإلا ارتحل ، أعني يرتحل منه روحه ونوره وبركته ، وأما صورته فلا ترتحل بل تبقى مؤكدة للحجة على العالِم السوء .

ثم إن كان هذا العالم يعلِّم علمه للناس وينفعهم به كان بمنزلة الشمعة تضيء للناس وهي تحترق ، وكالإبرة تكسو الناس وهي عارية ؛ قال تعالىٰ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٢/ ٤٤] .

وفي الحديث : « إنه يؤمر بالعالم إلى النار فتخرج أمعاؤه فيدور بها في النار كما يدور الحمار بالرحى ، فيطوف به أهل النار فيقولون له : ما بالك؟ فيقول : إني كنت آمر بالخير ولا آتيه ، وأنهى عن الشر وآتيه . . » الحديث .

قلت : وهذا العالم الذي يعلِّم الناس ولا يعمل خاسر ، وأمره في غاية الخطر ؛ ولكنه أحسن حالاً من الذي لا يعمل ولا يعلِّم الناس ، فإنه خاسر من كل وجه ، وهالك على كل حال ، إذ لم يبق فيه خير ولا نفع البتة ، وأخشى أن يكون من الذين قال فيهم عليه الصلاة والسلام : « يؤمر بأقوام من حملة القرآن إلى النار قبل عبدة الأوثان ، فيقولون : يُبدأ بنا قبل عبدة الأصنام! فيقال لهم : نعم ، ليس من يعلم كمن لا يعلم » .

* * *

فإن كان العالم مع كونه لا يعمل ولا يعلِّم يدعو إلى الشر ، ويفتح للعامة أبواب التأويلات والرخص ، ويلقنهم المخادعات والحيل التي يخرجون بها من الحقوق التي عليهم ، ويتوصلون بها إلى أخذ حقوق الناس فهو شيطان مارد ، فاجر معاند لله ورسوله ، قد استخلفه الشيطان ، وجعله نائباً عنه في الفتنة والضلالة والإغواء ، وهو عند الله من الذين شبههم بالحمير والكلاب في الخسة والمهانة ، وإلا فالحمير والكلاب خير منه ، لأن الحمير والكلاب يصيرون إلى التراب وهو يصير إلى النار ؛ قال تعالىٰ : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة : ٦٢/ ٥] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف : ٧/ ١٧٥-١٧٦] .

* * *

وكان عمر رضي الله عنه يقول : أخوف ما أخاف عليكم منافق عليم باللسان . وقد يتمكن مثل هذا الفاجر المنافق من علم الكتاب والسنة ؛ فيكون بلاء على المسلمين وفتنة . وفي

مثله قال عليه الصلاة والسلام : « أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال » قيل : وما ذلك . قال : « علماء السوء » . وقد وصف عليه الصلاة والسلام أناساً يقرءون القرآن كما أُنزل وأنه لا يجاوز تراقِيَهم ، وأنهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّميَّة » .

وفي الحديث : « إن مَثَل المنافق الذي يقرأ القرآن كمَثَل الريحان ريحه طيب وطعمه مُر » .

فلا يُستبعد بعد هذا أن من يعلم ظاهر العلم منافق فاجر ، وعلامته أن لا ينتفع بالعلم ولا ينفع به ؛ بل يضرُّ به نفسه ويضرُّ به غيره .

وبالجملة فإن العالم العامل المعلِّم لعباد الله هو الفاضل الخيِّر المعدود من ورثة الأنبياء . والعالم الذي لا يعمل ولكنه يعلِّم الناس الخير والعلم ، أمره مخطر ، وهو خير بكثير من العالم الشرير الذي لا يعمل ولا يعلِّم خيراً ، ويدعو مع ذلك إلى الشر بتيسير أسبابه وفتح أبوابه .

ففرِّق بين العلماء ، واقتد بخيرهم ، واتصف بصفته ، وسِرْ على سبيله ، تكن من المهتدين . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

* * *

ثم اعلم ـ رحمك الله ـ أن للعالم العامل بعلمه ، المعدود عند الله ورسوله من علماء الدين وعلماء الآخرة : علاماتٍ وأمارات تفرق بينه وبين العالم المخلِّط المعدود عند الله ورسوله من علماء اللسان ، المتبعين للهوى ، المؤثرين الدنيا على العقبى . فمن علامات العالم المعدود من علماء الآخرة : أن يكون خاشعاً متواضعاً خائفاً وَجِلاً مشفقاً من خشية الله ، زاهداً في الدنيا قانعاً باليسير منها ، منفقاً للفاضل عن حاجته مما في يده ، ناصحاً لعباد الله تعالى ، شفيقاً عليهم ، رحيماً بهم ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، مسارعاً في الخيرات ، ملازماً للعبادات ، دالاً على الخير ، داعياً إلى الهدى ، ذا سمت وتؤدة ، ووقار وسكينة ، حسنَ الأخلاق ، واسع الصدر ، ليِّن الجانب ، مخفوض الجناح للمؤمنين ، لا متكبراً ولا متجبراً ، ولا طامعاً في الناس ، ولا حريصاً على الدنيا ، ولا مؤثراً لها على الآخرة ، ولا جامعاً للمال ولا مانعاً له عن حقه ، ولا فظّاً ولا غليظاً ، ولا ممارياً ولا مجادلاً ولا مخاصماً ، ولا قاسياً ، ولا سيء الأخلاق ولا ضيِّق الصدر ، ولا مداهناً ولا مخادعاً ، ولا غاشاً ولا مقدِّماً للأغنياء على الفقراء ، ولا متردداً إلى السلاطين ، ولا ساكتاً عن الإنكار عليهم مع القدرة ، ولا محباً للجاه والمال والولايات ؛ بل يكون كارهاً لذلك كله ، لا يدخل في شيء منه ولا يلابسه إلا من حاجة أو ضرورة .

وبالجملة : يكون متصفاً بجميع ما يحثه عليه العلم ، ويأمره به من الأخلاق المحمودة والأعمال الصالحة ، مجانباً لكل ما ينهاه العلم عنه من الأخلاق والأعمال المذمومة .

وهذه الأشياء التي ذكرناها في وصف علماء الآخرة يجب أن يتحلى بها ويتصف بها كل مؤمن ، غير أن العالم أولى بها وأحق ، وهي عليه أوجب وآكد ؛ لأنه عَلَمٌ به يُهتدى ، وإمام به يُقتدى . فإن ضل وغوى وآثر الدنيا على الآخرة ، كان عليه إثمه وإثم من تابعه على ذلك ، وإن استقام واتقى كان له أجره وأجر من تابعه على ذلك .

وظائف العلم

وينبغي للعالم بأمور الدين الظاهرة : أن يضيف إلى ذلك العلمَ بالأخلاق الباطنة من صفات القلوب ، والعلمَ بأسرار الأعمال وآفاتها ، والعلمَ بالوعد والوعيد الواقعين في الكتاب والسنة ، من ذكر ثواب المحسنين وعقاب المسيئين ، فبذلك يتم أمر العالِم ، ويكمل النفع له والانتفاع به . فإن هذه العلوم التي ذكرناها لا يتم بعضها بدون بعض ، وهي علوم السلف الصالح ، يعرف ذلك من طالع سيرهم .

وأما علم الباطن فلا قِوام له بدون علم الظاهر ، وأما علم الظاهر فلا تمام له بدون علم الباطن .

وأما علم الوعد والوعيد فلما فيهما من الترغيب في إقامة الأوامر والفضائل ، ومن الترهيب عن الوقوع في المحارم والرذائل .

وقبيح بالعالم أن يتكلم في حكم بعض الواجبات ، أو فضائل الخيرات ، أو شيء من المحرمات ؛ فإذا طولب عند ذلك بذكر بعض ما ورد عن الله وعن رسوله في ذلك الأمر لم يقدر أن يورد شيئاً في ذلك ، وصدورُ المؤمنين إنما تنشرح بكلام الله تعالى وبكلام رسولهﷺ، وبه تطمئن قلوبهم ، وتنتهض هممهم .

فتأمل هذه الجملة وأحسن النظر فيها ، وخذ من هذه العلوم الثلاثة قدراً صالحاً : وهي علم الأحكام الظاهرة من العبادات والمعاملات ، وعلم الأمور الباطنة من الأخلاق وأوصاف القلوب ، وعلم الوعد والوعيد وأعني به ما ورد عن الله ورسوله في فضل الطاعات ، وهو الوعد ، وعقاب السيئات وهو الوعيد .

وينبغي ويتأكد على أهل العلم أن يبالغوا في نشره وإذاعته ، وبذله وتعليمه لجميع المسلمين أعني العلم العام النافع علمه لكل أحد من أهل الإسلام .

* * *

وينبغي للعالِم أن يكون حديثه مع العامة في حال مخالطته ومجالسته لهم في بيان الواجبات والمحرمات ، ونوافل الطاعات ، وذكر الثواب والعقاب على الإحسان والإساءة ، ويكون كلامه معهم بعبارة قريبة واضحة يعرفونها ويفهمونها ، ويزيد بياناً للأمور التي يعلم أنهم ملابسون لها ، ولا يسكت

حتى يُسأل عن شيء من العلم وهو يعلم أنهم محتاجون إليه ومضطرون له ، فإنَّ عِلْمَه بذلك سؤال منهم بلسان الحال .

والعامة قد غلب عليهم التساهل بأمر الدين علماً وعملاً ، فلا ينبغي للعلماء أن يساعدوهم على ذلك بالسكوت عن تعليمهم وإرشادهم ، فيعم الهلاك ، ويعظم البلاء ، وقلما تختبر عاميّاً - وأكثرُ الناس عامة - إلا وجدته جاهلاً بالواجبات والمحرمات ، وبأمور الدين التي لا يجوز ولا يسوغ الجهل بشيء منها ، وإن لم يوجد جاهلاً بالكل وجد جاهلاً بالبعض . وإن علم شيئاً من ذلك وجدتَ علمه به علماً مسموعاً من ألسنة الناس ، ولو أردت أن تقلبه له جهلاً ، فعلت ذلك بأيسر مئونة لعدم الأصل والصحة فيما يعلمه .

* * *

وينبغي للعالم إذا جاءه من يطلب العلم أن ينظر فيه ، فإن كان فارغاً ومتأهلاً لفهم العلم فليأمره بقراءة الكتب ، وإن كان عامياً يقصد أن يتعلم ما لا بد له من العلم فلْيُلقِّنه ذلك تلقيناً ، وليعلِّمه ويفهِّمه ، ويختصر له الأمر ، ولا يطوِّل عليه بقراءة الكتب التي عساه لا يفهمها ولا يفرغ لها ، ولا يحتاج لأكثر ما فيها فإن حاجة العامة من العلم ليست شيئاً كثيراً .

* * *

وينبغي للعلماء وخصوصاً منهم ولاة الأحكام أن يعظوا عامة المسلمين عند الاختصام إليهم ، ويخوِّفوهم بما ورد عن الله تعالى وعن رسوله من التشديدات والتهديدات في الدعاوي الكاذبة ، وشهادة الزور والأيمان الفاجرة . والمعاملات الفاسدة ، مثل الربا وغيره . ويذكروا لهم بعض ما ورد في الشرع من تحريم هذه الأمور . وشدة العقاب فيها ؛ وذلك لغلبة الجهل ، وشدة الحرص ، وقلة المبالاة بأمر الدين . وكم من عاميّ من المسلمين إذا سمع تحريم الكذب في الدعاوي والشهادات والأيمان يرجع عن شيء قد عزم عليه من ذلك لجهله وقلة علمه .

وعلى الجملة : فيتأكَّد على العلماء أن يجالسوا الناس بالعلم ، ويحدثوهم به ، ويبينوه لهم . ويكون كلام العالم معهم في بيان الأمر الذي جاءوا إليه من أجله : مثل ما إذا جاءوا لعقد نكاح يكون كلامه معهم فيما يتعلق بحقوق النساء : من الصداق ، والنفقة والمعاشرة بالمعروف ، وما يجري هذا المجرى . ومثل ما إذا جاءوا لعقد بيع وكتاب مسطور بينهم في ذلك . يكون كلامه معهم : في الشهادات ، وفي صحيح البيوع وفاسدها ، ونحو ذلك .

وهذا والله خير وأولى في هذه المجالس من الخوض في فضول الكلام ، وما لا تعلق له بالأمر الذي من أجله جاءوا ، ولا بالدين رأساً .

ولا ينبغي للعالم أن يخوض مع الخائضين ، ولا أن يصرف شيئاً من أوقاته في غير إقامة الدِّين . .

وهذا الذي ذكرناه من أنه ينبغي للعالم ويتأكد عليه : أن يجعل مجالسته ومخالطته مع عامة المسلمين معمورة ومستغرقة بتعليمهم وتنبيههم وتذكيرهم . قد صار في هذا الزمان بالخصوص من أهم المهمات على أهل العلم ، لاستيلاء الغفلة والجهل والإعراض عن العلم والعمل على عامة الناس ؛ فإن ساعدهم أهل العلم على ذلك بالسكوت عن التعليم والتذكير غلب الفساد . وعمَّ الضرر . وذلك مشاهد لإهمال العامة أمر الدين ، وسكوت العلماء عن تعليمهم وتعريفهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله!

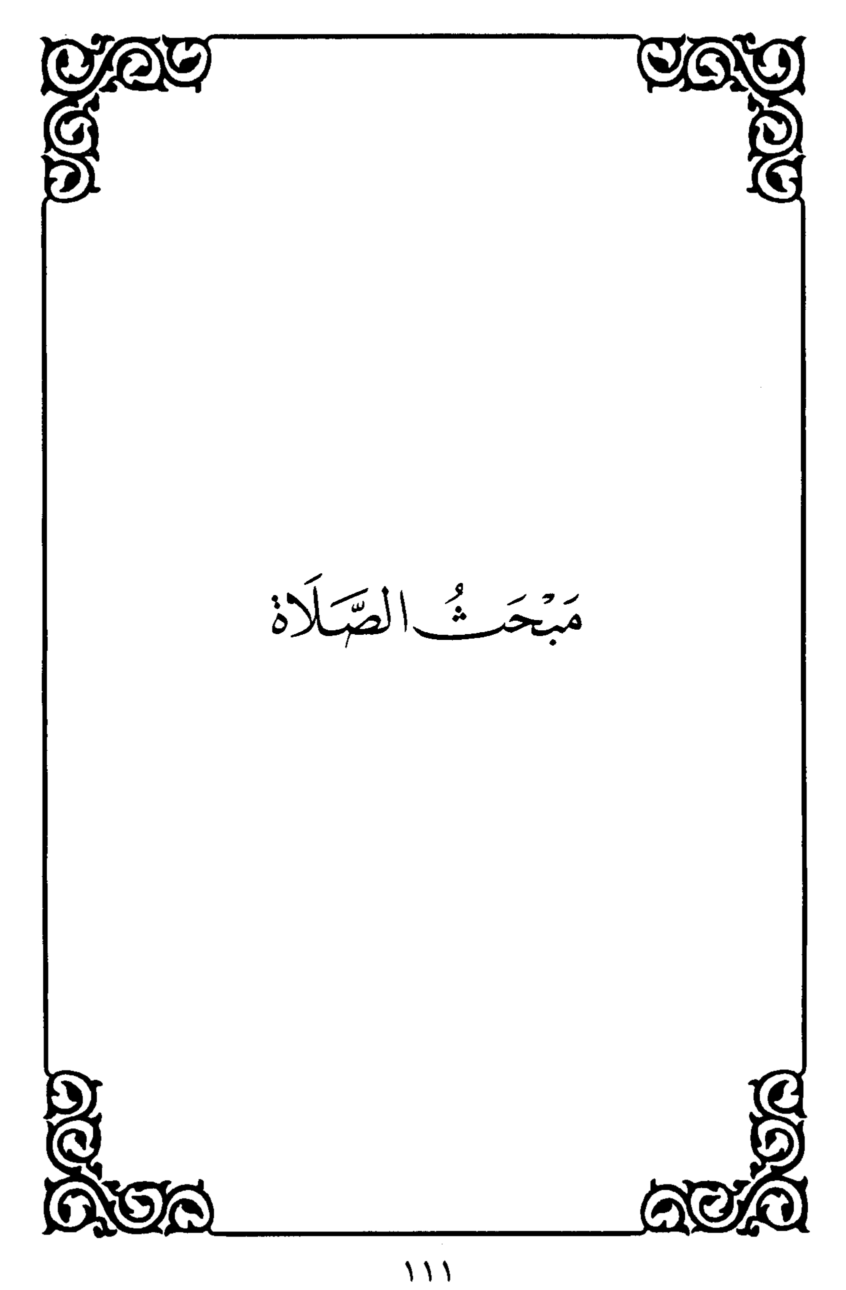
* * *

ثم إن من آكد الوظائف والآداب في حق العالم : أن يكلم الناس بفعله قبل قوله ، وأن لا يأمرهم بشيء من الخير إلا ويكون من أحرصهم على فعله والعمل به ، ولا ينهاهم عن شيء من الشر إلا ويكون من أبعدهم عنه ، وأشدهم تركاً له ، وأن يكون مريداً بعلمه وعمله وتعليمه وجهَ الله والدار الآخرة فقط ، دون شيء آخر من جاهٍ أو مالٍ أو ولاية أو شيء من أعراض الدنيا ، قال رسول الله ﷺ : « من طلب علماً مما يُبتغىٰ به وجهُ الله ليباهيَ به العلماء أو ليماريَ به السفهاء ، أو

ليصرف به وجوه الناس إليه لقي الله وهو عليه غضبان » .

اللهم انفعنا بما علمتنا ، وعلِّمنا ما ينفعنا ، وزدنا علماً ، والحمد لله على كل حال ، ونعوذ بالله من أحوال أهل النار .

* * *



مَبْحَثُ الصَّلَاةِ

فضائل الصلاة

واعلموا معاشر الإخوان ـ فقهنا الله وإياكم في الدين ، وألهمنا رشدنا ، وأعاذنا من شر أنفسنا ـ أن الصلاة عماد الدين ، وأجلُّ مباني الإسلام الخمس بعد الشهادتين . ومحلها من الدين محل الرأس من الجسد ، فكما أنه لا حياة لمن لا رأس له ، فكذلك لا دين لمن لا صلاة له ، كذلك ورد في الأخبار .

جعلنا الله وإياكم من المحافظين على الصلاة ، المقيمين لها ، الخاشعين فيها ، الدائمين عليها ، فبذلك أمر الله عباده المؤمنين في كتابه ، وبه وَصَفَهم فقال عزَّ من قائل : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة : ٢/٢٣٨] . فالصلوات هي المكتوبات الخمس : الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والصبح . فتلك هي الصلوات التي لا يسع أحداً من المسلمين ترك شيء منها في حال من الأحوال ما دام يعقل ، ولو بلغ به العجز والمرض إلى أقصى غاياته .

والصلاة الوُسطى : هي العصر كما ورد به الحديث

الصحيح خصها الله بالذكر لزيادة الفضل والشرف ، وذلك معروف ومشهور في الإسلام ، حتى بَلَغَنا في سبب نزول الرخصة في صلاة الخوف : أن المسلمين كانوا مع رسول الله ﷺ في بعض الغزوات ، فصلى بهم عليه الصلاة السلام صلاة الظهر على الوجه المعهود ، وكان المشركون قريباً منهم يرونهم ، فلما فرغوا من صلاتهم قال بعض المشركين : لو أغرتُم عليهم وهم في صلاتهم لأصبتموهم ، فقال بقية المشركين : إن لهم بعد هذه الصلاة صلاةً هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم ـ يعنون العصر ـ فنزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ بصلاة الخوف . فانظر كيف صار فضل هذه الصلاة ـ أعني العصر ـ معلوماً حتى للمشركين .

وقال تعالىٰ : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم : ٣٠/٣١] .

فالإنابة : هي الرجوع إلى الله ، والتقوى : هي الخشية من الله ، والإقامة للصلاة : هي الإتيان بها على الوجه الذي أمر الله به .

وقال تعالىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

﴿ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون : ٢٣/ ١ـ٩] .

وقال تعالىٰ : ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج : ٧٠/ ٢٢ـ٢٣] .

فاستثناهم من نوع الإنسان المخلوق على الهلع والجزع عند مس الشر له ، والمنع عند مس الخير له ، كأنه سبحانه يقول : إن المصلين على الحقيقة ليسوا ممن يهلع ويجزع ويمنع .

قلت : لأن هذه الأوصاف من المنكر ، وقد قال تعالىٰ : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت : ٢٩/ ٤٥] . فالمصلي المقيم للصلاة كما أمر الله ورسوله ، تنهاه صلاته عن فعل ما يكرهه الله منه ، مثل هذه الصفات المذكورة وغيرها من المكاره .

وقال عليه الصلاة والسلام : « صلُّوا كما رأيتموني أُصلي » . فالمصلي على الاتباع والاقتداء برسول الله ﷺ في صلاته ، على الوجه الذي نَقَلَتْه علماء الأمة من السلف والخلف رضي الله عنهم ، هو المصلي المعدود عند الله من المقيمين للصلاة والمحافظين عليها .

* * *

ثم إن للصلاة صورة ظاهرة ، وحقيقة باطنة لا كمال للصلاة ولا تمام لها إلا بإقامتهما جميعاً . فأما صورتها الظاهرة : فهي القيام ، والقراءة ، والركوع ، والسجود ، ونحو ذلك من وظائف الصلاة الظاهرة . وأما حقيقتها الباطنة : فمثل الخشوع ، وحضور القلب ، وكمال الإخلاص ، والتدبر والتفهُّم لمعاني القراءة ، والتسبيح ، ونحو ذلك من وظائف الصلاة الباطنة .

فظاهر الصلاة : حظ البدن والجوارح . وباطن الصلاة : حظ القلب والسِّر ، وذلك محل نظر الحق من العبد ـ أعني قلبه وسره .

قال الإمام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ مثل الذي يقيم صورة الصلاة الظاهرة ويغفل عن حقيقتها الباطنة ، كمثل الذي يهدي لملك عظيم وصيفة ميتة لا روح فيها . ومثل الذي يقصِّر في إقامة ظاهر الصلاة ، كمثل الذي يهدي إلى الملك وصيفة مقطوعة الأطراف ، مفقوءة العينين ، فهو والذي قبله متعرضان من الملك بهديتهما للعقاب والنكال ، لاستهانتهما بالحرمة ، واستخفافهما بحق الملك . ثم قال : فأنت تُهدي صلاتك إلى ربك ، فإياك أن تهديها بهذه الصفة فتستوجب العقوبة . انتهى بمعناه .

المحافظة على الصلاة والخشوع فيها

ومن المحافظة على الصلاة والإقامة لها : كمال الطهارة والاحتياط فيها في البدن والثوب والمكان ، قال عليه الصلاة والسلام : « الطهور مفتاح الصلاة » وفي الحديث الآخر : « الطهور شطر الإيمان » .

وإسباغُ الوضوء : تثليثه من غير وسوسة ولا إسراف ، فإن الوسوسة في الطهارة والصلاة من عمل الشيطان ، يلبِّس بها على من قلَّ علمه وضعف عقله ، كما قال بعض السلف : الوسوسة من جهلٍ بالسُّنة أو خبال في العقل . ومذهب السلف في الطهارات هو المذهب المحمود ، وفي جميع الأشياء ، فإنهم القُدوة ، وبهم الأُسوة ، وتجديد الوضوء لكل صلاة من السنة ، والدوامُ على الوضوء مطلقاً محبوب وفيه منافع كثيرة .

بلغنا : أن الله تعالىٰ قال لموسىٰ عليه السلام : إذا أصابتك مصيبة وأنت على غير طهارة فلا تلومنَّ إلا نفسك .

وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن من توضأ فأحسن الوضوء خرجت جميع خطاياه من أعضائه ، ودخل في الصلاة نقياً من الذنوب .

* * *

ومن المحافظة على الصلاة ، والإقامة لها : المبادرةُ بها في أول مواقيتها ، وفي ذلك فضل عظيم . وهو دليل على محبة الله تعالى وعلى المسارعة في مرضاته ومحابِّه ، قال عليه

الصلاة والسلام : « أول الوقت رضوانُ الله ، وآخره عفو الله ، وإن العبد ليصلي الصلاة ولم يخرجها من وقتها ، ولَمَا فاته من أول الوقت خير له من الدنيا وما فيها » . وقبيح بالمؤمن أن يدخل عليه وقت صلاته وهو على شغل من أشغال الدنيا فلا يتركه ، ويقوم إلى فريضته التي كتبها الله عليه فيؤديها ، ما ذلك إلا من عُظم الغفلة وقلة المعرفة بالله ، ومن ضعف الرغبة في الآخرة .

* * *

وأما تأخير الصلاة حتى يخرج وقتها أو يقع بعضها خارجه فغير جائز وفيه إثم . والأذانُ والإقامةُ من شعائر الصلاة تتأكد المحافظة عليهما ، وفيهما طرد للشيطان ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان » الحديث .

* * *

ومن المحافظة على الصلاة والإقامة لها : حسنُ الخشوع فيها ، وحضورُ القلب وتدبرُ القراءة ، وفهم معانيها ، واستشعارُ الخضوع والتواضع لله عند الركوع والسجود ، وامتلاء القلب بتعظيم الله وتقديسه عند التكبير ، والتسبيح ، وفي سائر أجزاء الصلاة ، ومجانبة الأفكار والخواطر الدنيوية ، والإعراضُ عن حديث النفس في ذلك ، بل يكون

الهمُّ في الصلاة مقصوراً على إقامتها وتأديتها كما أمر الله . فإن الصلاة مع الغفلة وعدم الخشوع والحضور لا حاصل لها ولا نفع فيها .

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع .

وفي الحديث : « ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها ، وإن المصلي قد يصلي الصلاة فلا يُكتب له منها سدُسها ولا عشرُها » ؛ أعني : أنه يكتب له منها القدر الذي كان فيه حاضراً مع الله وخاشعاً له ، وقد يقلّ ذلك وقد يكثر بحسب الغفلة والانتباه . فالحاضر الخاشع في جميع الصلاة تُكتب له صلاته كلّها . والغافل اللاهي في جميع صلاته لا يكتب له شيء منها .

فاجتهد ـ رحمك الله ـ في الخشوع ، والحضور في الصلاة ، وتدبَّر ما تقرَؤُه من كلام ربّك في صلاتك ، ولا تعجل إذا قرأت ، فإنه لا تدبُّر مع العجلة .

* * *

وإذا ركعت وسجدت فاطمئن . ولا تنقر الصلاة نَقْرَ الدِّيك ، فلا تصح صلاتك . وذلك لأن الطمأنينة في الركوع والاعتدال منه ، وفي السجدتين وفي الجلوس بينهما ، واجبةٌ لابد منها في الفرض والنفل ، تبطل الصلاة بتركها ، والذي

لا يتم ركوعه وسجوده وخشوعه في صلاته هو الذي يسرق الصلاة ، كما ورد به الحديث .

وورد : أن من حافظ على الصلاة وأتمها تخرج صلاته بيضاء مسفرة . تقول : حفظك الله كما حفظتني . والذي لا يتم الصلاة تخرج صلاته سوداء مظلمة ، تقول : ضيّعك الله كما ضيعتني ، ثم تُلَف كما يُلف الثوب الخلق فيُضرب بها وجهه . وفي الحديث : « إنما الصلاة تمسكنٌ وتخضُّعٌ وتخشُّعٌ » .

ولما رأىٰ عليه الصلاة والسلام الرجل الذي يعبث بلحيته في صلاته قال عليه الصلاة والسلام : « لو خشع قلبُ هذا لخشعت جوارحه » .

فبيّن أن خشوع الجوارح من خشوع القلب ، وأنه لا كمال للصلاة بدون ذلك . وقد قال السلف ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ : مَن عرف مَن على يمينه وشماله وهو في الصلاة فليس بخاشع .

وقد بلغ الخشوع في الصلاة برجال من السلف الصالح مبلغاً عجيباً ، فمن ذلك : أن أحدهم كان يقع عليه الطير وهو قائم في الصلاة أو ساجد يحسب أنه حائطٌ أو جماد من شدة هدوئه وطول قيامه وسجوده . وسقطت في جامع البصرة أسطوانة انزعج لسقوطها أهل السوق ، وكان بعضهم يصلي في المسجد فلم يشعر بها من شدة استغراقه في صلاته . وكان

بعضهم يقول لأهله وأولاده : إذا دخلت في الصلاة فافعلوا ما بدا لكم ـ يعني : من رفع الأصوات وكثرة اللغط ـ فإني لا أحس بكم . فكانوا ربما يضربون بالدّف عنده فلا يشعر به .

واحترق بيت علي بن الحسين رضي الله عنهما بالنار وهو ساجد ، فجعلوا يصيحون عليه : النار النار ياابن رسول الله ! فلم يرفع رأسه . فلما فرغ من صلاته قيل له في ذلك فقال : ألهتني عنها النار الأخرى .

وقيل لبعضهم : هل تجد في صلاتك ما نجده من وساوس الدنيا؟ فقال : لأن تختلف فيَّ الأسنَّة أحبُّ إليَّ من ذلك . وقيل لآخر : هل تحدث نفسك في الصلاة بشيء؟ فقال : وهل شيء أحب إليَّ من الصلاة حتى أحدث نفسي به فيها!

وجاء السارق فسرق فرس الربيع بن خيثم وهو في الصلاة ، فجعل الناس يدعون عليه ، فقال الربيع : لقد رأيته حين أطلقه . فقالوا : لو طلبته فأخذته منه؟ فقال : كانت صلاتي أحبَّ إليَّ من الفرس ، وهو منه في حلّ .

وصلى بعض أصحاب رسول الله ﷺ في حائط نخل له ، فجعلت الطير تطير من شجرة إلى شجرة ، وجعل ينظر إليها ، فألهاه ذلك عن شيء من صلاته ، فلما عرف ذلك من نفسه ، شق عليه ؛ فجعل ذلك الحائط كلّه في سبيل الله لَمّا ألهاه عن صلاته .

قلت : وهذا كله لمعرفة السلف الصالح رضي الله عنهم بجلالة قدر الصلاة وعِظَم موقعها من الدين .

وقد بلغنا : أن الله تعالىٰ قسّم أعمال الصلاة على أربعين ألف صفّ من الملائكة ، في كل صف سبعون ألفاً : عشرة منها قيام لا يركعون ، وعشرة منها ركوع لا يسجدون ، وعشرة سجود لا يرفعون ، وعشرة قعود لا يقومون ، وجمع جميع ذلك لعبده المؤمن في ركعتين يصليهما ، فانظر عُظم منته وفضله على عباده المؤمنين ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « مثل الصلوات الخمس مثل نهرٍ غمرٍ على باب أحدكم يقتحمه في كل يوم وليلة خمس مرات ؛ أفترون ذلك يُبقي عليه من درنه شيئاً؟ » قالوا : لا . وقال عليه الصلاة والسلام : « الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما إذا اجتنبت الكبائر » .

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا حضر وقت الصلاة يقول : قوموا إلى ناركم التي أوقدتموها فأطفئوها . يريد بالنار الذنوب ، وبإطفائها القيام إلى الصلاة ؛ فإنه مكفِّر للسيئات ومذهب لها ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾

[هود : ١١/ ١١٤] .

وقد ورد أن هذه الآية نزلت في رجل أصاب من امرأة ما دون الزنا ، وجاء إلى رسول الله ﷺ يسأله أن يقيم عليه الحد ، فلم يرد عليه حتى أقيمت الصلاة ؛ فلما فرغ عليه

الصلاة والسلام من صلاته استحضره فقرأ عليه هذه الآية ، فقال الرجل : هذا لي خاصةً أم للناس عامة؟ قال : « بل هو للناس عامة » .

قلت : وفيه دليل على أن الصغائر من السيئات تكفَّر بالصلوات وغيرها من الحسنات ، والتوبة منها ـ أعني : الصغائر ـ مع ذلك أتم وأحوط .

قلت : ولا حدَّ على الرجل فيما أصابه من المرأة دون الزنا : من القبلة واللمس ونحو ذلك ، ولكنه حَسِبَ أن عليه في ذلك حداً ، والله ورسوله أعلم .

فضيلة الجماعة

ومن المحافظة على الصلاة والإقامة لها : المداومةُ والمواظبة على فعلها في الجماعة ؛ وذلك لأن الصلاة في الجماعة تفضلُ على صلاته وحده بسبع وعشرين درجة ، كما ورد به الحديث الصحيح . فمن تساهل بهذا الربح الديني الأخروي الذي لا تعب في تحصيله ولا مشقة في نيله ، فقد عظمت عن مصالح الدين غفلته ، وقلَّت في أمر الآخرة رغبته ، لا سيما وهو يعلم من نفسه كثرة ما يتحمله من التعب ، ويقاسي من المشاق في طلب ربح الدنيا اليسير الحقير ، وإذا حصل له منه شيء تافهٌ بتعب كثير نسي تعبه ، وعدَّ ما ناله من ربح الدنيا الفانية غُنماً جسيماً . أفلا يخشى من يعرف من نفسه هذه الأوصاف أن يكون عند الله من المنافقين ، وفيما وعد الله به من المتشككين!

ولم يبلغنا في جملة ما بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه صلى منفرداً ولا صلاة واحدةً! وقال ابن مسعود رضي الله عنه : لقد رأيتُنا وما يتخلف عنها - يعني صلاة الجماعة - إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به على عهد رسول الله ﷺ يُهادى بين الرجلين من الكِبَر حتى يُقام في الصف .

ولما شكا ابن أم مكتوم الأعمى إلى رسول الله ﷺ أنه لا قائد له ، وذكر له ما بالمدينة يومئذٍ من الآبار والهوام ، وبُعد منزله عن المسجد ليعذره عن المجيء لصلاة الجماعة ؛ فعذره بعد ذكره لهذه الأشياء كلِّها . فلما قام وذهب دعاه عليه الصلاة والسلام ، فلما رجع إليه قال له : « هل تسمع حيَّ على الصلاة ، حيَّ على الفلاح »؟ فقال : نعم . فقال له عليه الصلاة والسلام : « فهلم هلا » - يعني بذلك : تعال إلى الصلاة فلا عذر لك .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من سمع النداء فارغاً صحيحاً فلم يُجِبْ ، فلا صلاة له » وقد همَّ عليه الصلاة والسلام بإحراق بيوت أقوام عليهم بالنار كانوا يتخلفون عن الصلاة في الجماعة ؛ كذلك ورد في الحديث : وهو الغاية في التشديد والتهديد لمن يترك صلاة الجماعة من غير عذر صحيح .

والعذرُ الصحيح : هو الذي لا يمكن الحضور معه بوجه

ما ، وإن أمكن فبمشقة ظاهرة يعسر على أكثر الناس تحمُّلها ؛ ومع ذلك فالحضور أفضل ، والثواب فيه أكثر إلا في صُور نادرة : مثل أن يكون عذره داء الإسهال المتواتر ، ويخشى لو حضر من تلويث المسجد ، وما في معنى ذلك . والعذرُ إنما معناه : سقوط الحرج عن المعذور . وقد يحصل الثواب مع إسقاط الحرج لمن كان عذره صادقاً ، وهو يود أن لو استطاع الحضور بأي ممكن ، ويقع في قلبه لعدم حضوره حزن وتعب على ما فاته من طاعة ربه وتعظيم حرماته ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام في بعض غزواته : « إن أقواماً خلفنا بالمدينة ما سِرنا مسيراً ، ولا قطعنا وادياً إلا كانوا معنا ، حبسهم العذر . . » الحديث .

وكأنهم هم الذين قال الله فيهم : ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا ﴾ [التوبة : ٩/ ٩٢] . ومَن في معناهم من أهل الصدق والإخلاص ، وقوة الرغبة فيما عند الله ، وبذل النفس فما دونها في طلب مرضاته .

فإياك أن تتخلف عن صلاة الجماعة لغير عذر ناجز يمكنك أن تعتذر به بين يدي الله علام الغيوب! وإن بدا لك القعود في بيتك لأمر رأيت فيه خيراً وصلاحاً لك في دين أو دنيا ، فاخرج إلى المسجد أوقات الصلوات لتصليها في جماعة ، أو خذ إليك من يصلي معك في بيتك ولو واحداً حتى تسلم من الحرج

وتفوز بالثواب ؛ فإن فضل الجماعة يحصل بإمام ومأموم ، وكلما كثروا كان أفضل .

وتزكو الصلاة ويزيد ثوابها خلف الأئمة من أهل الخير والصلاح ، وترجح على الصلاة خلف من ليس بهذا الوصف .

فينبغي أن تتحرى وتجتهد أن تصلي خلف الأئمة المعروفين بالتقوى ؛ وهذا من حيث الأفضل والأولى ، وإلا فقد قال عليه الصلاة والسلام : « صلوا خلف كلِّ بر وفاجر » .

وفي المشي إلى المسجد لأجل الصلاة فيه ، ثواب عظيم ، وردت به الأخبار ، حتى ورد أن كل خطوة يخطوها العبد إلى المسجد تحسب له ، وتكتب له في حسناته .

وانتظار الصلاة بعد الصلاة من القُربات . ومثاله : أن تصلي المغرب ثم تجلس في المسجد لأجل العشاء حتى تصليها . والمنتظرُ للصلاة يُعَد عند الله مصلياً ويكتب له ثواب المصلين ، سواء كان ذلك انتظار صلاة بعد صلاة ، أو سبق إلى المسجد قبل أن تقام الصلاة فقعد ينتظرها . والذي يمكث في محله الذي صلى فيه لا تزال الملائكة تستغفر له وتدعو له حتى يُحدث ، أو يتكلم . كل ذلك قد وردت به الأخبار عن النبي ﷺ ؛ قال رسول الله ﷺ : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطى إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ؛

فذلكم الرباط فذلكم الرباط » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « بشِّر المشَّائين إلى المساجد في الظُّلَم بالنور التام يوم القيامة » . وورد أن مشي الإنسان إلى المسجد يُكتَب له ، ويجعل الله له ثوابه : خطوة يكفر بها عنه سيئةً ، وخطوة يكتب له بها حسنة ، وخطوة يرفع له بها درجة ، وكما يكتب له ممشاه إلى المسجد كذلك يكتب له رجوعه من المسجد إلى منزله . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تزال الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في محله الذي صلى فيه ما لم يحدث أو يتكلم تقول : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه » .

* * *

ومن المتأكد الذي ينبغي الاعتناء به ، والحرص عليه الملازمة للصف الأول ، والمداومة على الوقوف فيه لقوله عليه الصلاة والسلام : « لو يعلم الناس ما في الأذان والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا » ؛ ومعنى الاستهام : الاقتراع .

ويحتاج من يقصد الصلاة في الصف الأول لفضله ، إلى المبادرة قبل ازدحام الناس ، وسبقهم إلى الصف الأول ؛ فإنه مهما تأخر ثم أتى وقد سبقوه ربّما يتخطّى رقابهم فيؤذيهم ، وذلك محظور ، ومن خشي ذلك فصلاته في غير الصف الأول

أولى به . ثم يلوم نفسه على تأخره حتى يسبقه الناس إلى أوائل الصفوف . وفي الحديث : « لا يزال أقوام يتأخرون حتى يؤخرهم الله » .

* * *

ومن السنن المهمة المغفول عنها : تسوية الصفوف والتراص فيها ؛ وقد كان عليه الصلاة والسلام يتولى فعل ذلك بنفسه ، ويكثر التحريض عليه والأمر به ويقول : « لَتُسَوُّنَّ صفوفكم أو ليُخالِفَنَّ الله بين قلوبكم » ، ويقول : « إني لأرى الشياطين تدخل في خلل الصفوف » ؛ يعني بها الفُرَج التي تكون فيها . فيُستحبُّ إلصاق المناكب بالمناكب مع التسوية ، بحيث لا يكون أحد متقدماً على أحد ولا متأخراً عنه فذلك هو السنة . ويتأكد الاعتناء بذلك ، والأمر به من الأئمة وهم به أولى من غيرهم من المسلمين ؛ فإنهم أعوان على البر والتقوى ، وبذلك أمروا ؛ قال تعالىٰ : ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة : ٥/ ٢] .

فعليك ـ رحمك الله تعالىٰ ـ بالمبادرة إلى الصف الأول ، وعليك برصّ الصفوف وتسويتها ما استطعت ؛ فإن هذه سنة ميتة من سنن رسول الله ﷺ ، من أحياها كان معه في الجنة . كما ورد .

* * *

واعلم أن من أهم المهمات : ملازمة الصلوات في الجماعة

كما تقدم ، وهو أعني حضور الجماعة ، وفي صلاة العشاء والصبح أشد تأكداً وأكثر فضلاً ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل . ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « فرقُ ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يستطيعون حضور العشاء والصبح في الجماعة » الحديث .

وورد أن : « من صلى العشاء في جماعة كان في ذمة الله حتى يُصبح . ومن صلى الصبح في جماعة كان في ذمة الله حتى يُمسي » . قال عليه الصلاة والسلام : « فلا يطلبنّكم الله بشيء من ذمته » ، ينهى عن التعرض لمن هو في ذمة الله بشيء من السوء .

وقد بلغنا : أن الحجاج مع جوره وظلمه وتعديه لحدود الله كان يسأل كلَّ من يُؤتى به نهاراً : هل صليت الصبح في جماعة؟ فإن قال : نعم . خلَّىٰ سبيله ، مخافة أن يطلبه الله بشيء من ذمته .

* * *

صلاة الجمعة

وإذْ قد عرفت من قبلُ ما ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام من التشديدات في ترك الجماعة من غير عذر صحيح .

فاعلم وتحقق أن المتخلف عن صلاة الجمعة بذلك الوعيد

أحق ، والتشديدُ عليه في تركها أعظم ، وذلك لأنها فرض عين بالإجماع . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « من ترك ثلاث جمع من غير عذر طبع الله على قلبه » . وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن رجل يقوم الليل ويصوم النهار ، ولكنه لا يحضر الجمعة والجماعة فقال : هو في النار .

وليس يسع مؤمناً أن يترك الجمعة من غير عذر وهو يسمع قول الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة : ٦٢/٩] . ثم إنك ترى أقواماً يدَّعون الإسلام والإيمان ، ويسمعون كلام الله تعالى ، وكلام رسوله ، يتخلَّفون عن الجمعة بغير عذرٍ ، أو بعذر فاسد لا يصح كونه عذراً عند الله وعند رسول الله ﷺ تسقط به الفرائض اللازمة . وقد أسلفنا أن العذر المرخص في ترك الجماعة هو الذي لا يمكن الحضور معه ، وإن أمكن فمبشقة شديدة لا يسهل احتمالها ، ويكاد يتعذر في العادة ، وهذا في الجمعة أولى وأولى! فلا يتخلف عنها لغير عذر صحيح إلا منافق مرتاب ، قد أخطأ الحقَّ والصواب ، وخرجت من قلبه أنوار التعظيم لله العظيم ، ولحقوق ربوبيته التي لا عِزَّ للعبد ، ولا شرف له ولا سعادة ، ولا فلاح في الدنيا والآخرة ، إلا في القيام بها ، والملازمة لها ، والمداومة عليها . بل لا نجاة ولا سلامة له من عذاب الله وسخطه إلا في القيام بها ، والمحافظة عليها . فانظر كيف

يزهد هذا العبد السوء في سعادة نفسه وفلاحها ، ثم لا يبالي بخسرانها وهلاكها حتى يترك حقوق الله ، وما أوجبه عليه من فرائضه! نسأل الله العافية والسلامة ، ونعوذ به من درك الشقاء وسوء القضاء .

ثم اعلم أن الحضور إلى الجمعة مع العذر الصحيح الذي يمكن الحضور معه أفضل ، ويدل من صاحبه على كمال التعظيم لله ولحقوقه ، وعلى تمام الرغبة فيما عند الله من ثوابه ، وشدة الرهبة من سخطه وعقابه .

* * *

واعلم ـ أسعدك الله ـ أن يوم الجمعة سيد الأيام ، وله شرف عند الله عظيم ، وفيه خلق الله آدم عليه السلام ، وفيه يقيم الساعة ، وفيه يأذن الله لأهل الجنة في زيارته . والملائكةُ تسمي يوم الجمعة : يوم المزيد ، لكثرة ما يفتح الله فيه من أبواب الرحمة ، ويُفيض من الفضل ، ويبسط من الخير .

وفي هذا اليوم ساعة شريفة يستجاب فيها الدعاء مطلقاً ، وهي مبهمة في جميع اليوم ؛ كما قاله الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ وغيره .

فعليك في هذا اليوم بملازمة الأعمال الصالحة ، والوظائف الدينية ، ولا تجعل لك شغلاً بغيرها إلا أن يكون

شغلاً ضرورياً لابد منه ؛ فإن هذا اليوم للآخرة خصوصاً ، وكفى بشغل بقية الأيام بأمر الدنيا غَبْناً وإضاعة! وكان ينبغي للمؤمن أن يجعل جميع أيامه ولياليه مستغرَقةً بالعمل لآخرته ؛ فإذا لم يتيسر له ذلك ، وعوّقته عنه أشغال دنياه فلا أقلّ له من التفرغ في هذا اليوم لأمور الآخرة .

* * *

ومن السنَّة : قراءة سورة الكهف ، والإكثار من الصلاة على النبي ﷺ في يوم الجمعة وليلتها . فعليك بذلك ، وبالبكور إلى الجمعة ، وأقل ذلك أن تروح قُبيل الزوال أو معه . وليس من السنة تأخير صلاة الجمعة حتى يمضي نصف الوقت أو نحوه ، بل السنة أن تصلَّى أول وقت الظهر كما كان عليه الصلاة والسلام يفعل ذلك .

وكن ـ رحمك الله ـ حَسَن الإصغاء والاستماع إلى الخطبة والوعظ ، واتَّعظ بما تسمعه ، واستشعر في نفسك أنك مقصود ومخاطب بذلك .

* * *

ومن البدع المنكرات : تأخُّرُ بعض أهل الأسواق والحِرَف من الذين تجب عليهم الجمعة عن المجيء إليها .

ويجب على ولاة الأمور أن يحملوهم على ذلك ، ويعاقبوا

من تخلف منهم عن الجمعة بعد التعريف والإنذار . ولا رخصة لولاة الأمور في ترك ذلك وما يجري مجراه . وما ولاًّهم الله أمر عباده إلا ليقيموا فيهم شعائر دينه ، ويحملوهم على إقامة فرائضه واجتناب محارمه . وما ترتب من المصالح الدنيوية على وجود الولاة فهو تبع لذلك ولاحقٌ به ، والله أعلم .

* * *

صلاة النفل

ومن تمام المحافظة على الصلوات : حسنُ المحافظة على رواتبها وسننها التي ندب الشارع عليه الصلاة والسلام إلى فعلها قبل الصلاة وبعدها ؛ وذلك لأن النوافل جوابر للفرائض كما ورد . فإذا وقع في الفريضة نقص واختلال بسبب قلة خشوع أو حضور قلب أو غير ذلك كانت النوافل متمِّماتٍ لذلك النقصان ، ومُصْلِحاتٍ لذلك الاختلال . ومن لم تكن له نافلة بقيت فريضته ناقصة ، وفاتَه الثواب العظيم الموعود به على فعل تلك النوافل . وقد ورد : أن أول شيء يحاسب عليه العبد الصلاة . فإذا وجدت ناقصة يقال : انظروا ، هل له من نافلة تكمل بها صلاته . وهذه الرواتب معروفة ومشهورة ، تُغني شهرتها عن ذكرها .

* * *

ومن المتأكَّد فعله والمواظبة عليه : صلاةُ الوتر ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله وتر يحب الوتر ؛ فأوتروا يا أهل القرآن » . وكل مسلم يُعدُّ من أهل القرآن لأنه مؤمن به ،

ومطالب بالعمل بما فيه . وقال عليه الصلاة والسلام : « الوتر حق ؛ فمن لم يوتر فليس منا » . وأكثرُ صلاة الوتر إحدى عشرة ركعة ، وأقلها ركعة واحدة ، ولا ينبغي الاقتصار عليها ، ولابأس بالاقتصار على ثلاث .

ومن أوتر بثلاث كان المستحب له أن يقرأ في الأولى بعد الفاتحة : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ، وفي الثانية : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ ، وفي الثالثة : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوِّذتين . ومن أوتر بأكثر من ثلاث قرأ فيما قبل الثلاث الذي يتيسر من القرآن ، وكلما طال وكثر كان أفضل ، وقرأ في الثلاث ما تقدم ذكره .

والإيتارُ من آخر الليل أفضل لمن كانت له عادة في القيام بحيث لا يفوته إلا نادراً ، ومن ليس كذلك فإيتاره قبل أن ينام خير له وأحوط ، ومهما أوتر قبل نومه ، ثم استيقظ من الليل وقصد أن يصلي فليصل ما بدا له ، ووتره الأول كافِيْهِ .

* * *

ومن السنة : المحافظة على صلاة الضحى ، وأقلها ركعتان ، وأكثرها ثمان ركعات . وقيل : اثنتا عشرة . وفضلها كبير .

ووقتها الأفضل : أن تصلَّى عند مضي قريب من ربع النهار ، قال عليه الصلاة والسلام : « يصبح على كل سُلامىٰ

من أحدكم صدقة ، وكلُّ تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمرٌ بالمعروف صدقة ، ونهيٌ عن المنكر صدقة ، ويجزىء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحىٰ » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من حافظ على شفعة الضحى غفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر » و« الشفعة » : هي الركعتان ، و« السلامىٰ » : هو المفصل ، وفي كل إنسان ثلاثمائة وستون مفصلاً بعدد أيام السنة . وتسمَّى صلاة الضحىٰ صلاة الأوابين ، كالصلاة بين العشاءين . و« الأوَّاب » : هو الرجَّاع إلى الله في أوقات الغفلة . وهذان الوقتان ـ أعني وقت صلاة الضحى ، وما بين العشاءين ـ من أوقات الغفلة .

أما الأول : فلإكباب الناس فيه على المعايش والمكاسب الدنيوية .

وأما الثاني : فلاشتغال الناس فيه بالرجوع إلى المنازل وتناول الأطعمة . فمن رجع إلى الله واستيقظ لطاعته في هذه الأوقات كان عنده بمكان .

ومن المستحب : صلاةُ التسبيح وهي أربع ركعات . وقد وردت الأخبار بفضلها ، وأن من صلاها غفر الله له ما تقدم من ذنوبه وما تأخر . وقال ﷺ لعمه العباس رضي الله عنه حين

علّمه إياها : « صلِّها في كل يوم ، أو في كل جمعة ، أو في كل شهر ، أو في كل سنة ، أو في العمر مرة » الحديث .

قال بعض العلماء - رحمة الله عليهم - : وهذه الصلاة مجرَّبة لقضاء الحوائج المهمة . وقال بعضهم : إذا صُلِّيَتْ ليلاً كان الذي ينبغي أن تُصلَّىٰ بتحرُّمين وتشهُّدين وتسليمتين : ركعتين بعد ركعتين . وإن صليت نهاراً فبتحرُّم واحد وتشهّد واحد : أربع ركعات جملةً واحدة . ولها كيفيتان :

الأولى : أن تُحْرِمَ ثم تقرأ دعاء الافتتاح ، ثم تقول : سبحان الله والحمد لله ، ولا إلـه إلا الله ، والله أكبر (خمس عشرة مرة) ، ثم تقرأ الفاتحة وسورة بعدها ، ثم تقولها (عشراً) ، ثم تركع فتقولها (عشراً) ، ثم ترفع فتقولها (عشراً) ، ثم تسجد فتقولها (عشراً) ، ثم ترفع من السجود فتقولها (عشراً) ، ثم تسجد فتقولها (عشراً) . ثم تقوم إلى الثانية فتقولها قبل القراءة (خمس عشرة) . وعلى هذا السبيل إلى آخر الصلاة .

والكيفية الثانية : مثل الأولى ، غير أنك لا تسبح بين التحرم والقراءة ، بل بعدها تسبح (خمس عشرة) ثم تركع فتقولها (عشراً) وعلى ذلك السياق في الأركان (عشراً ، عشراً) وتبقى (عشر) فتقولها بعد الرفع من السجود الثاني ، إما قبل القيام وإما بعده وقبل القراءة ؛ **فافهم** . وفي كل ركعة خمس وسبعون تسبيحة ، والجملة ثلثمائة في أربع ركعات .

قال العلماء : ويأتي بأذكار الركوع والاعتدال والسجود والجلوس قبل التسبيحات ، ومن نسي التسبيحات أو بعضها في ركن أتى بها في الذي بعده .

قلت : وينبغي للمتنسِّك أن لا يدع هذه الصلاة في كل أسبوع ، أو في كل شهر وذلك أقله . والله أعلم .

* * *

ومن المستحب المتأكد : إحياء ما بين العشاءين بصلاة وهو الأفضل ، أو تلاوة قرآن أو ذكرٍ لله تعالىٰ : من تسبيح أو تهليل أو نحو ذلك .

قال النبي عليه الصلاة والسلام : « من صلى بعد المغرب ست ركعات لا يفصل بينهن بكلام عَدَلْنَ له عبادة اثنتي عشرة سنة » . وورد أيضاً : أن من صلى بين المغرب والعشاء عشرين ركعةً بُني له بيت في الجنة .

وبالجملة : فهذا الوقت من أشرف الأوقات وأفضلها ، فتتأكد عمارته بوظائف الطاعات ومجانبة الغفلات والبطالات . وورد كراهة النوم قبل صلاة العشاء ، فاحذر منه وهو من عادة اليهود . وفي الحديث : « من نام قبل صلاة العشاء الآخرة فلا أنام الله عينه » .

* * *

وحافظ على أربع ركعات بعد صلاة العشاء ؛ فإن فيها فضلاً كثيراً لقوله عليه الصلاة والسلام : « أربع بعد العشاء كمثلهن من ليلة القدر » والركعة في ليلة القدر تعدل ثلاثين ألف ركعة في غيرها من الليالي وهذا مفهوم بالحساب من قوله تعالىٰ : ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر : ٩٧/ ٣] . فتأمله .

ويكره الحديث والكلام بعد صلاة العشاء كراهةً شديدة إلا في خير وصواب ؛ كمدارسة علم ، أو مذاكرته ، أو النظر فيه ، وما أشبه ذلك من أعمال البر .

* * *

قيام الليل

وأما قيام الليل ففضله عظيم ، وثوابه جزيل ، والوارد في فضله من الكتاب والسنة شيء كثير يطول ذكره ، ويعسر حصره ، قال الله تعالىٰ لرسوله ﷺ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾

[المزمل : ٧٣/ ١ـ٤] .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل : ٧٣/ ٢٠] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ١٧/ ٧٩] .

وقال تعالىٰ في وصف المؤمنين : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : ٣٢/ ١٦] .

وقال تعالىٰ : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٥١/١٧-١٨] . وقال ﷺ : « أفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل » . وقال عليه الصلاة والسلام : « عليكم بقيام الليل ؛ فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربةٌ لكم إلى ربكم ، ومَكْفَرة للسيئات ، ومنهاة عن الإثم ، ومطردة للداء عن الجسد » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أيها الناس ، أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصَلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » وقال عليه الصلاة والسلام : « صلِّ من الليل ولو كحلب شاة » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « شرف المؤمن قيام الليل ، وعزُّه استغناؤه عن الناس » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين . ومن قام بمائة آية كتب من القانتين . ومن قام بألف آية كتب من المقنطِرين » . وفي الحديث الآخر : القنطار اثنتا عشرة ألف أوقية ، الأوقية خير مما بين السماء والأرض .

قال العلماء : مِنْ ﴿ تَبَٰرَكَ ﴾ المُلْك إلى آخر القرآن ألف آية . وفي الحديث الصحيح : « إن في الليل لساعةً لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه » وذلك كل ليلة . فلو لم يَرِد في فضل الليل وفضل قيامه سوى هذا الحديث لكفى . وقال عليه الصلاة والسلام : « ينزل ربنا إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : هل من

داع فأَسْتَجيبَ له ، هل من سائل فأُعطيَهُ ، هل من مستغفر فأغفِرَ له » .

فتأمل ـ رحمك الله ـ هذا الحديث والذي قبله ، وأَكثِر النظر فيهما لعله ينشرح صدرك لقيام الليل ويكمل نشاطك ، وتصدق رغبتك فيه ، وينتفي عنك الكسل والغفلة ، والإكثار من النوم الذي فيه ذهاب بركة العمر وضياعُ الوقت . وقد ورد في بعض الآثار : أن من يكثر النوم بالليل يأتي فقيراً يوم القيامة . وورد : أن ركعتين في جوف الليل كنز من كنوز البر . وقال عليه الصلاة والسلام : « أقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل ؛ فإن استطعت أن تكون مصلياً في ذلك الوقت فكن » . وقال عليه الصلاة والسلام : « يحشر الناس في صعيد واحد فينادي مناد : أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون وهم قليل ، فيدخلون الجنة بغير حساب . . » الحديث .

واعلم أن قيام الليل من أثقل شيء على النفس ولاسيما بعد النوم ، وإنما يصير خفيفاً بالاعتياد والمداومة ، والصبر على المشقة ، والمجاهدة في أول الأمر ، ثم بعد ذلك ينفتح باب الأنس بالله تعالىٰ وحلاوة المناجاة له ، ولذة الخلوة به عز وجل ؛ وعند ذلك لا يشبع الإنسان من القيام ، فضلاً عن أن يستثقله أو يكسل عنه ؛ كما وقع ذلك للصالحين من عباد الله حتى قال قائلهم : إن كان أهل الجنة في مثل ما نحن فيه بالليل إنهم لفي عيش طيب .

وقال آخر : منذ أربعين سنة ما غمني شيء إلا طلوع الفجر .

وقال آخر : أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم .

وقال آخر : لولا قيام الليل وملاقاة الإخوان في الله ما أحببت البقاء في الدنيا .

وأخبارهم في ذلك كثيرة مشهورة . وقد صلى خلائق منهم الفجر بوضوء العشاء رضي الله عنهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٦/ ٩٠] .

فعليـك ـ رحمـك الله ـ بقيـام الليـل وبـالمحـافظـة عليـه وبالاستكثار منه ، وكن من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً .

واتصف ببقية أوصافهم التي وصفهم الله بها في هذه الآيات إلى آخرها . وإن عجزت عن الكثير من القيام بالليل فلا تعجز عن القليل منه ؛ قال تعالىٰ : ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [المزمل : ٧٣/ ٢٠] ؛ أي : فـي القيـام مـن الليـل . وقـال عليـه الصـلاة والسلام : « عليكم بقيام الليل ولو ركعة » .

وما أحسن وأجمل بالذي يقرأ القرآن الكريم بالغيب أن يقرأ كل ليلة في قيامه بالليل شيئاً منه ، ويقرؤه على التدريج من أول القرآن إلى آخره ، حتى تكون له في قيام الليل ختمة ، إما في

كل شهر أو في كل أربعين ، أو أقل من ذلك أو أكثر ؛ على حسب النشاط والهمة .

* * *

واعلم أن القليل الدائم خير من الكثير المنقطع ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » . وليتخذ هذا القارىء المذكور ورداً لازماً يواظب عليه ، ويقضيه إذا فاته ، حتى تعتاد النفس المواظبة وتتمرن على المداومة ، ولا يفوِّته إلا لعذر . وقد ورد : أن من نام عن حزبه من القرآن ، أو عن شيء منه فقرأه فيما بين الصبح والظهر كُتب له كأنما قرأه من الليل . وكان عليه الصلاة والسلام إذا منعه من قيامه بالليل عذر من مرض أو غيره يصليه بالنهار .

* * *

ترك الصلاة

ثم اعلم أن من أنكر المنكرات ، وأكبر الكبائر ، وأفحش المحرمات : ترك بعض المسلمين للصلوات المكتوبات ، وقد ورد عن رسول الله ﷺ الأحاديث الصحيحة الكثيرة بكفر تارك الصلاة .

وقال عليه الصلاة والسلام : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر جهاراً » .

وفي الحديث الآخر : « من ترك الصلاة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من حافظ على الصلاة كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة . ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع فرعون وقارون وهامان وأُبي بن خلف » .

فقد وقع التصريح من رسول الله ﷺ بكفر تارك الصلاة . وكذلك ورد عن الصحابة والسلف الصالح حتى قال بعضهم : ما سمعت أصحاب رسول الله ﷺ يقولون في شيء من الأعمال : إنَّ تركه كفر إلا الصلاة ، فإياك ثم إياك وترك الصلاة أو ترك شيء منها! فإن فعلت ذلك فقد هلكت مع الهالكين ، وخسرت الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين .

* * *

وكما يجب عليك أن تحافظ على الصلاة ، ويحرم عليك أن تضيِّعها ، كذلك : يجب عليك أن تشدد على أهلك وأولادك وكل من لك عليه ولاية في إقامة الصلاة ، ولا تدع لهم عذراً في تركها ، ومن لم يسمع منهم ويطع فهدده وعاقبه ، واغضب عليه أشد وأعظم مما تغضب عليه لو أتلف مالك ، فإن لم تفعل ذلك كنت من المستهينين بحقوق الله تعالى وبدينه ، ومن عاقبتَه وغضبتَ عليه ، ولم يمتثل وينزجر فأبعده عنك ، واطرده منك فإنه شيطان لا خير فيه ولا بركة ، تحرم موالاته ومعاشرته ، وتجب معاداته ومقاطعته ، وهو من المحادين لله

ورسوله ، قال تعالىٰ : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة : ٥٨/ ٢٢] .

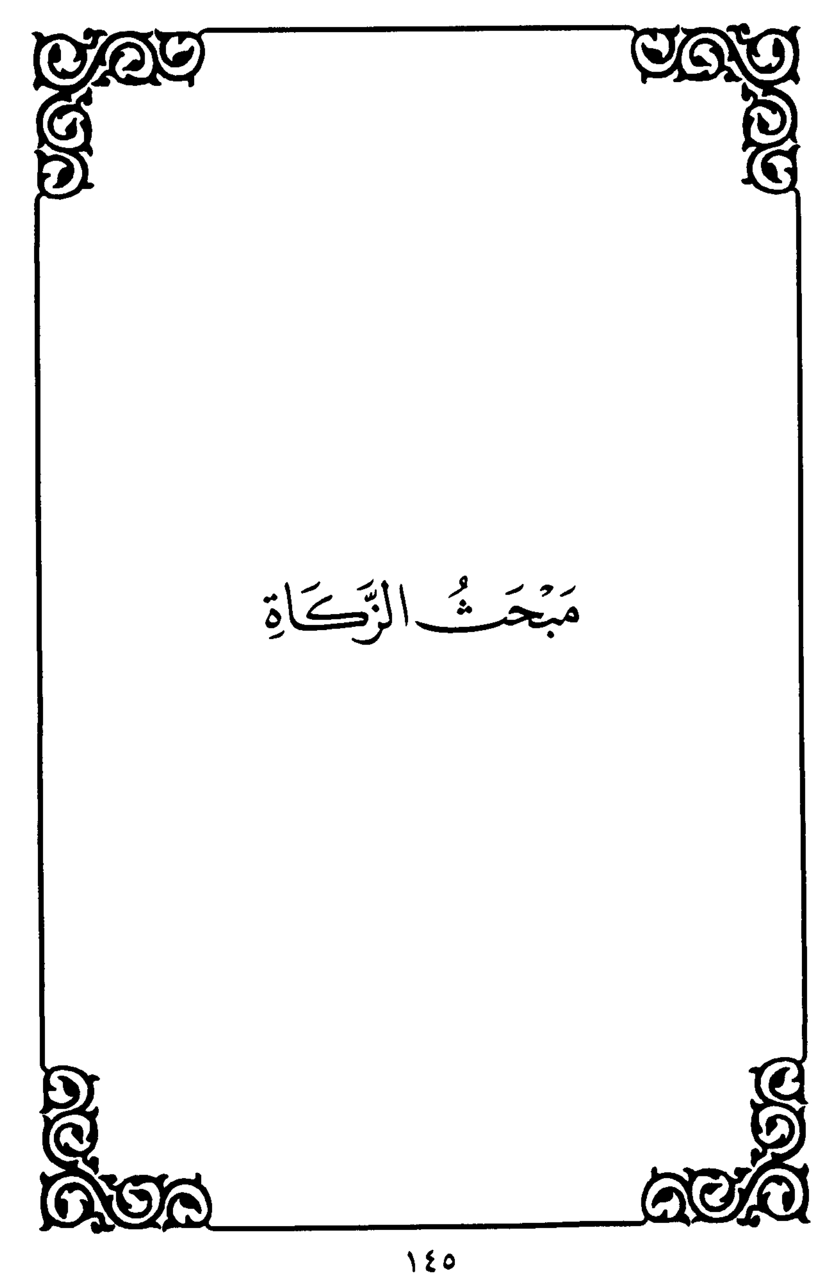
فنفى الإيمان عن الموادِّين للمحادِّين له ولرسوله وإن كانوا من أقرب الأقربين .

وغاية ما يسمح به للعامي الغافل المستغرق مهما فاتته الصلاة : أن يقضيها مع التوبة عن العود إلى مثل ذلك : فأما الإضاعة فلا! كيف وعليه في إخراج الصلاة عن وقتها إثم عظيم وإن بادر بقضائها . وليس بعذرِ الاشتغالُ بالدنيا ولا بغيرها عن الصلاة حتى تفوت . ولا عذر إلا النوم أو النسيان فقط .

* * *

وعلى ولاة الأمور أن يحملوا العامة على فعل الصلاة المكتوبة . وعليهم أن يعاقبوا من تركها كسلاً بالقتل ، وذلك بعد الاستتابة إن لم يتب .

وعلى الولاة إثم عظيم وحرج ، إذا سكتوا عن ذلك مع العلم وقصروا في القيام به . ولا رخصة لهم في ترك ذلك وما يجري مجراه من أمور الدين . والحمد لله رب العالمين .



مَبْحَثُ الزَّكَاةِ

واعلموا معاشر الإخوان ـ جعلنا الله وإياكم ممن تزكى وذكر اسم ربه فصلى ولم يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة ، التي هي خير وأبقى ـ أن الزكاة أحد مباني الإسلام الخمس ، وقد جمع الله تعالى بينها وبين الصلاة في كتابه العزيز فقال عزَّ من قائل : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢/ ١١٠] .

وقال تعالىٰ في وصف عباده المؤمنين : ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾

[الأنفال : ٨/ ٣ـ٤] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩/ ٧١] . إلى غير ذلك من الآيات .

وقال رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليؤدِّ زكاة ماله » . فأَفْهَمَ عليه الصلاة والسلام أن من لم يؤد الزكاة فليس بمؤمن .

واعلم أن من صلّى وصام وحجّ ولم يُزَكِّ ماله لم يقبل الله له صلاةً ولا صياماً ولا حجاً حتى يُخرج الزكاة . وذلك لأن هذه الأشياء مرتبط بعضُها ببعض ، لا يقبل الله من عاملٍ العمل ببعضها حتى يعمل بها كلها ، كما ورد ذلك عن الرسول عليه الصلاة والسلام .

* * *

واعلم أن الزكاة لا تجب إلا في مال مخصوص : وهو النصاب من الذهب والفضة ، وأموال التجارة ، والحبوب والثمار ، والأنعام . وكذلك لا تجب إلا في وقت مخصوص : وهو الحول في النقود والتجارات والأنعام ، وعند الحصاد في الزرع والثمار . والواجب قدر مخصوص . وهو ربع العُشر من النقد والتجارة ، والعشر من الحبوب والثمار التي تُسقى بغير مؤونة ، ونصف العُشر في التي تُسقى بالمؤونة . وأما النَّعمُ : وهي الإبل والبقر والغنم فيطول النظر فيها ، وتفصيل ذلك في كتب الفقه فيجب على صاحب المال أن يتعلم من علوم الزكاة ما يجب عليه علمه : من معرفة النصاب ، والقدر الذي يُخرجه ، والمستحقين الذين يجب عليه صرف الزكاة إليهم وما في معنى ذلك .

* * *

وللمزكي في إخراج الزكاة ثواب عظيم وأجر كريم ، وله فيه منافع وفوائد دينية ودنيوية . وفي المال بلايا وفتن وآفات يسلم منها المحافظ على إخراج الزكاة إن شاء الله تعالىٰ ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « إذا أدّيت زكاة مالك طيبةً بها نفسك فقد أذهبت عنك شرَّه » وكذلك لا يعرض للمال المزكَّىٰ شيء من المتالف والمهالك ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « ما هلك مالٌ في بحر ولا بر إلا بحبس الزكاة » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « حصنوا أموالكم بالزكاة . وداوُوا مرضاكم بالصدقة » .

فالمال المزكَّىٰ محصَّنٌ ومحفوظ في حِرز الله ؛ لأنه طيب مبارك . والمال الذي ليس بمزكًّىٰ ضائع ، لأنه خبيث وغير مبارك . وقال عليه الصلاة والسلام : « ما خالطت الزكاة مالاً إلا محقته » .

وأي خير! وأي نفع! في المال الممحوق الذي قد مُحقت بركته وبقي شره وفتنته ، والمحق منه ظاهر ، وهو ذهاب صورة المال ورجوع الإنسان بعد الاستغناء فقيراً هلوعاً جزوعاً ، متبرِّماً بقضاء الله . وقد وقع ذلك لخلق كثير من المتساهلين بأمر الزكاة . ومن المحق : محقٌ باطنٌ وهو أن يكون المال في الصورة موجوداً وكثيراً ، ولكن لا ينتفع به صاحبُه ، لا في دينه بالإنفاق وبذل المعروف ، ولا في نفسه ومروءته بالستر والصيانة ، ومع ذلك يتضرر به تضرراً كثيراً

بإمساكه عن حقه ، ووضعه في غير وجهه : إما بإنفاقه في المعاصي والعياذ بالله ، وإما في الشهوات البهيمية التي لا نفع فيها ولا حاصل لها .

منع الزكاة

وأما منع الزكاة فهو من أكبر الكبائر . وقد وردت فيه عن الله ورسوله تشديداتٌ هائلةٌ ، وتهديداتٌ عظيمة . ويُخشىٰ على مانع الزكاة من سوء الخاتمة ، والخروج من الدنيا على غير ملة الإسلام .

وقد يعاقب قبل الموت كما وقع ذلك لقارون من بني إسرائيل حين منع الزكاة ، قال تعالىٰ : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [القصص : ٢٨/ ٨١] . وقد ورد أن المال الذي لا يزكّىٰ يتمثّل لصاحبه في موقف القيامة حيّة عظيمة فيطوّق بها عنقه ؛ قال تعالىٰ : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٨٠] . وقال عليه الصلاة والسلام : « ما من صاحب ذهبٍ ولا فضةٍ لا يؤدي منها حقَّها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائحُ فأُحمي عليها في نار جهنم فيُكوىٰ بها جبينُه وجَنبُه وظهره ، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنةٍ » الحديث بطوله .

وفيه أن صاحب الماشية التي لا يُخرج زكاتها تأتيه يوم القيامة أوفر ما كانت ، فتطؤه بأخفافها وأظلافها ، وتعضُّه بأفواهها وتنطحه بقرونها .

آداب المزكِّي

ومن آداب المزكي التي تتأكد عليه : أن يكون طيّب النفس بإخراج الزكاة ، فرِحاً مسروراً ، مستبشراً مُمتناً للمستَحِق بقبول زكاته منه ، غير مانّ عليه بها ، فإن المنّ بالصدقة محبطٌ لثوابها ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة : ٢/ ٢٦٤] . ولا ينبغي للمزكِّي أن يكون كارهاً لإخراج الزكاة ، وليحذر من ذلك فإنه من صفات المنافقين . قال الله تعالىٰ : ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة : ٩/ ٥٤] . وأراد بالإنفاق ههنا : إخراج الزكاة . وعرَّف سبحانه أن المنافق قد يصلي ولكن مع الكسل ، وقد يزكِّي ولكن مع الكراهية ؛ ومن تشبه بقوم فهو منهم .

ومن آدابه : أن يخرج الزكاة من أجود ماله ، وذلك أفضل ، والواجب الإخراج من الوسط ، وأما إخراج الرديء فغير جائز إلا أن يكون المال كله كذلك ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة : ٢/ ٢٦٧] .

ومن الواجب على مُخرِج الزكاة : أن لا يفرِّقها على مقتضى هوى نفسه ، بل على موافقة الكتاب والسنة . ومن التفريق على مقتضى الهوى : أن يخص بزكاته أو بشيء منها من المستحِقِّين من تحصل له منه منفعة دنيوية ، من خدمة ونحوها ، فإذا أعطاه لأنه يخدمه أو يختلف إليه ، أو يعظمه

كان بذلك مسيئاً ؛ وربما لا تقبل منه زكاته . وإن كان الذي أعطاه مع ذلك مستحقاً ، فأما إذا أعطاه لكونه من أهل الزكاة فقط ، ولم يبال مع ذلك أكان ينفعه ، ويعرفه أم لا ، فلا يضر ذلك . وإن كانت له فيه منفعة وبه حاجة ـ أعني : المستحق ـ نبهنا على ذلك لتساهل بعض الأغنياء فيه وقلة تمييزهم له .

ومن المشكل أن يعطي الغنيُّ الفقير شيئاً من الزكاة ويريه في الظاهر أن ذلك صلة له أو هدية أو نحو ذلك . وكذلك من يُعطي زكاته لأقاربه المحتاجين الذين تجب لهم عليه النفقة ، مثل الوالدين والأولاد ، وأما بقية الأقارب الفقراء الذين لا تجب عليه نفقتهم فيجوز له إعطاؤهم زكاته ، وهي عليهم أفضل منها على غيرهم ، لمكان القرابة ، واستشراف نفوسهم إليها منه .

* * *

زكاة الفطر

وأما زكاة الفطر فتجب في كل شهر رمضان على كل كبير وصغير ، وحرّ وعبد من المسلمين القادرين عليها . ومن وجبت عليه النفقة لأحد وجبت عليه فطرته . والفطرة أربعة أمداد بمُدِّه عليه الصلاة والسلام من التمر أو البُر أو الذرة أو الشعير ، أو من أي قوت يقتاته الناس في حال الاختيار .

والإخراج من النوع الذي يقتاته المخرج أو مِن أحسنَ منه أحسنُ وأفضل .

وفي زكاة الفطر تضييقٌ يَغفُلُ عنه كثير من عامة المسلمين فيقصِّرون عن الإخراج ، ويرون أنهم غيرُ قادرين عليه وهم من القادرين .

قال العلماء ـ رحمهم الله ـ : يباع من المتاع في زكاة الفطر ما زاد على قوت ليلة العيد ويومها ، وعلى ما لا بد منه من الكسوة والمسكن ونحوهما . وفي ذلك نهاية التضييق ، وبه جاءت الشريعة فليحذر المسلم من ترك الإخراج مع الاستطاعة .

* * *

ثم اعلم أنه متى طلب السلطان العادل أن تُحمَل الزكاة إليه وجب ذلك ، وبرئت ذمة المزكِّي بدفعها إليه . وكانت العهدة على السلطان في التفريق . وكذلك إذا طلبها السلطان الذي ليس بعادل ، وذلك لخوف الفتنة وافتراق الكلمة . ثم إن فرَّق الزكاة على الذين كتبها الله لهم وهم الموجودون من الأصناف الثمانية أثابه الله ثواباً عظيماً ، وأثاب أهل الزكاة كذلك . وإن فرقها على غير من أمر الله بتفريق الزكاة عليهم في كتابه وهم المذكورون في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩/٦٠] . فقد أثم إثماً عظيماً وظلم ظلماً

فاحشاً ، وصار ظالماً للأغنياء بوضعه زكواتهم في غير مواضعها ، وظالماً للفقراء بمنعه إياهم حقوقَهم التي كتبها الله لهم في أموال الأغنياء من عباده . وإنما فرض الله الزكاة لتكون طُهرة للغني ، وقِواماً للفقير ، وبلاغاً له ، فمن عمل فيها على خلاف ذلك فقد احتمل بهتاناً وإثماً عظيماً .

وإذا أخذ الزكاة السلطانُ الظالم ووضعها في غير موضعها ، وسمحت نفس المزكي بتفريق زكاة ثانية على المستحقين كان ذلك أحوط له وأفضل ؛ وليس ذلك بواجب .

وإذا أمكن المزكي أن يمنع زكاته أو شيئاً منها عن أخذ السلطان الظالم لها جاز ذلك ، ولكن بشرط أن لا تترتب على المنع فتنة ، ولا معصية لله : من كذب صريح ، أو يمين فاجرة أو نحو ذلك ، ويكون نيته في المنع تخليص السلطان من الإثم الذي يكون عليه في وضع الزكاة في غير موضعها ، وإعانة الفقراء على إقامة دينهم بإعطائهم ما فرض الله لهم عليه في ماله . وبالله التوفيق .

صدقة التطوع

وأما صدقة التطوع والإنفاق في وجوه البر والخير ابتغاء مرضاة الله وثوابه ، فقد ورد في فضل ذلك من الآيات والأخبار ما يطول ذكره ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢/ ٢٧٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢/ ٢٧٤] .

وقال تعالىٰ : ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد : ٥٧/ ٧] .

وقال تعالىٰ : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد : ٥٧/ ١١] .

فاستشعر في نفسك هذا الأجر الذي سماه الله كبيراً وكريماً ، أيُّ أجرٍ هو! وكذلك المضاعفة التي لم يحصرها الله بعدد في قوله : ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ [الحديد: ٥٧/ ١١] . وفي الآية الأخرى : ﴿ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢/ ٢٤٥] .

فأطلق الكثرة ولم يجعلها إلى حد .

فأي ترغيب من الله الجواد الكريم يزيد على هذا الترغيب .

فأفٍّ لمن لا يعقل عن الله ، ولا يفهم في آياته حتى غلب عليه البخل بماله ، واستولى عليه الشح بما عنده من فضل الله . حتى ربما ينتهي به ذلك إلى منع الحقوق الواجبة ، فضلاً عن التطوع بالصدقات . فلو كان هذا فقيراً لا يملك قليلاً ولا كثيراً كان ذلك أجمل به وأحسن له .

وقال عليه الصلاة والسلام في فضل التصدق والإنفاق ، عن الله تعالىٰ : « ابنَ آدم أَنْفِقْ أُنفِقْ عليك » . وقال عليه

الصلاة والسلام : « ما طلعت الشمس إلا وعلى جنبيها ملكان يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً . ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » .

قلت : ودعاء الملائكة مستجاب .

ومن أمسك فلم يتلف ماله التلف الظاهر فهو تالف بالحقيقة ؛ لقلة انتفاعه به في آخرته ودنياه ؛ وذلك أعظم من التلف الذي هو ذهاب المال .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من تصدَّق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا طيباً ، فإن الله يأخذها بيمينه فيربِّيها له ، كما يربي أحدكم فِلْوه[1] حتى تكون مثل الجبل » ، وكذلك ورد في الكسرة واللقمة من الخبز الطيب وهو الحلال ، ولا يقبل الله غيره .

وقال عليه الصلاة والسلام : « يا ابن آدم ، إنك إن تَبْذُلِ الفضل خير لك ، وإن تُمْسِكْه شر لك ، ولا تُلامُ على كفاف ، وابدأ بمن تعول . واليد العليا خير من اليد السفلىٰ » .

قلت : أراد عليه الصلاة والسلام ببذل الفضل : الفضل من المال . وبالكفاف قدر الحاجة من المال . وبمن تعول : الذين تجب عليك نفقتهم ، ولا يجوز أن تضيّعهم ولا تنفق عليهم ،

---

(١) الفِلْو ـ بالكسر ـ وكعَدْو ـ وسُمُوّ ـ : المهر يفصل عن أمه .

وتتصدّق على الغير وهم محتاجون . وباليد العليا : يد المعطي . وذكر خيريتها على يد الآخذ ترغيباً منه عليه الصلاة والسلام في الاستغناء عن الناس ، والتصوُّن عن مسألتهم . والحاجة إليهم حسب الاستطاعة . وأما إذا مست الضرورة فللآخذ ثوابٌ كالمعطي ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « ما الذي يأخذ عن حاجة بأقل ثواباً من الذي يعطي من سعة » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط ، وأجوع ما كانوا قط ، وأعطش ما كانوا قط ، وأنصب ما كانوا قط ، فمن كسا لله كساه الله ، ومن أطعم لله أطعمه الله ، ومن سقى لله سقاه الله » الحديث ، وأراد بقوله : « لله » أن يفعل ذلك مخلصاً لوجه الله ، من غير رياء ولا تصنُّع للناس ولا طلب محمدة منهم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أطعم أخاه حتى يُشبعه ، وسقاه حتى يُرويه ، باعده الله من النار سبعة خنادق ، ما بين كل خندقين خمسمائة عام » .

وقد ورد في فضل إطعام الطعام وسقي الماء أخبار كثيرة ، فعليك بهما ، واجتهد في ذلك ولا تعجز .

* * *

آداب التصدق

واعلم أن القليل عند الله كثير . وكل معروف صدقة ، ولا تستحقر شيئاً تفعله من الخير ، استحقاراً يمنعك من فعله ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « لا تحقرَنَّ من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طِلق ، وتصدق كل يوم بشيء وإن قل ، واجعله من أول النهار ؛ فإن البلاء لا يتخطى الصدقة » كما ورد . ومعناه : أن الصدقة تكون حاجزاً بينك وبين ما يقصدك من البلايا .

* * *

وإذا وقف السائل عليك فلا تردَّه خائباً ولو بشيء يسير ، فإن لم تفعل أو لم تستطع فإياك أن تنهره أو تشتمه ، واصرفه عنك برفق ووجه طلق ، فإن الإنسان قد ينهر السائل نهرة لو أعطاه معها نصف ماله مثلاً كانت تلك النهرة أرجح منه ، وربما لا يساوي ثواب ما أعطاه إثم ذلك الانتهار .

ولا ترد أول سائل يسألك ، واحذر من ذلك .

* * *

وإذا تصدقت فابدأ بأقاربك وأرحامك الفقراء ، وجيرانك المحتاجين فإنهم أولى به من غيرهم . والثوابُ في الصدقة عليهم أكثرُ وأعظم ، قال النبي ﷺ : « الصدقة على الأقارب صدقة وصلة » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « المتعدي في الصدقة

كمانعها » ، ومن التعدي : أن تعطي صدقاتك للأجانب والأباعد ، وأنت تعلم أن أقاربك وجيرانك أحوجُ إليها .

* * *

وعليك **بصدقة السِّر** ؛ فقد ورد : أن ثوابها يضاعف على ثواب الصدقة الظاهرة سبعين ضِعفاً . وقال عليه الصلاة والسلام : « صدقة السر تطفيء غضب الرب » . وأيّ شيء أعظم من غضبه سبحانه وتعالىٰ ؛ وما أطفأته صدقة السر إلا لعظمها عنده سبحانه وتعالىٰ ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

[البقرة : ٢/ ٢٧١] .

وإنما فُضِّلت صدقة السر لأنها أقرب إلى الإخلاص الذي هو روح الأعمال ، ولأنها أبعد من الرياء المفسد للأعمال ؛ فإياك والرياء في صدقتك ، أو في شيء من أعمالك . وإياك والمنَّ بالصدقة على الفقراء! فقد ورد فيه وعيد شديد .

* * *

ولا تطلب ممن تتصدق عليه مكافأة على الصدقة بنفع منه لك ، أو خدمة ، أو تعظيم ؛ فإن طلبت شيئاً من ذلك على صدقتك كان هو حظَّك ونصيبك منها .

وقد كان السلف الصالح يكافئون الفقير على دعائه لهم عند التصدُّق عليه بمثل دعائه ؛ مخافة نقصان الثواب ، وذلك غاية الاحتياط .

وكذلك لا تطلب من الفقير شكراً ولا مدحاً ، ولا أن يذكر للناس الذي أعطيته فينقص بذلك أجرك ، أو يذهب رأساً .

ولا تترك الصدقة مخافة الفقر أو نقصان المال ؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام : « ما نقص مال من صدقة » . والتصدق هو الذي يجلب الغنى والسعة ، ويدفع القِلّة والعَيلة . وتركُ التصدق على الضد من ذلك : يجلب الفقر ، ويُذْهِب الغنى ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ : ٣٤/٣٩] .

واعلم أن التصدق بالقليل من المُقِلّ أفضلُ عند الله من التصدق بالكثير من المكثر ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « سبق درهم ألف درهم . قيل له : وكيف ذلك؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « رجل لا يملك إلا درهمين تصدق بأحدهما ، ورجل تصدق من عَرَض ماله بألف درهم فسبق الدرهمُ الألفَ » أو كما قال عليه الصلاة والسلام ؛ فصار الدرهم الواحد من المُقِل أفضل من الألف من المكثر وهو صاحب المال الكثير .

* * *

ومن المذموم المحظور : تعيير الفقراء بفقرهم ، واستحقارُهم لأجله ـ وهو شعار الأنبياء ، وحليةُ الأصفياء ـ والتكبُّر عليهم ، والاستهانة بهم ، والاستخفافُ بحقهم ، وتقديم الأغنياء لأجل الدنيا عليهم . فكل ذلك من الجرائم المحظورة فاحذر منه . وعظِّم الناس على قدر تعظيمهم لله ولرسوله ، وإقامتهم لدينه ، ومعرفتهم بحقه ، إن كانوا مع ذلك فقراء أو أغنياء .

نعم ، للفقراء عند الاستواء مع الأغنياء في الديانة ، زيادةٌ لفقرهم ، وانكسار قلوبهم ، وقلَّةِ احتفال أكثر الناس بهم . بخلاف الأغنياء ؛ فإن نفوس الغافلين ، وهم أكثر الناس ، من شأنهم تعظيم الأغنياء لعظمة الدنيا التي بأيديهم في نفوس أهل الغفلة .

* * *

وعليك بالتصدق والإنفاق مما تحب لتنال البر ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ٣/ ٩٢] . قال المفسرون : البر هٰهنا : هو الجنة . وعليك بالإيثار على نفسك . ومعنى الإيثار : أن يكون عندك شيء من الدنيا وتكون محتاجاً إليه ؛ فتؤثر به على نفسك مُحتاجاً من إخوانك المؤمنين فتكون بذلك من المفلحين ، والمفلحون هم الفائزون ـ قال الله تعالىٰ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ

ـ أي حاجة ـ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

[الحشر : ٥٩/٩] .

واستبشر بالسائل إذا وقف على بابك ؛ فإنه هدية الله تعالى إليك ، وله حق وإن جاء على فرس كما ورد . وأقلُّ ذلك الردُّ الجميل .

وباشر إعطاء السائل بنفسك ولو في بعض الأوقات ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يناول السائل بيده الكريمة . وذلك لأن الله تعالىٰ يأخذ الصدقات بيده المقدسة من يد المتصدق فتقع في يده سبحانه قبل أن تقع في يد السائل كما جاء في الخبر ، وكما قال الله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

[التوبة : ١٠٤] .

آداب الفقير

وينبغي لمن كان فقيراً أن يصبر على فقره ، ويقنع بما قسم الله له ، ويرضى عن الله فيما قضى له به من الفقر . وليحذر أن يكون جزوعاً هلوعاً ، متسخّطاً ، قال عليه الصلاة والسلام : « يا معاشر الفقراء ، أعطُوا الله من قلوبكم الرضا ، تظفروا بثواب فقركم » وإلا فلا . وقال عليه الصلاة والسلام : « الفقراء الصُّبُرُ جلساء الله يوم القيامة » وقال عليه الصلاة والسلام : « كاد الفقر أن يكون كفراً » .

قلت : هذا إذا كان الفقير متسخِّطاً لقضاء ربه ، وغير قانع

بقسمته ، وربما يقع مع ذلك في بليَّة الاعتراض على الله تعالىٰ في تفضيله بعض عباده على بعض في الرزق . ومن مثل هذا يُخشىٰ على الفقير الذي لا صبر له ، ولا معرفة بالله عنده .

وكذلك ينبغي للفقير أن يكون شاكراً لله ، ولمن أسدى إليه معروفاً من عباد الله ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » ويكون أيضاً مُثنياً على أهل المعروف ، وداعياً لهم بالخير ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « من قال لمن أسدى إليه معروفاً : جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء » .

ولا ينبغي للفقير أن يذُمَّ ويغتاب من لم يُعطه شيئاً ؛ فإن ذلك مذموم جداً ؛ والمعطي والمانع بالحقيقة إنما هو الله تعالىٰ ، والخلق مسخَّرون تحت مشيئته ، يصرّفهم كيف يشاء .

وليحذر الفقير من كثرة التشوف إلى الناس والتعلق بهم والطمع فيهم ، فإن الطمع فقر حاضر ؛ والمتشوِّف والمتعلّق بغير الله خائب وخاسر .

وليكن متعففاً ومستغنياً بالله ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « من يستعفف يُعفَّه الله . ومن يستغن يُغنِهِ الله » فوعدَه عليه الصلاة والسلام بالعفاف والغنى إذا تعفَّف واستغنى ، ووَعْدُ الله ورسوله حقٌّ لا شك فيه .

وليحذر الفقير من قوله : أعطاني فلان كذا وهو كاذب ؛

يريد بذلك التلبيس على السامع لعلّه يُعطيه . ومن قوله : لم يعطني فلان شيئاً إذا سُئل وقد أعطاه ؛ مخافة أن لا يعطيه الآخر .

وليحذر من كتمانه ما أعطاه الله من فضله ، ومن كثرة الشكوى إلى الناس ، ومن إظهار حاجته لكل واحد ؛ وقد يفعل ذلك بعض الفقراء ويتوهم أن من سمع ذلك منه أعطاه . وربما فعل ذلك كاذباً فيأثم على الكذب ، وعلى أخذه ما يُعطاه على التلبيس . وهذه الأشياء وما في معناها قد يبتلى بها كثير من الفقراء الذين يقل علمهم ، ويكثر في الناس طمعهم .

* * *

وأما المسألة للناس فهي مذمومة جداً إلا عند الحاجة الشديدة ، وهي ـ أعني : المسألة ـ من الفواحش ، ولم يحلّ من الفواحش غيرُها كما ورد . وقد قال رسول الله ﷺ : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مُزْعة لحم » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تحل المسألة لغنيّ ولا لذي مِرّة سويّ » ؛ والمرّة : هي القوة . ومعنى الحديث : أن من كان غنيّاً عن المسألة بمال أو قريب يُنفِق عليه ، أو كان قوياً يقدر على الكسب والحرفة ثم يسأل ؛ فإنه يأثم ، وتحرم عليه المسألة . وأما الذي يُعطيه فلا يأثم بل يؤجر على العطاء ولا

يأثم أحد على العطاء ، حتى يُعطي من يعلم أنه يستعين بما يعطاه على معاصي الله فاعلم ذلك .

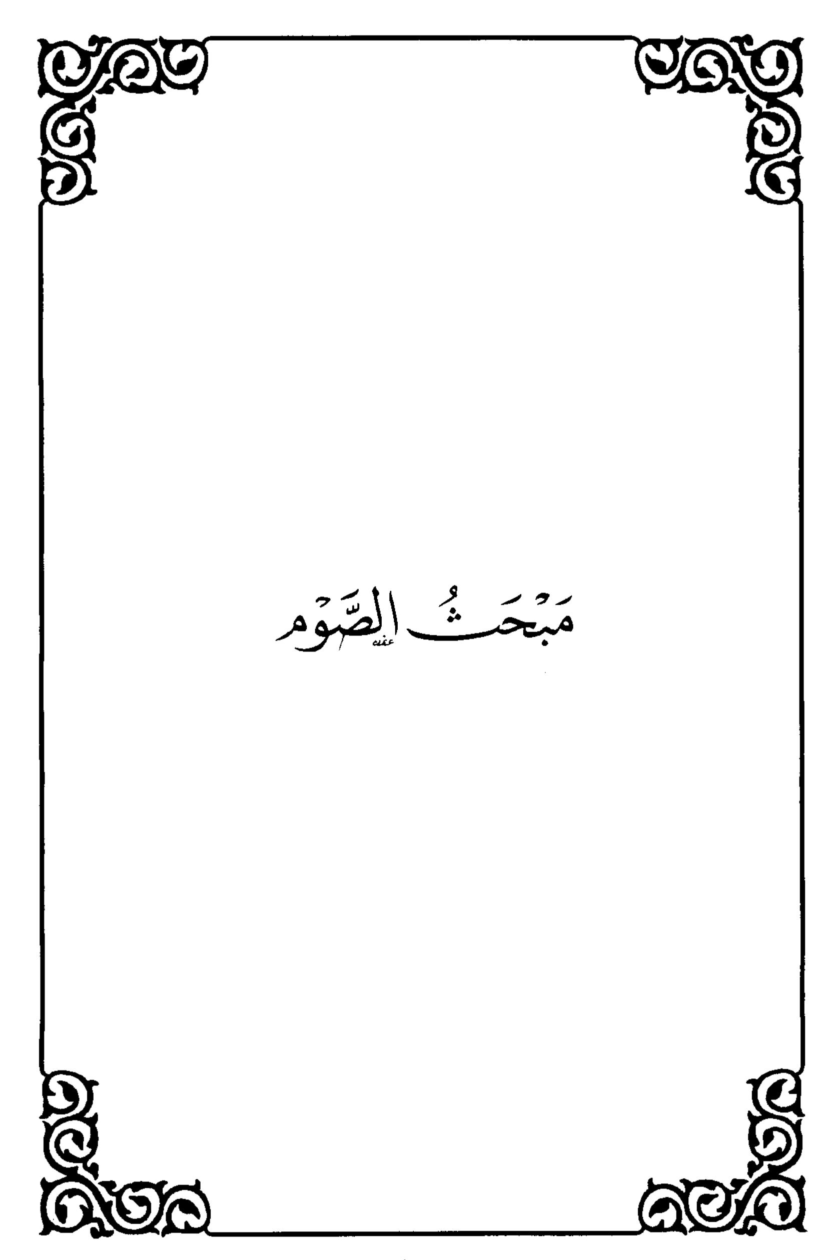
واحذر رحمك الله ، وحذِّر إخوانك المسلمين من مسألة الناس عند الغنى عنها وفقد الحاجة الشديدة إليها ، قال عليه الصلاة والسلام : « لو تعلمون ما في المسألة ما مشى أحد إلى أحد يسأله » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « مسألة الغنيِّ نار ، إنْ قليلاً فقليل ، وإنْ كثيراً فكثير » .

قلت : وليس المراد بالغني ههنا من له مال كثير ، بل المراد ههنا هو الغني عن المسألة بكسب أو بشيء يكفيه في وقته وإن قل ؛ فإن اضطررت إلى المسألة فاسأل ولا تُلْحِف ولا تُلح ، وليكن قلبك متعلّقاً بالله وسائلاً منه وإذا أُعِطيت ما يكفيك في الحال الحاضر فأمسك عن المسألة ، واشكر من أحسن إليك ، واعذر من لم يعطك شيئاً فإنه لا رزق لك عنده ، ولو كان ، لم يقدر على حبسه عنك . ولا تسأل الإنسان وهو بين الناس على قصد أن يُعطيك حياءً منهم ، فإن فعلت ذلك وأعطاك من الحياء ، ولو سألته وهو وحده لم يعطك شيئاً ، فقد قال الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ : ما يؤخذ بالحياء على هذا الوجه لا يحلّ للآخذ في الباطن وإن حلّ له في الظاهر . انتهى بمعناه .

وأما إذا أُعطيت شيئاً من الدنيا من غير مسأَلة ولا استشراف نفس فخذه ولا ترده ، خصوصاً إذا كنت محتاجاً إليه . ولك أن

تردّه إذا علمت أن في الرد صلاحاً لدينك أو قلبك . فأما إذا رددت لأجل الجاه وانتشار الصيت وأن يقال : إن فلاناً لا يقبل الدنيا ؛ فقد وقعت في الحرج فاحذر من ذلك ولا تقبل الحرام ، ولا ما فيه شبهةٌ ظاهرة وإن جاءك بدون مسألة ، فاعلم هذه الجملة راشداً وبالله التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

* * *



مَبْحَثُ الصَّوْم

واعلموا معاشر الإخوان ـ يسَّرنا الله وإياكم لليُسرى ، وجنَّبنا العُسرى ، وغفر لنا في الآخرة والأولى ـ : أن شهر رمضان شهر عظيم القدر والمنزلة عند الله وعند رسوله ، وهو سيد الشهور . فرض الله صيامه على المسلمين وكتبه عليهم ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢/ ١٨٣] .

وفيه ـ أعني : شهر رمضان ـ أنزل الله كتابه ، وجعل من لياليه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر . والألفُ شهر أكثر من ثلاث وثمانين سنة . فتأمل حساب ذلك ، وتفكر في نفسك أيّ ليلة هذه الليلة! التي صارت عند الله خيراً وأفضل من هذه المدة الطويلة . وقال الله تعالىٰ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة : ٢/ ١٨٥] . ثم قال سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ [القدر : ٩٧/ ١ـ٥] . فعرّفنا سبحانه أنه أنزل القرآن في رمضان ، ثم أنه أنزله في ليلة القدر منه بالخصوص. وهذا الإنزال من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء

الدنيا ، نزل القرآن جملة واحدةً من اللوح إلى بيت العزة ، ونزل به جبريل بأمر الله على رسوله عليهما السلام مفرَّقاً في نحو ثلاث وعشرين سنةً ، وهي مدة الوحي إلى رسول الله ﷺ إذ أوحى الله إليه وهو ابن أربعين سنة وقُبض عليه الصلاة والسلام عن ثلاث وستين سنة . كذلك قال العلماء المحققون من السلف والخلف .

فضل شهر رمضان

وفي فضل شهر رمضان قال رسول الله ﷺ : « رمضان إلى رمضان ، والجمعة إلى الجمعة ، والصلاة إلى الصلاة مكفِّرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » . وقال عليه الصلاة والسلام في شهر رمضان : « هو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة » ، وقال فيه : « أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار » . وأن الله تعالىٰ ينظر في أول ليلة منه إلى المسلمين ، ومن نظر إليه لم يعذِّبه ، ويغفر لهم في آخر ليلة منه . وقال جبريل لرسول الله عليهما السلام : « من أدرك رمضان فلم يُغفر له أبعده الله ، قل آمين . فقال رسول الله ﷺ : آمين » الحديث .

قلت : وذلك لتيسر أسباب المغفرة في رمضان أكثر منها في غيره من الشهور ، فليس يُحرم المغفرة فيه إلا من تفاحش إعراضه عن الله ، وعظمت جراءته على الله تعالى ، فاستوجب البعد والطرد عن باب الله . نسأل الله العافية من سخطه وعذابه وجميع بلائه .

وقد ورد أن أبواب السماء وأبواب الجنة تفتح كلها في

رمضان ، وتُغلق أبواب النيران ، وتقيّد مردة الشياطين ويُذهب بهم إلى البحار كي لا يُفسدوا على المسلمين صيامهم وقيامهم ، وينادي منادٍ كل ليلة من رمضان : يا باغي الخير أقبل ، ويا باغي الشر أقصر .

وورد أيضاً : « أن من تقرّب إلى الله تعالى في رمضان بفريضة عدلت له سبعين فريضةً في غيره . ومن تقرب فيه بنافلة عدلت له فريضة يؤديها في غيره » .

فنوافل رمضان بمنزلة الفرائض في غيره من الشهور ؛ من حيث الثواب . وفرائضه مضاعفةٌ على الفرائض في غيره إلى سبعين ضعفاً .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من صام رمضان وقامه إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه » .

قلت : والإيمان : هو التصديق بوعد الله . والاحتسابُ : هو الإخلاص لله . والله أعلم .

آداب الصائم

وللصائم آداب لا يكمل صيامه إلا بها .

فمن أهمها : أن يحفظ لسانه عن الكذب والغِيبة ، وعن الخوض فيما لا يعنيه ، ويحفظ عينه وأُذنه عن النظر والاستماع إلى ما لا يحل له ، وإلى ما يُعد فضولاً في حقه .

وكذلك يحفظ بطنه عن تناول الحرام والشبهة ، وخصوصاً

عند الإفطار يجتهد جداً أن لا يُفطر إلا على الحلال .

قال بعض السلف : إذا صُمت فانظر على أي شيء تُفطر ، وعند من تفطر؟ إشارة إلى الحث على التحري والاحتياط فيما يُفطِر عليه .

وكذلك يحفظ الصائم جميع جوارحه عن ملابسة الآثام ثم عن الفضول ؛ فبذلك يتم صومه ويزكو ، وكم من صائم يُتعِب نفسه بالجوع والعطش ، ويرسل جوارحه في المعاصي فيفسد بذلك صومه ، ويضيع بذلك تعبه ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام : « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » .

وترك المعاصي واجب على الدوام على الصائم وعلى المفطر ، غير أن الصائم أولى بالتحفظ ، وهو عليه أوجب وآكد ؛ فافهم .

قال عليه الصلاة والسلام : « الصوم جُنَّة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق ولا يجهل ؛ فإن امرؤ شاتمه أو قاتله فليقل إني صائم . . . » الحديث .

ومن آداب الصائم : أن لا يكثر النوم بالنهار ، ولا يكثر الأكل بالليل ، وليقتصد في ذلك حتى يجد مسّ الجوع والعطش ؛ فتتهذّب نفسه وتضعف شهوته ، ويستنير قلبه ، وذلك سرّ الصوم ومقصوده . وليجانب الصائم الرفاهية

والإكثار من تناول الشهوات واللذات كما ذكرناه . وأقل ذلك أن تكون عادته من الترفُّهِ واحدةً في رمضان وغيره . وهذا أقلّ ما ينبغي . وإلا فللرياضة ومجانبة شهوات النفس أثر كبير في تنوير القلب ، وتُطلب بالخصوص في رمضان .

وأما الذين يجعلون لهم في رمضان عادات من الترفُّهات والشهوات التي لا يعتادونها في غير رمضان فغرورٌ غرّهم به الشيطان حسداً منه لهم حتى لا يجدوا بركات صومهم ، ولا تظهر عليهم آثاره من الأنوار والمكاشفات ، والخشوع لله تعالى والانكسار بين يديه ، والتلذذ بمناجاته ، وتلاوة كتابه وذكره .

وكانت عادة السلف ـ رحمة الله عليهم ـ : التقليل من العادات والشهوات ، والاستكثار من الأعمال الصالحات في رمضان بالخصوص ؛ وإن كان ذلك معروفاً من سيرهم في جميع الأوقات .

ومن آدابه : أن لا يكثر التشاغل بأمور الدنيا في شهر رمضان ؛ بل يتفرغ عنها لعبادة الله وذكره ما أمكنه ، ولا يدخل في شيء من أشغال الدنيا إلا إن كان ضرورياً في حقه ، أو في حق من يلزمه القيام به من العيال ونحوهم ؛ وذلك لأن شهر رمضان في الشهور بمنزلة يوم الجمعة في الأيام . فينبغي للمؤمن أن يجعل يوم جمعته وشهره هذا لآخرته خصوصاً .

ومن السُّنة : تعجيلُ الفُطور ، وأن يكون على التمر ؛ فإن

لم يجده فعلى الماء . وكان عليه الصلاة والسلام يُفطر قبل أن يصلي المغرب ويقول : « لا تزال أمتي بخير ما عجّلوا الفُطور وأخروا السُّحور » فتأخير السحور من السنة أيضاً .

وينبغي للصائم أن يقلّل من الأكل ولا يستكثر منه ، وذلك حتى يظهر عليه أثر الصوم ، ويحظى بسرِّه ومقصوده الذي هو تأديب النفس ، وتضعيف شهواتها ، فإن للجوع وخلوِّ المعدة أثراً عظيماً في تنوير القلب ، ونشاط الجوارح في العبادة . والشبع أصلُ القسوة والغفلة ، والكسل عن الطاعة ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه . حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ؛ فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنَفَسه » . وقال بعضهم : « إذا شبعت البطن جاعت جميع الجوارح ، وإذا جاعت البطن شبعت جميع الجوارح » .

قلت : وجوع الجوارح عبارةٌ عن طلبها وحرصها على شهواتها ؛ فيشتهي اللسانُ الكلام ، والعينُ النظر ، والأذن الاستماع ، وكذلك سائر الجوارح . ويكون انبعاثها لطلب الفضول من شهواتها عند امتلاء البطن . وعند خلوِّه يكون سكونها وهُدوءُها المعبَّر به عن شبع الجوارح ، وذلك مشاهد ، والله أعلم .

ومن المستحب المتأكّد تفطير الصائمين ولو على تمرات ، أو شربة من الماء ، قال عليه الصلاة والسلام : « من فطَّر

صائماً كان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء » ؛ يعني : من أجر الصائم . وهذا الثواب إنما يحصل لمن فطّره ولو على الماء ؛ فأما من أطعم الصائم من بعد فطره في بيته أو في موضع آخر فليس يحصل له هذا الثواب ، ولكن يحصل له ثواب الإطعام ، وهو عظيم ، وثوابُ من أشبع الصائم مهما أطعمه حتى يشبعه وهو كثير .

صلاة التراويح

وصلاة التراويح في كل ليلة من رمضان سُنَّة مأثورة . وعادة السلف ـ رحمة الله عليهم ـ توزيع القرآن من أوله إلى آخره عليها ، يقرؤون منها في كل ليلة ما تيسر ، ويجعلون الختم في بعض الليالي من آخر الشهر ؛ فمن أمكنه أن يقتدي بهم في ذلك فليُشمِّر ولا يقصّر ، فإن الخير غنيمةٌ ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [المزمل : ٧٣/ ٢٠] . ومن لم يتفق له الاقتداء بهم في ذلك فليحذر من التخفيف المفرط الذي يعتاده كثير من الجهلة في صلاتهم للتراويح ، حتى ربما يقعون بسببه في الإخلال بشيء من الواجبات ، مثل : ترك الطمأنينة في الركوع والسجود ، وترك قراءة الفاتحة على الوجه الذي لابد منه بسبب العجلة ، فيصير أحدهم عند الله تعالى لا هو صلّى ففاز بالثواب ، ولا هو ترك فاعترف بالتقصير وسَلِمَ من الإعجاب ، وهذه وما أشبهها من أعظم مكائد الشيطان لأهل الإيمان ، يُبطِل على العامل منهم عملَه مع فعله للعمل . فاحذروا من ذلك ، وتنبهوا له معاشر الإخوان .

وإذا صليتم التراويح وغيرها من الصلوات فأتموا القيام والقراءة ، والركوع والسجود ، والخشوع والحضور ، وسائر الأركان والآداب . ولا تجعلوا للشيطان عليكم سلطاناً ، فإنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، فكونوا منهم . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ، فلا تكونوا منهم .

واستكثروا من أعمال البر ، وأفعال الخير ما استطعتم في شهر رمضان ، لفضل أوقاته وحصول المضاعفة فيه ، وكثرة الثواب وتيسير العمل بالخيرات .

فأما المضاعفة فلما ورد : أن النافلة في رمضان يعدل ثوابها ثواب الفريضة ، والفريضة فيه بسبعين فريضة في غيره . فمن يسمح بفوات هذا الربح ويكسل عن اغتنام هذه التجارة التي لا تبور!

وأما تيسُّر العمل بالخير في رمضان فلأن النفس الأمارة بالسوء مسجونة بالجوع والعطش ، والشياطين المُثبِّطين عن الخير المعوِّقين عنه مُصفَّدون لا يستطيعون الفساد ولا يتمكّنون منه ، فلم يبق بعد ذلك عن الخيرات مانع ، ولا من دونها حاجز إلا من غلب عليه الشقاء ، واستولى عليه الخذلان والعياذ بالله! فيكون رمضان وغيره عنده سواء في الغفلة عن الله ، بل ربما يكون في رمضان أعظمَ إعراضاً عن ربه وأكثر غفلة .

وكما ينبغي للمؤمن أن يستكثر من الأعمال الصالحة في هذا الشهر ويسارع فيها ، كذلك ينبغي له أن يبالغ في التحرز عن المخالفات ، ويكون في نهاية البعد عنها ، فإن المعاصي في الأوقات الفاضلة يكون إثمها عظيماً ووزرها كثيراً ، نظير كثرة الثواب على الأعمال الصالحة الواقعة في الأوقات الفاضلة .

فضل العشر الأواخر في رمضان

وقد ورد : أنه عليه الصلاة والسلام كان يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره ، وكان يجتهد في العشر الأواخر منه ما لا يجتهد في غيرها من رمضان .

قلت : وذلك لفضل العشر الأواخر على غيرها من الشهر ، وقد أمر عليه الصلاة والسلام بالتماس ليلة القدر فيها .

قال العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ : وهي في الأوتار منها أرجى .

وبالجملة : فينبغي للمؤمن الفَطِن أن يكون في كل ليلة من ليالي رمضان مستعداً لليلة القدر ومستيقظاً لها ، ومداوماً على العمل الصالح ، فإن المقصود الذي عليه المعوَّل : أن تأتي عليه ليلة القدر وهو مستغرق بالعمل الصالح ، ذاكراً لله تعالىٰ ، غير غافل ولا ساهٍ ولا لاهٍ ، وسواء بعد ذلك رأى ليلة القدر أو لم يرها ، فإن العامل فيها بطاعة الله يكون عمله فيها خيراً من عمله في ألف شهر علم بها أو لم يعلم . وإنما قلنا : إنه ينبغي أن يتنبَّه لليلة القدر ويستعدَّ لها في كل ليلة من هذا الشهر ،

لكثرة ما وقع بين العلماء من الخلاف في تعيينها ، وأنها أيّ ليلة هي؟ حتى قال بعضهم : إنها مبهمة في جميع ليالي الشهر . وقال بعضهم : إنها متنقلةٌ في لياليه ، وليست ليلة بعينها .

قلت : وأجدني أميل إلى هذا القول ، وأرى أنها قد تكون في غير العشر الأواخر وإن كان وقوعها فيها هو الأكثر ، وعليه جمهور العلماء ؛ أعني : أن ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان .

* * *

وينبغي الإكثار من الصدقة والمواساة ، وتعهُّد الفقراء والمساكين ، وتفقد الأرامل والأيتام في هذا الشهر الشريف ، فقد ورد « أنه كان عليه الصلاة والسلام أجود بالخير من الريح المرسلة ، وأنه أجود ما يكون في رمضان » .

وينبغي الإكثار فيه من تلاوة القرآن ومدارسته ، ومن الاعتكاف في المساجد ولاسيما في العشر الأواخر ، إذ كان عليه الصلاة والسلام يعتكفها .

ثم اعلم أن شهر رمضان شهرٌ مبارك على المسلمين ، وفي اليوم السابع عشر منه كانت « وقعة بدر » وهو يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . وفي رمضان كان « فتح مكة المشرفة » ودخول الناس في دين الله أفواجاً . وفيه « ليلة القدر » التي هي خير من ألف شهر ، ومن أدركها وعمل فيها بطاعة الله اثنتي

عشرة سنة مثلاً كان بمثابة من عاش في طاعة الله ألف سنة ، فهل شيء أعظم من ذلك وأجلّ قدراً ، وكم في رمضان من البركات والخيرات! فطوبى لمن عرف قدره ، واغتنم أوقاته وساعاته ، واستغرق لياليَهُ وأيامه بفعل ما يُقَرِّبُه من ربه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

صيام النفل

واعلم أن أفضل الصيام صيام شهر رمضان ، وكذلك يكون الأمر في جميع الفرائض ؛ أعني أنها تكون أفضل من الفرائض التي من جنسها بشيء كثير ، لقوله عليه الصلاة والسلام عن الله تعالىٰ : « ما تقرَّب المتقرِّبون إليَّ بمثل أداء ما افترضته عليهم . ولا يزال العبد يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه . . . » الحديث .

ثم صوم الأشهر الحُرُم وهي أربعة : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة : ٩/٣٦] .

وقد ورد : « أن صوم يومٍ من الأشهر الحُرم يعدل صيام ثلاثين يوماً من غيرها . وصيام يوم من رمضان يعدل صيام ثلاثين يوماً من الأشهر الحرم » . وورد : « أن من صام ثلاثة أيام متتابعة من شهر من الحُرُم : الخميس والجمعة والسبت باعده الله من النار » .

* * *

ومن **السنَّة** : صيامُ ستّ من شوال على أثر رمضان ، توديعاً له وجبراً للخلل إن عرض فيه للصائم . والنوافلُ جوابرُ الفرائض ، وقال عليه الصلاة والسلام : « من صام رمضان ثم أتبعه ستّاً من شوال فكأنما صام الدهر كله » .

ومن **الفضائل** : صوم يوم عرفة ، وهو يوم الحج ، التاسعُ من ذي الحجة . وقد ورد أن صومه يكفِّر سنتين .

قال العلماء : وهو أفضل يوم يُصام في السنة بعد رمضان ، ولا يستحب للحاج أن يصومه لأجل القوة على الدعاء في الموقف ، والقيام بالمناسك .

وصومُ يوم عاشوراء ، وهو العاشر من المحرَّم ، وقد ورد أن صومه يكفّر سنة .

ومن **المتأكد** المستحب من الصيام : صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وقد وردت الأحاديث الكثيرة بأنها تعدل صيام الدهر ، وإن تحرّى بها الصائم الأيام البيض كان أفضل وأحسن ؛ لأنه ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه كان لا يترك صيام الأيام البيض في حضر ولا سفر ، وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من الشهر . وإن صام هذه الثلاثة من غير البيض فلا بأس . إلا أنها أولى ، وكذلك إذا صام هذه الثلاثة مفرَّقة .

ولا ينبغي للمتنسك أن يترك صيام هذه الثلاثة من كل شهر ، فإنه صوم خفيف المؤونة عظيم الفضيلة . وحسبك من

فضله أنه يعدل صيام الدهر ، وقد أوصى به عليه الصلاة والسلام جماعة من أصحابه رضي الله عنهم ، وقال عليه الصلاة والسلام : « صام نوح الدهر ، وصام داود نصف الدهر ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً . وصام إبراهيم الدهر وأفطر الدهر ، كان يصوم ثلاثة من كل شهر ، صلوات الله عليهم أجمعين .

قلت : وأفضل الصيام صيام داود عليه السلام ، وهو أن يصوم يوماً ويفطر يوماً وهو أفضل من صيام الدهر كما ورد في الأحاديث الصحيحة ـ قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : وهو ـ أعني صوم داود عليه السلام ـ أبلغ في رياضة النفس ، وأقوى في مجاهدتها من صيام الدهر .

وفي صيام الاثنين والخميس من الأسبوع فضل كثير ، كان عليه الصلاة والسلام يصومهما ويقول : « هما يومان تعرض فيهما الأعمال على الله ، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم » .

وصيام يوم الجمعة محبوب لفضله وشرفه ، لكن مع الخميس أو السبت ؛ لأنه ورد في إفراده بالصوم نهي عن النبي ﷺ .

* * *

وعليك بالإكثار من الصوم مطلقاً ، فإنه من أبلغ الأشياء في رياضة النفس وكسر الشهوة ، واستنارة القلب وترقيقه ،

وتأديب الجوارح وتقويمها ، وتنشيطها للعبادة . وفيه الثواب العظيم ، والجزاء الكريم الذي لا نهاية له ولا غاية .

وليس شيء من الأعمال إلا ولثوابه حدٌّ ومقدار سوى الصوم ، فإن ثوابه لم يقدَّر بقَدْر ، ولم يُحدَّ بحدٍّ ؛ قال النبي ﷺ : « كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها ، قال تعالىٰ : إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به ، يدع الإنسان طعامه وشرابه وشهوته من أجلي . للصائم فرحتان : فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه .

ولَخَلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » ، فتأمَّل رحمك الله تعالىٰ جداً قوله تعالى : « إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به » ، وتفكر في الوعد بالجزاء المطلق من السيد الكريم الجواد الرحيم . وتأمل أيضاً في خلُوف فم الصائم الذي هو عند الله أطيب من ريح المسك ، واستحضر معنى العِنْديَّة الإلٰهية الكائنة من الطِّيْب بهذه المنزلة ! !

قلت : ومن أجْلِ فضل هذا الخلوف ومكانته عند الله تعالىٰ كره الاستياك للصائم بعد الزوال حتى يفطر ، لأن السواك يزيله أو يخفِّفه . وقال عليه الصلاة والسلام في فضل الصوم : « للجنة باب يقال له الريان لا يدخله إلا الصائمون ؛ فإذا دخلوا منه أغلق » .

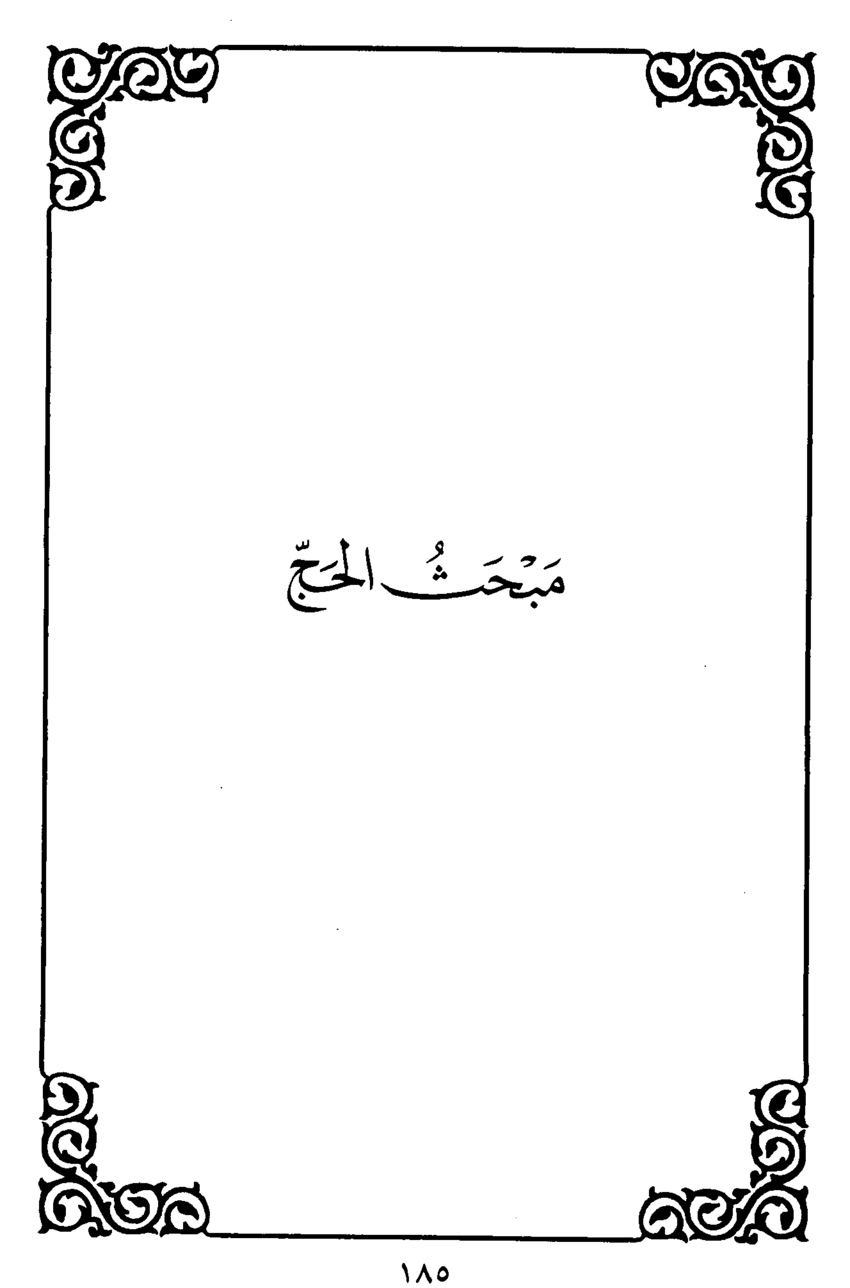
وقال عليه الصلاة والسلام : « الصوم نصف الصبر . ولكل شيء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم » . وقال عليه الصلاة

والسلام : « الصوم جُنة وحصن حصين من النار » .

واعلم : أن للصوم صورة وروحاً . فأما صورته : فهي الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النيّة . فمن أكل أو شرب أو جامع في نهاره وهو عامد عالم مختار بطل صومه . وإن كان ناسياً أو جاهلاً أو مكرهاً لم يبطل صومه ؛ هذه هي صورة الصوم .

وأما روحه : فهو الإمساك عن الآثام والمحرَّمات ، والقيام بالفرائض والواجبات . والذي يصوم عن الأكل والشرب والجماع ، ولا يصوم عن المخالفات ، هو الصائم الذي ليس له من صيامه إلا العناء والتعب . فإذا صُمْتَ فأَحسِنْ ، وكذلك في جميع أعمالك اجتهد في إحسانها وإكمالها وإخلاصها ؛ حتى ينفعك الله بها ، ويعظم لك الأجر عليها عند الرجوع إليه ، وله سبحانه الأمر كله ؛ فاعبده وتوكل عليه ؛ وما ربك بغافل عما تعملون . لا إله إلا هو إليه المصير .

* * *



مَبْحَثُ الحَجّ

واعلموا معاشر الإخوان ـ جعلنا الله وإياكم من الذين سبقت لهم منه الحسنى ، ومن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا ـ : أن الحج إلى بيت الله الحرام أحد مباني الإسلام ، وهو فرض لازم محتوم على كل مسلم مستطيع في العمر مرةً وكذلك العُمرة .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران : ٣/ ٩٧] .

وقال الله لخليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾

[الحج : ٢٢/ ٢٧ـ٣٠] .

وقال رسول الله ﷺ : « بُني الإسلام على خمس : شهادة

أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من ملك زاداً وراحلة تبلِّغه إلىٰ بيت الله تعالى ثم لم يَحُجّ فلا عليه أن يموت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً » .

وفي هذا نهايةُ التشديد على من يترك الحج مع الاستطاعة .

فلا ينبغي للمؤمن أن يؤخّر ويتكاسل ويُسوِّف ، ويتعلّل بالأعذار من سنة إلى سنة ، وهو مع ذلك مستطيع ، وما يدريه لعل الموت ينزل به ، أو تذهب استطاعته ؛ وقد استقر الحج في ذمته لتمكنه منه فيلقى الله تعالىٰ عاصياً آثماً!

الاستطاعة في الحج

والاستطاعة أن يملك الإنسان ما يحتاج إليه في سفره إلى الحج ذهاباً ورجوعاً من زاد ومركوب ، وما في معنى ذلك مما لا بُدَّ له منه ، ونفقة من تلزمه نفقته من الأولاد والأزواج ونحوهم إلى وقت رجوعه .

وتختلف الاستطاعة باختلاف الناس ، وباختلاف الأماكن في القرب والبعد . ومن تكلَّف الحجَّ شوقاً إلى بيت الله الحرام ، وحرصاً على إقامة هذه الفريضة من دين الله وليس بمستطيع من كل الوجوه فإيمانه أكمل ، وثوابه أعظم وأجزل ؛ ولكن بشرط أن لا يضيِّع بسبب ذلك شيئاً من حقوق الله تعالىٰ لا في سفره ولا في وطنه ، وإلا كان آثماً وفي حرج ، مثل أن يسافر ويترك مَن فَرَضَ الله تعالىٰ عليه نفقتهم ضائعين لا شيء لهم ، أو يكون في سفره متكلاً على مسألة الناس ، مشغول

القلب بالتشوُّف إليهم ، أو يضيع بسبب السفر شيئاً من الصلوات المكتوبات ، أو يقع في شيء من المحرمات ؛ فمثل من يسافر إلى الحج على هذا الوجه وقد وسع الله له في الترك حيث لم يكن مستطيعاً مثل من يعمّر قصراً ، ويهدم مصراً .

نبهنا على ذلك ؛ لأن كثيراً من العامة يسافرون على هذا الوجه ، ويظنون أنهم يتقربون إلى الله تعالىٰ بحج بيته وهم في غاية البعد عنه ، لأنهم لم يدخلوا الأمر من بابه . وإذا كان هذا في الحج المفروض ، فاعلم أنه يكون في الحج الذي ليس بمفروض أعظم حرجاً وأكثر تشديداً .

وكلامنا هذا في حق العاجز الضعيف . وأما القويّ المستطيع فقد ذكرنا أنه تتأكد عليه المبادرة بحجة الإسلام ، ثم يُستحبّ له بعد ذلك أن لا يترك التطوُّع بالحج . قال بعض السلف رحمة الله تعالى عليهم : أقلُّ ذلك أن لا تمر عليه خمسة أعوام إلا ويحج فيها حجّة . وقد بلغنا عن الله تعالىٰ أنه قال : « إنَّ عبداً صحَّحت له جسمه ، ووسعت عليه في المعيشة تمضي عليه خمسة أعوام ولم يفدْ عليَّ لمحرومٌ » .

قلت : وإنما ينبغي للمسلم القادر : الاستكثارُ من الحج لما فيه من التعظيم لحرمات الله وشعائره التي تعظيمها من تقوى القلوب ، ولما فيه من الفضل العظيم الذي وردت به الأخبار ؛ قال رسول الله ﷺ : « أفضل الجهاد الحج » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الحج يهدم ما قبله » ؛ أي : من الذنوب .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من حج فلم يرفُثْ ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » والرفثُ والفسوق : شيئان جامعان للأقوال والأفعال القبيحة .

وقال عليه الصلاة والسلام : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « بِرُّ الحج إطعام الطعام ، ولين الكلام » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الحجاج والعُمّار وفدُ الله ، إن سألوا أُعطوا ، وإن دَعَوا أُجيبوا ، وإن أنفقوا أُخلِف لهم » .

آداب الحج

ومن آكد المهمات على المسافر إلى الحج : الاجتهاد في أن يكون زاده طيباً ، ونفقته حلالاً ، وليحرص كل الحرص على ذلك ، فإن الذي يحج بالمال الحرام لا يقبل الله حجه ، وإذا لبّى عند إحرامه يقول له سبحانه : لا لبيك ولا سعديك ، زادك حرام وراحلتك حرام وحجك غير مبرور ، ويقول تعالىٰ للذي يحج بالمال الحلال إذا لبّى : لبيك وسعديك ، زادك حلال وراحلتك حلال وحجك مبرور ؛ كذلك ورد في الخبر .

وليكن المسافر إلى الحج طيِّب النفس بما ينفقه من المال في سفره ؛ فإنها نفقة مخلوفة متبوعة بالخير والبركة ، واليسر

والسعة . وقد ورد أن النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله ، الدرهم بسبعمائة .

ومهما كان الحاج موسراً فليبالغ في توسيع النفقة على الفقراء والمساكين ، وبذل المعروف للضعفاء والمقلِّين ، خصوصاً لهؤلاء ، ولغيرهم من المسلمين عموماً مخلصاً في ذلك لله رب العالمين .

* * *

وليكن في سفره متواضعاً متخشعاً ، متمسكناً . فعلى مثل هذه الأوصاف ينبغي له أن يَفِدَ على الله الملك الجبار المتكبر .

ولا يكون في سفره وحجه من المستكبرين ، ولا من المترفهين فيكون عند الله من المطرودين ، قال عليه الصلاة والسلام : « إنما الحاج أشعث أغبر » .

وحج عليه الصلاة والسلام على رَحْل رثّ وتحته قطيفة رثَّة لا تساوي أربعة دراهم . فكلما كان الحاج أكثر تواضعاً وتمسكناً ، وأرثَّ هيئة يريد بذلك وجه الله كان حجه أطيب وأزكى ، وأجل وأكمل .

قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله : جعل الله السفر إلى الحج مثالاً للسفر إلى الآخرة ؛ فينبغي لك أن تستحضر عند كل عمل من أعمال السفر أمراً من أمور الآخرة يوازيه ويماثله ، فتتذكر عند وداع الأهل والأصحاب عند السفر ، وداعهم في

سكرات الموت . ومِن أَخْذ الزاد للطريق ، أَخْذ الزاد لطريق الآخرة ، ومن بُعد الطريق وخوف السباع والقطاع فيها ، تذكر بُعد طريق الآخرة ، وفتنة منكر ونكير ، وعذاب القبر . ومن الالتفاف في ثياب الإحرام الالتفاف في الأكفان . ومن السعي بين الصفا والمروة التردد بين كفتي الميزان أيهما ترجح . ومن الموقف موقف القيامة . هذا كلامه ملخصاً بمعناه فانظره في محله . والأمر كما ذكره رحمه الله ، وجزاه عن المسلمين خيراً .

وينبغي للحاج إذا وصل إلى حرم الله وبلده الحرام الأمين « مكة المشرفة » زادها الله شرفاً : أن يكون ممتلىء القلب بتعظيم الله وإجلاله ، ويكون على أتم ما يمكن منه ويستطيعه من التذلل والتواضع ، والخضوع والخشوع والانكسار لله تعالىٰ ولتكن هذه الأوصاف شعاره ودثاره في جميع المواطن والمواقف الشريفة .

* * *

وينبغي له أن يستكثر جداً من الطواف بالبيت ، ومن الصلاة عنده ، فقد ورد « أن من طاف أسبوعاً كان له كعدل رقبة » أي يعتقها لوجه الله تعالىٰ . وورد« أن الطائف بالبيت لا يرفع قدمه في طوافه ، ولا يضعها إلا محيت عنه سيئة أو كتبت له حسنة ، أو رفعت له درجة » . وورد أيضاً « أنها تنزل في كل يوم على

البيت عشرون ومائة رحمة : ستون منها للطائفين ، وأربعون للمصلين عند البيت وعشرون للناظرين إليه » .

وليكثر في طوافه من تلاوة القرآن ، ومن الأذكار والأدعية ، وخصوصاً منها الوارد في الطواف .

وليكثر من استلام الحجر الأسود المبارك ؛ فإنه يمين الله في الأرض يصافح بها عباده . ومن الصلاة في الحِجر ؛ فإنه من البيت تركته قريش لمَّا بنته في الجاهلية حين قصرت بهم النفقة من الحلال .

* * *

وليكثر من شرب ماء زمزم ، فإنه خير ماء على وجه الأرض كما قال عليه الصلاة والسلام . وقال أيضاً : « ماء زمزم لما شرب له ، وإنها طعام طُعم وشفاء سُقم » .

وقد شرب منها جماعات من الأكابر لمطالب شريفة فنالوها بفضل الله وببركات رسول الله ﷺ .

* * *

وإذا وقف بعرفات فليكثر من الاستغفار والدعاء ، والتضرع والبكاء وليسأل الله بصدق ورغبة ، وإقبال وإنابة ، لنفسه ولوالديه وأحبابه ولكافة المسلمين بصلاح جميع الأمور الأخروية والدنيوية ؛ فإنه يسأل كريماً جواداً ، بيده الخير كله ، وله خزائن السموات والأرض .

وهذا الموقف أعظمُ المواقف الإسلامية وأجمعُها ، ويحضره من ملائكة الله وعباده الصالحين خلائق لا يُحْصَون ، وقد ورد « أن الله تعالىٰ يباهي بأهل الموقف أهلَ السماء ، ويشهد ملائكته على أنه غفر لهم ـ أعني : لأهل الموقف ـ وأنه تعالىٰ قبل محسنهم ووهب مسيئهم لمحسنهم » . وفي بعض الآثار : أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفات فظن أنه لم يغفر له . وجاء في الخبر : أن إبليس لعنه الله لا يُرى أصغرَ ولا أدحرَ ولا أغيظَ منه في يوم عرفة ؛ وما ذلك إلا لكثرة ما يرى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن المذنبين من الواقفين بعرفات .

* * *

ومن آداب الحاج المهمة : أن يكون قصده مجرد حج بيت الله وتعظيم حرماته ؛ فإن لم يتفق له ذلك فليحذر كل الحذر أن يستصحب شيئاً من أمور الدنيا التي تشغله عن إقامة المناسك ، وتعظيم شعائر الله كما يجب وينبغي ؛ كما يقع ذلك لكثير من الغافلين عن الله ، المشغوفين بمحبة الدنيا من الاشتغال بأمور التجارات والمبايعات عن تعظيم الحرمات وإقامة المناسك ، وربما أفضى الأمر ببعضهم إلى أن يجعل قصد التجارة هو الأصل والحج تابع له ؛ وهذا عظيم وفيه ذم كثير .

وأما الاتجار في الحج إذا لم يشغل عن إقامته ، والإتيان به على وجهه فلا جناح فيه ولا حرج ؛ وقد أذن الله فيه وأنزل في شأنه : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة : ٢/١٩٨] . ولكن تجريد القصد للحج فقط هو الأفضل ، واستصحاب شيء من أمور التجارة الذي لا يشغل عن الحج ولا يفرِّق القلب لابأس به . وما يفرق القلب ويكثر به الاشتغال عن إقامة المناسك هو المذموم ؛ فاحذر منه أيها الحاج الراغب في أن يكون حجك مبروراً وسعيك مشكوراً . ومن المذموم في الاستئجار للحج ما يقع لبعض العامة : من أن أحدهم يسير إلى الحج ونيته أن يفرغ ذمته من حجة الإسلام حتى يصير بذلك صالحاً لأن يستأجره الناس ؛ حتى يحج لهم رغبة منه في الإجارة ، وحرصاً قبيحاً على الدنيا . ولعل الله تعالىٰ لا يقبل حجة الإسلام من الذي يكون ضميره منطوياً على مثل ذلك . فليتق الله وليحذر هذا القصد الذي لا خير فيه ، وإنما ذكرناه لظهوره على بعض العامة الذين لا بصائر لهم ؛ فليعرَّفوا به وليشاع ذكره .

وأما الاستئجار للحج فلا بأس به ولا حرج فيه . ولا يخلو الأجير الذي يكون له قصد في زيارة البيت وتعظيم الحرمات الإلٰهية وإسقاط الفرض عن أخيه المسلم شفقة عليه : لا يخلو

من ثواب كبير من فضل الله تعالىٰ . وأما الأجير الذي ليس له قصد إلا الإجارة فقط فأمره غير خال من الخطر .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : ينبغي لمن يؤجر نفسه في الحج أن يجعل قصد البيت هو الأصل والإجارة تابعة ، ولا يعكس فيجعل الإجارة أصلاً والحج تابعاً . انتهى بمعناه .

* * *

وينبغي للحاج أن يأتي بالحج على أكمل وجوهه فرضاً ونفلاً ، مع القيام بجميع السنن والآداب على وفق المنقول من حج رسول الله ﷺ ، ويُعرَف ذلك من المناسك التي وضعها العلماء رحمة الله عليهم .

ومن أحسنها ما ألفه الإمام النووي رحمه الله ، فلا يستغني الحاج عن استصحاب شيء منها أي : من المناسك التي ألفها العلماء ، ليكون على بصيرة من أمره وبينة من ربه ؛ ولْيَزُرْ جميع المشاهد والمواضع المعظمة ، وهي مشهورة ومعروفة .

* * *

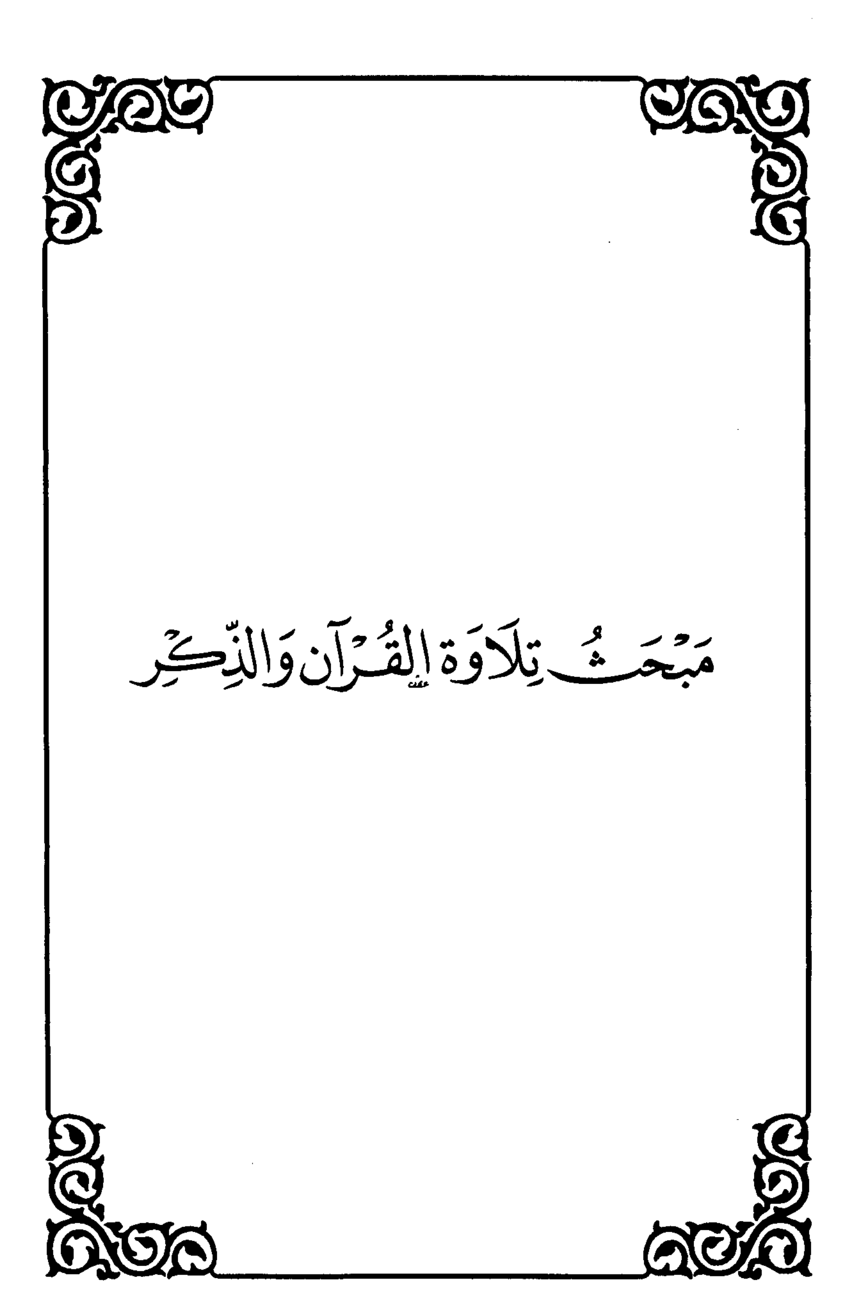
وليحرص كل الحرص على زيارة رسول الله ﷺ ، وليحذر كل الحذر من تركها مع القدرة ، وخصوصاً بعد حجة الإسلام ، وقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « من حج ولم يزرني فقد جفاني . ومن زارني ميتاً فكأنما زارني حيّاً » فلا ينبغي للمؤمن أن يقصر عن زيارة نبيه عليه الصلاة

والسلام إلا لعذر ناجز ؛ فإن حقه ﷺ على أمته عظيم . ولو أن أحدهم يجيء على رأسه أو على بصره من أبعد موضع من الأرض عن قبره الشريف لزيارته عليه الصلاة والسلام لم يقم بالحق الذي عليه لنبيه .

جزاه الله عنا وعن سائر المسلمين أفضل ما جزى نبياً عن أمته ؛ فقد أدى الرسالة ، وأوضح الدلالة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ، وتركنا على بيضاء نقية ، ومحجة واضحة من الحق ، ليلها مثل نهارها صلى الله وبارك وسلم عليه وعلى آله أفضل ما صلى وبارك وسلم على أحد من خلقه وأدومه ، عدد ما علم وزِنة ما علم ومِلء ما علم ؛ كلما ذكره الذاكرون ، وسها وغفل عن ذكره الغافلون .

* * *





مَبْحَث تِلَاوَة القُرآن وَالذِّكر

واعلموا معاشر الإخوان ـ جعلنا الله وإياكم من التالين لكتابه العزيز حق تلاوته ، المؤمنين به الحافظين له المحفوظين به ، المقيمين له القائمين به ـ : أن تلاوة القرآن العظيم من أفضل العبادات وأعظم القربات ، وأجل الطاعات ، وفيها أجر عظيم ، وثواب كريم ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٣٥/ ٢٩ـ٣٠] . وقال ﷺ : « أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن » وقال عليه الصلاة والسلام : « من قرأ حرفاً من كتاب الله كتبت له حسنة والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول ألم حرف واحد ؛ بل ألف حرفٌ ، ولامٌ حرفٌ ، وميم حرفٌ » . وقال عليه الصلاة والسلام : « يقول الله تعالىٰ : من شغله ذكري وتلاوة كتابي عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين . وفضل كلام الله تعالىٰ على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » . وقال عليه الصلاة والسلام : « اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » . وقال علي كرم الله وجهه :

من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ، ومن قرأه وهو قاعد في الصلاة كان له بكل حرف خمسون حسنة ، ومن قرأه خارج الصلاة وهو على طهارة كان له بكل حرف خمس وعشرون حسنة ، ومن قرأه وهو على غير طهارة كان له بكل حرف عشر حسنات .

آداب التلاوة

واعلموا : أن للتلاوة آداباً ظاهرة وباطنة ، ولا يكون العبد من التالين حقيقة ، الذين تزكو تلاوتهم ، ويكون من الله بمكان حتى يتأدّب بتلك الآداب ، وكلٌّ من قصر فيها ولم يتحقق بها لم تكمل تلاوته ؛ ولكنه لا يخلو في تلاوته من ثواب ، وله فضل على قدره .

فمن أهم الآداب وآكدها : أن يكون التالي في تلاوته مخلصاً لله تعالىٰ ومريداً بها وجهه الكريم ، والتقرب إليه والفوز بثوابه ، وأن لا يكون مرائياً ولا متصنعاً ، ولا مُتزيناً للمخلوقين ، ولا طالباً بتلاوته شيئاً من الحظوظ العاجلة والأغراض الفانية الزائلة ، وأن يكون ممتلىء السِّر والقلب بعظمة المتكلم عزَّ وعلا خاضعاً لجلاله ، خاشع القلب والجوارح ، حتى كأنه من تعظيمه وخشوعه واقفٌ بين يدي الله تعالى يتلو عليه كتابه الذي أمره فيه ونهاه . وحق لمن عرف القرآن وعرف المتكلِّم به ، أن يكون كذلك وعلى أتم من ذلك ، كيف وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر : ٥٩/ ٢١] .

فإذا كان هكذا يكون حالُ الجبل مع جموده وصلابته لو أنزل عليه القرآن ، فكيف يكون حال الإنسان الضعيف المخلوق من ماء وطين ، لولا غفلة القلوب وقسوتها ، وقلة معرفتها بعظمة الله وعزه وجلاله ! !

وقال تعالىٰ في وصف الخاشعين من عباده عند تلاوة كتابه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء : ١٧/ ١٠٧ـ١٠٩] .

وقال تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر : ٣٩/ ٢٣] .

فالتعظيم والخشية والخشوع والخضوع عند تلاوة القرآن من أوصاف المؤمنين الصادقين ، العارفين بجلال الله رب العالمين . والغفلةُ والقسوةُ والسهو واللهو عند تلاوة القرآن من أوصاف المعرضين المخلِّطين ، الذين ضعف إيمانهم ، وقلَّ يقينهم ، وخلت قلوبهم من حقائق معرفة الله ، ومعرفة كلامه . نسأل الله لنا ولكم العافية من ذلك ، ومن جميع أنواع البلاء والمهالك .

* * *

ومن أهم الآداب وأوجبها : أن يكون في حال تلاوته متدبراً لما يقرأ متفهماً له ، حاضر القلب عنده ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [صٓ : ٣٨/٢٩] .

وقال تعالىٰ في معرض الإنكار والتوبيخ لأقوام : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : ٤٧/ ٢٤] .

وقال علي رضي الله عنه : لا خير في قراءة لا تدبُّر فيها .

وصدق رضي الله عنه ؛ فإن القرآن إنما أنزل ليُتدبر ، وبالتدبر يُفهم المراد منه ، ويُتوصل إلى العلم به والعمل بما فيه ، وهذا هو المقصود بإنزاله وبعثةِ الرسول ﷺ به .

فعليك في حال تلاوتك بالتدبر والتفهم ، فإن قليلاً تقرؤه من القرآن مع التدبر والتفهم ، خيرٌ من كثير تقرؤه من القرآن بدون ذلك .

قال بعض السلف رحمة الله عليهم : لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة ، أتدبرهما وأتفهمهما أحبُّ إلي من أن أقرأ القرآن كله .

وسئل بعضهم عن قارئين : قرأ أحدهما البقرة فقط ، وقرأ الآخر البقرة وآل عمران ، وابتدآ معاً وختما معاً ، أيهما أفضل؟ فقال : الذي قرأ البقرة فقط أفضل .

قلت : وإنما صار هذا الذي قرأ البقرة أكثر فضلاً ، مع أن

الآخر قرأ مثله نحواً من مرتين لكون قارىء البقرة كان أكثر تدبراً وترتيلاً . دلَّ على ذلك استغراقه بقراءتها ذلك الوقت الذي قرأ فيه الآخر البقرة وآل عمران .

فقد تبين لك أن التدبر والتفهم هو المقصود ، والذي عليه المعول في حال التلاوة للقرآن الكريم ؛ فعليك به رحمك الله .

قال الحسن البصري رحمه الله : إن من كان قبلكم رأوا هذا القرآن رسائل إليهم من ربهم ، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذُونها بالنهار . انتهى .

وكلما كان العبد أوسعَ علماً ومعرفة بالله ، كان أكثرَ تدبراً للقرآن ، وأعظمَ فهماً فيه ، ولذلك اتسع المجال في تدبر القرآن وفهمه للعارفين بالله من العلماء الراسخين والأئمة المهتدين . قال أبو ذر رضي الله عنه : قام بنا رسول الله ﷺ ليلة بقوله تعالىٰ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ٥/١١٨] .

وكان عمر رضي الله عنه يقرأ الآية في قيامه من الليل فيتدبَّرها حتى ربما سقط من قيامه من شدة خشيته وخشوعه . وربما مرض بسبب ذلك حتى يعاد .

وقام تميم الداري ليلة بهذه الآية يردّدها إلى الصباح : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٤٥/ ٢١] .

وقام سعيد بن جبير رحمه الله ليلة بقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [يس : ٣٦/٥٩] يرددها .

وما يحكى عن السلف الصالح في هذا المعنى كثير منتشر .

وكان الخوف والبكاء يغلب عليهم عند قراءة القرآن من شدة معرفتهم بالله وفهمهم في كتابه ، وتدبرهم له . وكان يُغشى على كثير منهم عند قراءته وسماعه ، وربما مات بعضهم . وذلك معروف في أخبارهم وسيرهم ، رحمهم الله ونفعنا بهم .

فإذا قرأت القرآن فتدبَّر وتفهَّم وتفكَّر ، وتوقَّف عند كل آية يكون فيها أمر من أوامر الله تعالى ، أو نهي من نهيه ، أو وعد أو وعيد ، ثم انظر ، فإن وجدت نفسك ممتثلاً لذلك المأمور ، مجتنباً لذلك المنهي ، ومصدقاً موقناً بذلك الوعد والوعيد ، فاحمد الله ، واعلم أن ذلك حصل لك بتوفيقه ومعونته ، وزد في الجدِّ والتشمير ، واحترز من التساهل والتقصير . وإن وجدت نفسك غير ممتثل لذلك المأمور ، وغير مجتنب لذلك المنهي ، وغير قوي اليقين بالوعد والوعيد ، فاستغفر ربك ، وتُبْ إليه من تقصيرك ، واعزم على امتثال أمره واجتناب نهيه ، وألزِم قلبك اليقين الكامل بوعده ووعيده .

وكذلك إذا تلوت آيات التوحيد لله والتقديس له عزَّ وجلَّ ، والآيات التي فيها ذكر صفاته العلى وأسمائه الحسنى ، تقف عندها وتتدبر ما فيها من معاني جلاله ، ورفيع مجده وكماله ،

وتكون عند ذلك ممتلىء القلب بتوحيده وتقديسه وتعظيمه وإجلاله .

وإذا تلوت الآيات التي فيها ذكر أوصاف المؤمنين والصالحين من عباد الله تعالىٰ ، وفيها شرح أخلاقهم المحمودة ، تتدّبرها وتنظرُ فيها ، وتطالب نفسك بالاتصاف والتخلق بها .

وإذا تلوت الآيات التي فيها ذكر الأعداء من الكافرين والمنافقين ، وذكر أوصافهم وأخلاقهم القبيحة ، تتدبرها وتنظر هل أنت ملابس لشيء منها ، فتتنزه عنه وتتوب إلى الله منه لئلا ينزل بك من الله مثل الذي نزل بهم من السخط والعقاب .

وعلى مثل هذا النحو فتدبر في آيات الله عند كل آية منها على حسب المناسبة والموافقة ، فإن آيات القرآن كثيرة ، وهي أنواع وأقسام متعددة ، وفيها العلوم الواسعة الغزيرة التي لا غاية لها ولا نهاية ، قال تعالىٰ : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام : ٦/٣٨] .

وقال تعالىٰ : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل : ١٦/٨٩] .

وفي الحديث : « إن لكل آية ظهراً وبطناً ، وحدّاً ومطلعاً » .

* * *

واستعن على حسن التدبر والتفهم لمعاني القرآن بحسن الترتيل ، والتأني في حال تلاوته ، ومجانبة العجلة والهذ والهـذرمـة ، فقـد ورد النهـي عـن ذلـك : أعنـي عـن الهـذ والهذرمة ، وهو عبارة عن الاستعجال ، وترك الترتيل المأمور به ، قال الله تعالىٰ لرسوله عليه الصلاة والسلام : قال تعالىٰ : ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل : ٧٣/ ٤] .

ولما وصفت أم سلمة وغيرُها من الصحابة رضي الله عنهم قراءة رسول الله ﷺ ، وصفوا قراءةً مرتلة مفسرة حرفاً حرفاً . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « يقال لقارىء القرآن : اقرأ وآرْق ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » .

قال بعض العلماء رحمهم الله تعالىٰ : عدد درج الجنة بعدد آي القرآن ، فتكون منزلة من يقرأ القرآن كله في أعلى درجات الجنة . انتهى بمعناه . قلت : وهذا يكون للقارىء المحسن في تلاوته ، العامل بما يقرؤه من القرآن دون القارىء المخلِّط الغافل . دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة الواردة في عقاب القارىء الذي لا يعمل بالقرآن وإن كان يقرؤه كما أنزل في الظاهر . وعدد آيات القرآن الكريم أكثر من ستة آلاف آية فيكون عدد درجات الجنة بحسب ذلك على وفق ما ذكره العالم الذي نقلنا قوله قريباً . والله أعلم .

* * *

ومن المندوب إليه : تحسين الصوت بالقرآن ؛ وهو معين على حضور القلب وخشوعه وحُزنه ، وباعثٌ على حسن الاستماع والإصغاء إلى القرآن . وقد قال رسول الله ﷺ : « حسنوا القرآن بأصواتكم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من لم يتغن بالقرآن فليس منا » . وقال عليه الصلاة والسلام في معرض الثناء على أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وقد سمعه يقرأ القرآن بصوت حسن : « لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود » ولكن ينبغي أن يكون ذلك التحسين على وجه يليق بتعظيم القرآن واحترامه ، بحيث لا يشبَّه بالغناء ، وإنشاد الأشعار بالألحان كما يفعل ذلك بعض الأغبياء .

* * *

وينبغي أن تكون في حال تلاوتك على أكمل الأحوال : من الطهارة واستقبال القبلة ، وسكون الجوارح ، وقلة الالتفات ؛ مع جمع الهمِّ وترك تفريق النظر ، وأن تكون نظيف البدن والثياب والمكان ، طيب الرائحة ، وهذا هو الأكمل الأفضل . ولو أن القارىء قرأ وهو محدث وغير مستقبل القبلة ، أو وهو قائم أو سائر أو مضطجع جاز ذلك ، وله في تلاوته فضل وثواب ، ولكن دون ثواب من يكون على ما ذكرناه من حسن الآداب وكمال الهيئات .

* * *

ثم اعلموا ـ رحمكم الله ـ : أن قارىء القرآن وحافظه عند الله بمكان .

قال عليه الصلاة والسلام : « الذي يقرأ القرآن وهو به ماهرٌ مع السفرة الكرام البررة . والذي يقرؤه ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » وقال عليه الصلاة والسلام : « أهل القرآن هم أهل الله وخاصته » إلى غير ذلك من الفضائل التي وردت بها الأخبار الكثيرة الشهيرة .

* * *

ولكن ينبغي لقارىء القرآن أن يعرف للقرآن حقه ، وما يجب له من الاحترام والتعظيم ، وما يتعين عليه من الأخذ به والعمل بما فيه ، وما أرشد إليه من جميل الأوصاف ، وكريم الأخلاق وصالح الأعمال . وهذا وإن كان مطلوباً من عامة المسلمين فهو على قارىء القرآن أوجب وآكد ، وهو به أجدر وأولى ؛ لفضله وفضل ما معه من كتاب الله وبيناته وحججه .

قال عمر رضي الله عنه : يا معشر القرّاء ، ارفعوا رؤوسكم فقد وضح لكم الطريق ، واستبقوا الخيرات .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ينبغي لصاحب القرآن أن يُعرف بليله إذ الناس نائمون ، وبنهاره إذ الناس مفطرون ، وبحزنه إذ الناس يفرحون ، وببكائه إذ الناس

يضحكون ، وبصمته إذ الناس يخوضون ، وبخشوعه إذ الناس يختالون . انتهى .

قلت : معنى كلام ابن مسعود هذا أنه ينبغي أن يتميز صاحب القرآن عن غيره من عامّة الناس ؛ بزيادة التشمير في طاعة الله وكثرة المسارعة في الخيرات ، وشدة الاحتراز من الغفلة مع مجانبة اللهو وكمال الخشية ، والخوف من الله تعالىٰ .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه أيضاً : نزل القرآن ليُعمل به فاتخذتم دراسته عملاً .

* * *

فأما القارىء المخلِّط الغافل الذي لا يعمل بالقرآن ، ولا يأتمر بأوامره ، ولا ينزجر بزواجره ، ولا يقف عند حدوده ؛ فقد وردت في ذمّه الأخبار ، وجاءت في حقه تشديدات ، وتخويفات كثيرة .

قال عليه الصلاة والسلام : « اقرأ القرآن ما نهاك ، فإن لم ينهك فلست تقرؤه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من جعل القرآن أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله وراء ظهره ساقه إلى النار. . . » الحديث .

وقال عليه الصلاة والسلام : « النار إلى فسقة القراء أسرع

منها إلى عبدة الأوثان » . وورد « أن القرآن غريب في جوف الظالم ، وأنه كم من قارىء يقرأ القرآن ، والقرآن يلعنه » يعني لمخالفته له وعمله على خلاف ما يدعوه إليه . وبلغنا أنه يؤمر بأناس من حملة القرآن إلى النار قبل عبدة الأصنام ، فيقولون : أَيُبْدَأُ بنا قبل عبدة الأصنام؟ فيقال لهم : ليس من يعرف كمن لا يعرف .

وفي بعض الآثار : أن قارىء القرآن إذا ركب المعاصي يناديه القرآن في جوفه : أين زواجري؟ أين قوارعي؟ أين مواعظي؟! . الأثر إلى آخره .

وقال ميمون بن مهران رحمه الله تعالىٰ : إن أحدهم يقرأ القرآن وهو يلعن نفسه ، قيل له : وكيف ذلك؟ قال : يقرأ : ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران : ٣/ ٦١] . وهو يكذب .

﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود : ١١/ ١٨] . وهو يظلم .

وفي الحديث : « إن المنافق الذي يقرأ القرآن مَثَلُه مَثَلُ الريحانة ريحها طيب وطعمها مُرّ » . وفيه أيضاً : « أن أقواماً يقرؤون القرآن كما أُنزل ، وأنه لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة » . نسأل الله تعالى اللطف والعافية ، والتوفيق للتمسك بكتابه ، والعلم به والفهم فيه ، والعمل بما أرشد إليه ، مع حسن الخاتمة وحسن العاقبة في الأمور كلِّها لنا ولأحبابنا وللمسلمين .

* * *

ومن القربات العظيمة والفضائل الجسيمة : تعلم القرآن الكريم وتعليمه ، وذلك من فروض الكفايات المتأكدات . وقد قال رسول الله ﷺ : « خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه » .

وسئل سفيان الثوري رحمه الله تعالى ، فقيل له الرجلُ يتعلم القرآن أحبُّ إليك ، أو يغزو في سبيل الله؟ فقال : بل يتعلم القرآن .

* * *

الإكثار من قراءة القرآن

وينبغي للقارىء لكتاب الله : أن يستكثر من تلاوته آناء الليل والنهار ، مع التدبُّر والترتيل ، وغاية الأدب والاحترام . وليحذر كل الحذر من هجران التلاوة ، وترك تعهد القرآن! فيتعرض بذلك لنسيانه الذي هو من أعظم الذنوب ؛ ففي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام : « عُرِضت عليَّ ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها . . . » الحديث . وفي حديث آخر : « إن الذي ينسى القرآن بعد حفظه يلقى الله يوم القيامة وهو أجذم » .

وقد أمر عليه الصلاة والسلام صاحب القرآن بتعهده ، وأخبر أن القرآن أسرع تفلُّتاً من صدور الرجال من الإبل من عُقُلها .

وقد كان للسلف ـ رحمهم الله ـ عنايةٌ تامة بقراءة القرآن ،

ولهم في ذلك عادات مختلفة ؛ فمنهم من كان يختم في كل شهر ختمة ، ومنهم في كل عشر ليال ، وفي كل ثمان ليال ، وفي كل سبع ، ومنهم في كل ثلاث ، ومنهم من كان يختم في كل يوم وليلة ختمةً .

وختم بعضهم في اليوم والليلة ختمتين وبعضهم أربعاً ، وانتهى بعضهم إلى الختم في اليوم والليلة ثمان ختمات .

قال الإمام النووي رحمه الله : وهذا أكثر ما بلغنا ، يعني الختم في اليوم والليلة ثمان مرات . وكره بعضهم الختم في أقل من ثلاثة أيام ، أعني المداومة على ذلك . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث » .

* * *

وينبغي لصاحب القرآن : أن يجعل له وِرْداً من القرآن يقوم به في صلاته من الليل ؛ فيتتبع القرآن من أوله حتى يختمه في صلاته من الليل ؛ إما في كل شهر ، أو في كل أربعين ، أو أقل أو أكثر حسب النشاط والتيسير ، ولا يترك ذلك ولا يكسل عنه ؛ فقد ورد في الحديث : « أن القرآن والصوم يشفعان في العبد عند الله ؛ فيقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفِّعني فيه . ويقول الصوم : منعته من الطعام بالنهار فشفِّعني فيه فيُشفَّعان » . وقد قال تعالىٰ : ﴿ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ

﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

[آل عمران : ٣/ ١١٣ـ١١٤] .

فيتأكد على القارىء للقرآن أن يقوم من الليل ، وأن يقرأ في صلاته بالليل ما تيسّر من القرآن ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل : ٧٣/ ٢٠] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطِرين » .

قال العامري رحمه الله في « بهجته » : ينبغي لقارىء القرآن أن يقرأ في كل شهر ختمتين ، ختمةً بالليل في القيام من الليل ، وختمةً بالنهار .

قال : وهذا شيء سهل ، والمداومة عليه متيسرة . وصدق رحمه الله ، والموفَّق من وفقه الله تعالى .

* * *

وينبغي لمن أراد أن يختم القرآن : أن يختمه من أول الليل أو من أول النهار ؛ حتى يتسع وقت صلاة الملائكة عليه ، فإنه ورد في بعض الآثار : أن من ختم القرآن أيةَ ساعة من الليل صلَّت عليه الملائكة حتى يصبح ، وأيةَ ساعة من النهار صلت

عليه الملائكة حتى يمسي . وفي صلاة الملائكة على العبد كل خير ، وكل سعادة له . ومعنى صلاتهم عليه : استغفارهم له ، ودعاؤهم له بالخير .

* * *

وليكثر من الدعاء عند الختم ، فإنها ساعة شريفة مباركة ، ومن المواطن التي يستجاب فيها الدعاء وتتنزل الرحمة .

قال الإمام النووي رحمه الله : وينبغي أن يكون أكثر دعائه عند الختم في صلاح أمور المسلمين . وذَكَر طرفاً من الأدعية التي ينبغي أن يُدعَىٰ بها عند ختم القرآن ، وذلك في كتاب « التبيان » له ، وهو كتاب جليل نفيس ، جمع فيه من آداب حملة القرآن وقراءته قدراً صالحاً ، لا يستغني حامل القرآن عن معرفته والوقوف عليه .

* * *

ومما ينبغي المداومة عليه والتمسك به لاسيّما في هذه الأزمنة المباركة : الحزب المبارك الذي تُعتاد قراءته ، والمواظبة عليه في كثير من البلدان ، وإقامته في المساجد بين المغرب والعشاء وبعد صلاة الفجر ، وهو معروف بحزب الأسبوع . يفتتح ليلة الجمعة ويختم يوم الخميس ، وقد رُوي عن عثمان رضي الله عنه أنه كان يفتتح القرآن ليلة الجمعة ويختمه ليلة الخميس . فهذا الحزب موافق لما روى عنه من

حيث الابتداء والختم . وأما من حيث توزيع القراءة وقسمة الأسباع فهو أيضاً على مثل هذه القسمة أو قريب منها ، منقول عن عثمان رضي الله عنه وعن غيره من السلف .

قال الفقيه أبو عبد الله بن عباد شارح الحِكَم رحمه الله تعالى عند ذكره لحزب الأسبوع في بعض « رسائله » : هو من البدع الحسنة ، ويتأكد التمسك به في مثل هذه الأزمنة التي ضعفت فيها شعائر الدين . انتهى كلامه بمعناه ، والأمر كما ذكره رحمه الله .

ولكن ينبغي للمداوم على هذا الحزب المبارك ألا يغفل عن أدبين قد أغفلهما كثير من المواظبين عليه .

أحدهما : أن لا يقتصر من تلاوة القرآن على قراءة هذا الحزب فقط ، فإنه في الأكثر يُقرأُ في جماعة وقد يكثرون فيكون نصيبه منه الذي يقرؤه شيئاً يسيراً .

والثاني من ـ الأَدبيْن ـ : أن لا يفعل كما يفعل بعض الغافلين ، وهو أن بعضهم ينعس في حال القراءة حتى لا يشعر بالمُقْرِإِ الذي يدور عليه حتى يوقظوه له . وبعضهم يأخذ في الحديث والكلام فيما لا يعني مع صاحبه القريب منه ، حتى يأتيه المقرأُ . وهذا مما لا ينبغي ! بل هو مكروه ومستقبَح ، سيّما إذا كانَ ذلك في المساجد ، والكلامُ فيها بغير ذكر الله وتلاوة كتابه شديد الكراهة . وقد ورد : الكلام في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

ونبهنا على هذين الأدبَين لأنّا رأينا كثيراً من قُراء هذا الحزب يغفلون عنهما . والذي يُقرَأ عليه كتاب الله وهو ينعس أو يلغو حاله مشكل ، وأمره مخطر ؛ لأنه يصير كالمعرِض عن كتاب الله تعالى واللاهي عنه . فليحذر من يتقي الله ويعظم حرماته من ذلك .

* * *

وينبغي لمن لا يحفظ كتاب الله تعالى : أن يكثر من استماعه ومن الإصغاء عند قراءته ؛ قال تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف : ٧/ ٢٠٤] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من استمع إلى آية من كتاب الله كُتبت له حسنة مضاعفة . ومن قرأها كانت له نوراً يوم القيامة » ، وليس طلب الاستماع خاصاً بمن لا يقرأ القرآن ، بل هو عام لكل أحد من قارىء وغيره ؛ وقد قال رسول الله ﷺ لابن مسعود رضي الله عنه : « اقرأ عليّ . فقال له : كيف أقرأ عليك وعليك أنزل! فقال عليه الصلاة والسلام : إني أحب أن أسمعه من غيري » فقرأ عليه من أول سورة النساء . . . الحديث .

واستمع عليه الصلاة والسلام إلى قراءة أبي موسى ، وإلى قراءة سالم مولى أبي حذيفة ثم قال : « الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله » . وإلى قراءة ابن مسعود أيضاً هو وأبو بكر

وعمر ثم قال : « من سرّه أن يقرأ القرآن رَطْباً كما أنزل ، فليقرأ على قراءة ابن أم عَبْد » ؛ وهو ابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين .

فضائل سور وآيات معينة

ومما ينبغي المحافظة عليه ويتأكد : قراءة السُّوَر والآيات التي وردت الأخبار بفضائلها ، وجزالة الثواب في تلاوتها ، والحثّ على المواظبة عليها في بعض الأوقات .

فمن ذلك : قراءة سورة الكهف يوم الجمعة وليلة الجمعة ؛ ففي الحديث : « إن من قرأها غفر له إلى الجمعة الأخرى ، وسطع له نور من قدمه إلى عَنان السماء » وفي رواية : « أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق » وورد : « أن من حفظ عشر آيات من أول الكهف ثم خرج الدجال عصم من فتنته » .

وقال عليه الصلاة والسلام في سورة البقرة : « اقرؤوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطَلة » . وورد : « أن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يقربه شيطان ثلاثاً » .

ومن ذلك : قراءة سورة يس المباركة ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « يس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له » وورد : « أن من قرأها كان كمن قرأ القرآن عشر مرات » .

ومن ذلك : قراءة سورة تبارك المُلك كل ليلة ، قال عليه الصلاة والسلام : « هي النافعة والمنجية من عذاب القبر » ووَدَدْتُ أنها في قلب كل مؤمن ، وأنها شفعت في رجل فغفر له .

وكان عليه الصلاة والسلام لا ينام كل ليلة حتى يقرأ الٓمٓ السجدة ، وتبارك المُلك .

ومن ذلك : قراءة سورة (الدخان) ، قال عليه الصلاة والسلام : « من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح مغفوراً له » .

وقال في سورة (الواقعة) : « من قرأها كل ليلة لم تصبه فاقة » .

وقال في سورة (إذا زلزلت) : « إنها تعدل نصف القرآن » .

وفي سورة (ألهاكم التكاثر) : « إن من قرأها كان كمن قرأ ألف آية » .

وفي (قل هو الله أحد) : « إنها تعدل ثلث القرآن ، وأن من قرأها عَشْرَ مرات بني له قصر في الجنة » . وورد الحثُّ على قراءتها بعد كلّ صلاة عشرَ مرات ، وعند الصباح وعند المساء وعند النوم . ووردت قراءتها مع المعوِّذتين ثلاث مرات . وفي ذلك حفظٌ من الآفات وكفايةٌ لجميع المهمات .

وقال عليه الصلاة والسلام في الفاتحة : « إنها أعظم سورة

في القرآن ، وأنها السبع المثاني والقرآن العظيم ، وأنها أنزلت هي وآية الكرسي وخواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش . وأن الفاتحة لِمَا قرئت له ، وأنها رُقية حق » .

وورد في آية الكرسي أنها : سيدة آي القرآن ، وأن من قرأها بعد كل صلاة مكتوبة لم يكن بينه وبين دخول الجنة إلا أن يموت ، وأن من قرأها عند النوم لم يقربه شيطان حتى يصبح .

وورد : « أن من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » . وقال عليه الصلاة والسلام : « علموهما نساءكم وأبناءكم فإنهما صلاة وقرآن ودعاء . . . » الحديث . وقال عليّ رضي الله عنه : ما أعلم أحداً يعقل دخل في الإسلام ينام حتى يقرأ بالثلاث الآيات من آخر سورة البقرة ، يعني : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢/ ٢٨٤-٢٨٦] .

وأما الآيتان المذكورتان في قوله عليه الصلاة والسلام : « من قرأ بهما في ليلة كَفتاه » فهي من قوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢/ ٢٨٥-٢٨٦] .

قال العلماء في معنى قوله عليه الصلاة والسلام « كفتاه » : أي كفتاه ما أهمه ، أو كفتاه من قيام الليل .

قال الإمام النووي رحمه الله : يجوز أن يكون المراد « بكفتاه » : أي ما أهمه ، ومن قيام الليل جميعاً . انتهى بمعناه .

وهذا الباب منتشر ، وما ورد فيه كثير معروف عند أهل العلم . والقصدُ الإشارة إلى بعض المُهم من ذلك ؛ ليتمسَّك به الراغبون في الخير فيفوزوا بما ترتّب عليه من جزيل الثواب ، ومن الحفظ والكفاية للآفات ، والله الموفق والمعين ، لا ربَّ غيره ولا إلـه سواه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

فضل ذكر الله

واعلموا معاشر الإخوان ـ جعلنا الله وإياكم من الذاكرين له كثيراً ، ومن الذين لا تُلهيهم أموالهم ولا أولادهم عن ذكر الله ـ : أن الذِّكر لله تعالىٰ من أعظم الأوامر ، وأفضل القربات وأوصل الوسائل ؛ قال الله عزَّ من قائل : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : ٢/ ١٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣/ ٤١ـ٤٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧/ ٢٠٥] .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ١٣/ ٢٨] .

وقال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إليّ شِبْراً تقرّبت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هَرْوَلة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعِها في درجاتكم وخيرٍ لكم من إنفاق الذهب والوَرِق ، ومن أن تلقَوْا عدوَّكم فيضربوا أعناقكم وتضربوا أعناقهم ؟ قالوا بلى ، قال : ذكر الله » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما عمل ابن آدم عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لَذِكْرُ الله بالغداة والعشيّ أفضلُ من حَطْم السيوف في سبيل الله تعالى ، ومن إعطاء المال سَحًّا »[1] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَثَل الذي يذكر الله والذي لا يذكره مَثَلُ الحيّ والميت ، وَمَثَلُ الشجرة الخضراء بين الشجر اليابس . وذاكِرُ الله في الغافلين كالمقاتل بين الفارِّين » .

وما ورد في الأمر بالذكر وفي فضله من الآيات والأخبار يطول ذكره ويتعذّر حصره .

* * *

قال العلماء رحمهم الله : أفضلُ الذكر ما كان بالقلب واللسان جميعاً . وذكرُ القلب على انفراده أفضلُ من ذكر اللسان على انفراده . انتهى .

قلت : ومعنى ذكر القلب : أن تكون صورةُ الذكر الجاري على اللسان حاضرةً فيه وجاريةً عليه ؛ مثل : ما إذا قال الذاكر بلسانه : لا إلـه إلا الله ، يكون كذلك قائلاً لها بقلبه . وقد يكون معنى ذكر القلب بأن يكون معنى الذكر الجاري على اللسان حاضراً فيه ؛ مثل : أن يقول بلسانه : لا إلـه إلا الله ،

(١) السّح : الصّبّ والسّيلان من فوق .

ويكون معنى هذه الكلمة الشريفة الذي هو انفراد الحق بالإلـٰهية حاضراً في القلب . والله أعلم .

قال حجة الإسلام رحمه الله : الذكر على أربع مراتب :

الأولى : ذكر اللسان فقط .

والثانية : ذكر القلب مع اللسان تكلّفاً .

والثالثة : ذكر القلب طبعاً وحضورهُ مع اللسان من غير تكلف .

والرابعة : استيلاء المذكور على القلب واستغراقه به .

قال : والمرتبة الأولى قليلة النفع وضعيفة الأثر ، يعني بها ذكر اللسان مع غفلة القلب . انتهى كلامه بمعناه .

ولا شك أن ذكر اللسان مع غفلة القلب قليل الفائدة والنفع ، ولكنه خير من ترك الذكر رأساً .

قيل لبعض العارفين : إنا لنذكر الله ولا نجد حضوراً ؟ فقال : احمدوا الله الذي زيّن جارحةً من جوارحكم بذكره يعني بها اللسان .

فينبغي لمن أخذ في الذكر بلسانه أن يتكلّف إحضار قلبه مع اللسان ، حتى يصير ذاكراً بهما جميعاً تكلُّفاً في أول الأمر ، ثم لا يزال يواظب على ذلك حتى يذوق القلبُ لذَّة الذكر ، وتشرق عليه أنواره ؛ فعند ذلك يحضر بلا تكلف ولا مؤونة ، بل ربما صار إلى حالة لا يمكنه معها الصبر عن الذّكر ، ولا الغفلة عنه .

آداب الذكر

ثم اعلموا رحمكم الله : أن للذكر آداباً ، وأن حضور القلب مع اللسان حالَ الذكر هو أهمها وآكدها ، فعليكم به . فإن الذاكر لا يكاد يصل إلى شيء من فوائد الذكر وثمراته المقصودة إلا بالحضور .

ومن آداب الذكر : أن يكون الذاكر لله على أكمل الآداب وأحسن الهيئات ظاهراً وباطناً ، وأن يكون على طهارة ونظافة تامّةٍ ، وأن يكون في حال ذكره خاشعاً لله ، معظِّماً لجلاله ، مستقبلاً للقبلة ، مطرِقاً ساكنَ الأطراف كأنه في الصلاة .

ثم إن المطلوب من العبد : أن لا يزال ذاكراً لله في جميع أحواله وعلى دوام أوقاته ، فإن أمكنه الدوام على هذه الآداب التي ذكرناها ، من الطهارة والاستقبال وغيرهما في دوام أحواله ؛ كما هو شأن أرباب الخلوة والانقطاع إلى الله تعالى فعل وداوم . وإن لم يمكنه الدوام على ذلك ـ وهو الأكثر والأغلب ـ فينبغي له أن يجعل له وقتاً معيَّناً يجلس فيه للذكر ، متأدِّباً بهذه الآداب التي ذكرناها ، وبما في معناها مما لم نذكره ، ثم لا يزال في بقية أوقاته ذاكراً لله : قائماً وقاعداً ومضطجعاً من غير حَدّ ولا تقييد ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء : ٤/ ١٠٣] .

* * *

ولْيحذر من الغفلة عن الذكر في وقت من الأوقات ؛ فإن الغفلة عن ذكر الله كثيرة الضرر ، قال النَّبي ﷺ : « من قعد

مقعداً لم يذكر الله تعالى فيه إلا كانت عليه من الله تِرَة ، ومن اضطجع مضطجَعاً لم يذكِر الله تعالى فيه إلا كانت عليه من الله تِرة ، ومن مشى ممشًى لا يذكر الله تعالى فيه إلا كانت عليه من الله ترة » . انتهى . ومعنى الترة : الحسرة . وقيل التّبِعة . وربما تسلّط الشيطان على الغافل ، واستولى عليه بسبب غفلته عن ذكر مولاه ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : ٤٣/٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ [المجادلة : ٥٨/١٩] .

ومن شأن المؤمن أن يذكر ربّه كثيراً . كما أن وصف المنافق أن لا يذكر ربه إلا قليلاً ؛ قال الله تعالى في وصف المنافقين : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ٤/١٤٢] .

وفي ملازمة الذكر والمداومة عليه طردٌ للشيطان ، وقطع لوسوسته ؛ كما ورد : « إن الشيطان جاثم على قلب العبد ؛ فإذا ذكر اللهَ خنس ، وإذا غفل وسوس له » .

فتنبغي وتتأكد المواظبةُ والملازمةُ لذكر الله على دوام الأوقات ، وفي عموم الأحوال ؛ قال عليه الصلاة والسلام للرجل الذي قال له : يارسول الله ، قد كثرت عليّ شرائع الإسلام ، فمُرْني بشيء أتشبّث به . فقال له : « لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله » .

وقد عدَّ العلماء ـ رحمهم الله ـ من فضائل الذكر وأرجحيّته على غيره من الأعمال الصالحة : أنه تُمكِنُ المداومة عليه في جميع الأوقات والأحوال ؛ لأنه غير مؤقَّت بوقت ، بل هو مأمور به على الدوام ، ويتعاطاه المحدِث والجُنب ، والمشغولُ والفارغ . ولا هكذا غيره من الصلاة والصوم والتلاوة ؛ فإن لها شرائطَ تتوقّف عليها ، وأوقاتاً لا تصح إلا فيها . وأفضلُ الأعمال الصلاةُ وهي ممنوعة في نحو ثلث النهار : من بعد صلاة الصبح إلى ارتفاع الشمس ، ومن بعد صلاة العصر إلى الغروب . والصوم ممنوع إلا في النهار . وقراءةُ القرآن الكريم ممنوعةٌ على صاحب الجنابة وغير محبوبة من صاحب الأشغال التي تُفرِّق القلب بحيث لا يجتمع معها قلبه ؛ وذلك لحرمة القرآن وجلالته ، وأما الذكر فقد وسّع الله تعالى الأمر فيه رحمةً لعباده ومِنّةً عليهم ، ومع ذلك فالمؤونة فيه قليلة ، والكلفة خفيفة بالنسبة إلى غيره . فَفَضَلَ الذكرُ من هذه الحيثيّات غيرَه من الأعمال ، وإن كان لبعضها فضل عليه من حيثيات أخرى .

فمن خصوصيات الذكر خفّة المؤونة فيه مع فضله ، وأنه يمكن المداومة عليه ؛ حتى إنه ينبغي لمن يكون على حالة يكره له فيها أن يذكر الله بلسانه ؛ مثل : الخلاء والجماع ، أن لا يغفل عن ذكر الله بقلبه ، كذلك قال العلماء بالله رحمهم الله .

فلا تزل ـ رحمك الله ـ ذاكراً وإن كنت صانعاً ومحترفاً وملابساً لشيء من أشغال الدنيا ، فلازم الذكر مع ذلك بقلبك وبلسانك حسب الإمكان .

وإن ذكرت الله تعالى في سِرّك ، وبحيث تُسمِع نفسك فقد أصبت وأحسنت ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « خير الذكر الخفِيّ ، وخير الرزق ما يكفي » وفي الآية الكريمة : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧/ ٢٠٥] .

وإن جهرت بالذكر مع الإخلاص لله فيه ، ولم تشوش بسبب ذلك على مُصَلٍّ ولا قارىء بحيث تَخلِط عليه صلاته وقراءته ولا بأس بالجهر ، فلا منع منه بل هو مستحب ومحبوب .

* * *

وإن كان ذلك مع جماعة اجتمعوا لذكر الله على وفق ما ذكرناه من الإخلاص وعدم التشويش على المصلين والتالين ونحوهم ، فذلك مندوب إليه ومرغَّب فيه ، وقد وردت بفضله الأخبار .

قال عليه الصلاة والسلام : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يذكرون الله تعالى يريدون بذلك وجه الله تعالى إلاّ غَفَر لهم ، وبدّل سيئاتهم حسنات » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما قعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفّتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قيل : وما رياض الجنة ؟ قال حِلَقُ الذكر . وفي رواية مجالس الذكر » ، وورد في الحديث الطويل الذي أوله : « إن لله ملائكةً سيّارةً في الأرض يطلبون مجالس الذكر . ثم ساق الحديث إلى أن قال في آخره ، فيقول الله للملائكة : أُشهدكم أني قد غفرت لهم - أي للذاكرين - وأعطيتهم ما يسألون ، وأعذتهم مما يستعيذون ، فتقول الملائكة فيهم فلان عبدٌ خَطَّاءٌ وإنما مرَّ فجلس معهم ، فيقول تعالى : هم القوم لا يَشقَى بهم جليسهم . . . » الحديث ، وهو مشهور .

* * *

وقد اختار جماعة من أهل طريقة التصوُّف الجهرَ بالذكر ، والاجتماعَ لذلك ، ولهم في ذلك طرائقُ معروفةٌ . واختار آخرون الإسرارَ به ؛ والجميعُ على خير من ربّهم ، وسداد من طرائقهم رحمهم الله ونفع بهم . ثم إن أهل هذه الطريقة أعني طريقة التصوف لا يعدلون بالذكر لله شيئاً ، وعليه تعويلهم ، وفيه شغلهم بعد إقامة الفرائض واجتناب المحارم ، وبه يأمرون المريد والسالك لطريقهم ، ويأخذون عليه العهد بالمداومة

عليه والملازمة له ؛ مع شرائط وآداب لهم في طريقهم ، الذكرُ لله أهمها وآكدها .

أنواع الذكر

والذكر على أنواع كثيرة ، ولكل نوع منها فضل وثواب عظيم ، وفيه فوائِد ومنافع جمة ؛ وله ثمرات وآثار شريفة .

فمن أنواع الذكر بل هو أشرفها وأفضلها : « لا إلـٰه إلاّ الله » قال النَّبي ﷺ : « أفضل الذكر لا إلـٰه إلا الله . وأفضلُ الدعاء الحمدُ لله » وقال عليه الصلاة والسلام : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إلـٰه إلا الله » . وقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن الله تعالى : « لا إلـٰه إلا الله حِصني ، ومن دخل حِصني أَمِنَ من عذابي » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « جدِّدوا إيمانكم . قالوا : وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إلـٰه إلا الله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « سبحان الله نصف الميزان ، والحمد لله تملؤه ، ولا إلـٰه إلا الله ليس لها دون الله حجاب » .

وورد : أن عموداً من نور واقفٌ بين يدي الله تعالى ؛ فإذا قال القائل : لا إلـٰه إلا الله ، اهتز ذلك العمود ، فيقول الله تعالى : اسكن فيقول : كيف أسكن ولم تغفر لقائلها ، فيقول الله تعالى : قد غفرت له . فيسكن .

وورد أيضاً : أن العبد إذا قال : لا إلـٰه إلا الله ، لم تمرّ

لا إلـه إلا الله على سيئة في صحيفته إلا محتها ، حتى تجد حسنةً فتسكن إلى جنبها .

وورد أيضاً : « أنه لو كانت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن في كِفّة ، ولا إلـه إلا الله في كفة لرجحت بهن لا إلـه إلا الله » . وما ورد في فضل هذه الكلمة كثير شهير ، والقصدُ الإشارة دون الاستقصاء . ويكفي في معرفة فضلها أنها الكلمة التي يدخل بها الإنسان في الإسلام ، ومن خُتم له عند الموت بها فاز بالسعادة الأبديّة التي لا شقاوة بعدها . اللَّهمَّ يا كريم : نسألك أن تحِيِيَنا وتميتَنا وتبعثَنا على قول « لا إلـه إلاّ الله » مخلصين ، ووالدينا وأحبابنا والمسلمين . آمين .

وقال صلى الله عليه وسلم : في « لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، من قالها عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل عليه السلام » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من قال لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، في يوم مائة مرة ، كانت له عِدْلَ عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومُحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حِرْزاً من الشيطان يومَه ذلك حتى يمسي .

ولم يأت أحد بأفضلَ مما جاء به إلا رجلٌ عَمِل أكثر منه » .

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً : « من قال لا إلـٰه إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لم يسبقها عمل ، ولا تبقىٰ معها خطيئة » .

* * *

ومن أفضل أنواع الذكر وأجمعها قول : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر » فقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام : « أنها خير الكلام وأحبه إلى الله تعالى » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لأن أقول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر ، أحبُّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لَقِيت إبراهيمَ عليه السلام ليلةَ أُسري بي فقال : يا محمد ، اقرأ على أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيّبة التُّرْبة ، عذبة الماء ، وأنها قِيعان[1] وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » . وقال عليه الصلاة والسلام في هذه الكلمات الأربع : « من قالهن غُرست له بكل واحدة منهن شجرة » ؛ أي : في الجنة . وقال عليه الصلاة والسلام لأبي

---

(١) جمع قاع ، وهو في الأصل : المكان المستوي الواسع في وطأة من الأرض يعلوه ماء السماء فيمسكه ، ويستوي نباته .

الدرداء رضي الله عنه : « قل سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ؛ فإنهن الباقيات الصالحات ، وهنّ يَحططن الخطايا كما تحطُّ الشجرة ورقها » .

وقال عليه الصلاة والسلام في : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم : « إنها كنز من كنوز الجنة ، وإنها دواءٌ من تسعة وتسعين داء أدناها الهَمّ » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من كانت لله عليه نعمةٌ وأحبَّ بقاءها فليُكثر من : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

ومن أنواع الذكر الفاضلة قول : سبحان الله وبحمده ، قال عليه الصلاة والسلام : أحبُّ الكلام إلى الله تعالى ، سبحانَ الله وبحمده » وسئل عليه الصلاة والسلام : أيُّ الكلام أفضلُ ؟ قال : « ما اصطفى الله لملائكته : سبحانَ الله وبحمده » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من قال سبحان الله وبحمده غُرست له نخلةٌ في الجنة . ومن قالها مائة مرة كُتبت له ألفُ حسنة ، وحُطّت عنه ألفُ خطيئة » . وقال ﷺ : « من قال حين يصبح وحين يمسي : سبحان الله وبحمده مائة مرة ، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضلَ مما جاء به إلا أحدٌ قال مثل ما قال أو زاد عليه » . وقال عليه الصلاة والسلام : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحانَ الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

وعن أم المؤمنين جُوَيْرية رضي الله عنها : أن النَّبي ﷺ خرجَ من عندها ثم رجع بعد أن أضْحَى وهي جالسة تسبِّح فقالَ : « مازلت على الحالة التي فارقتك عليها ؟ قالت نعم . قال النَّبي ﷺ : لقد قلتُ بعدك أربعَ كلمات (ثلاث مرات) لو وُزنت بما قلتِ منذُ اليوم لوَزنتهنّ : سبحانَ الله وبحمده عددَ خلقه ، ورِضَا نفسِه ، وزِنَةَ عرشِه ، ومِداد كلماته » .

فضل الاستغفار

ومن أنواع الأذكار الكثيرة الخير والبركة ، العظيمة الفضل والثواب : الاستغفار ، والصلاة على النبي المختار ، والدعاء .

أما الاستغفار فقال الله عز من قائل في فضله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٨/ ٣٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود : ١١/ ٣] .

وقال تعالى فيما حكاه عن نبيّه نوح عليه السلام : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾

[نوح : ٧١/ ١٠-١٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٤/ ١١٠] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من لزم الاستغفارَ جعل الله

له من كل هَمّ فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقَه من حيث لا يحتسب » . وقال عليه الصلاة والسلام : « طُوبَى لمن وجد في صحيفته إستغفاراً كثيراً » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من قال أَستغفر الله في يوم سبعين مرةً غفر الله له سبعمائة ذنب ، وقد خاب عبد أو أمة يذنب في يوم وليلة أكثرَ من سبعمائة ذنب » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « الا أخبركم بدائكم ودوائكم ، ألاَ إنَّ داءكم الذنوبُ ، ودواءَكم الاستغفارُ » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « قال إبليس : وعِزّتِك وجلالِك يا ربّ لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحُهم في أجسادهم . فقال الله : وعِزّتي وجلالي لا برحتُ أغفر لهم ما استغفروني » .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : كنا نَعدّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد (مائة مرة) : « ربّ اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم » .

فعليك ـ رحمك الله ـ : بالإكثار من هذا الذكر المبارك ، الذي كان من رسول الله ﷺ بهذه المنزلة .

وبلغنا أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله رُئيَ بعد موته في المنام فذكر : أن الله نفعه كثيراً بكلمات سمعها من سفيان الثوري رحمه الله ، وهي هذه : اللّهم يا ربَّ كلِّ شيء ،

بقدرتك على كل شيء ، اغفر لي كل شيء ، ولا تسألني عن شيء . انتهى بمعناه .

فعليك أيضاً : بالإكثار من هذه الكلمات المباركات .

ومن المأثور : أن مَنِ ٱستغفر الله كل يوم للمؤمنين والمؤمنات (سبعاً وعشرين مرّةً) صار من العِباد الذين بهم يُرحم الخلق ، وبهم يُمطرون ويرزقون . وهذه صفة الأبدال من رجال الله وعباده الصالحين .

فضل الصلاة على النبي

وأما الصلاة على رسول الله ﷺ ففضلها عظيم ، ونفعها في الدنيا والآخرة للمكثرين منها كثير ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٣٣/٥٦] .

فناهيك بما نصّ الله عليه في هذه الآية تشريفاً لنبيه وتعظيماً ، وحثًّا لعباده المؤمنين على الصلاة والتسليم عليه وتحريضاً .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من صلَّى عليَّ واحدة صلى الله عليه عشراً » .

قال بعض العلماء المحققين رحمهم الله : لو صلى الله على العبد في طول عمره مرة واحدة لكفاه ذلك شرفاً وكرامة ؛ فكيف بعشر صلوات على كل صلاة يصليها المسلم على نبيه ؟! انتهى .

فالحمد لله على عظيم فضله وجزيل عطائه .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من صلّى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشر صلوات ، ورفع له بها عشر درجات ، وكتب له بها عشر حسنات ، وحط بها عنه عشر خطيئات » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاةً » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من قال اللَّهم صلِّ على محمد ، وأنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي » وقال عليه الصلاة والسلام : « من قال جزى الله عنَّا محمداً ما هو أهله ، أتعب سبعين كاتباً ألفَ صباح » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « صلوا عليّ حيثما كنتم ، فإن صلاتكم تبلغني » .

وورد : « أن لله ملائكةً سيّاحين في الأرض يبلغونه عليه الصلاة والسلام صلاةَ من يصلي عليه من أمته » .

وورد : « أنه لا يسلّم عليه أحد من أمته إلا رد الله عليه روحه الشريفة حتى يَردَّ عليه » . قال الشيخ ابن حجر في « الدر المنضود » : ورُوِيَ عن النبي ﷺ أنَّه قال : « ما من أحد يسلِّم عليه إلا رَدَّ الله عليه روحه الشريفة حتى يرد عليه » .

وقد ورد في السلام عليه المضاعفة بالسلام من الله عشر مرات على المسلِّم عليه كما ورد في الصلاة .

وقال عليه الصلاة والسلام : « رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكرتُ عنده فلم يصلِّ عليّ . . . » الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام : « من ذُكِرْتُ عنده فأخطأ الصلاةَ عليّ أخطأ طريق الجنة » .

وقد أمر عليه الصلاة والسلام بالإكثار من الصلاة عليه في يوم الجمعة خصوصاً ، قال عليه الصلاة والسلام : « أكثروا من الصلاة عليّ يومَ الجمعة ، فإن صلاة أمتي تعرض علي في كل يوم جمعة : فأقربهم مني منزلة أكثرهم عليَّ صلاة » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « صلّوا علي في الليلة الغَرّاء واليوم الأزهر » ؛ يعني : ليلة الجمعة ويومها .

فينبغي لكل مؤمن : أن يكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ في دوام الأوقات ، وفي ليلة الجمعة ويومها خصوصاً . وليجعل السلام عليه مع الصلاة ؛ فقد أمر الله بهما جميعاً .

وفي الحديث عن الله تعالى أنه قال له عليه الصلاة والسلام : « من صلى عليك صلّيت عليه ، ومن سلَّم عليك سلمت عليه » .

وينبغي لمن صلّى وسلّم على نبيه : أن يصلِّي ويسلِّم على آله بعده ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام يحب لهم ذلك ، وقد وردت به الأحاديث . وجاء في بعض الآثار : أن الصلاة التي لا يُصَلَّى فيها على الآل تسمّى الصلاةَ البتراء . والله أعلم .

الدعاء وآدابه

وأما الدعاء : فقد أمر الله به وحثّ عليه ورغّب فيه ، فقال عزّ من قائل كريم : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٧/ ٥٥ـ٥٦]

وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ٧/ ١٨٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٤٠/ ٦٠] .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [غافر : ٤٠/ ٦٥] .

وقال النّبي ﷺ : « الدعاء هو العبادة » وقال عليه الصلاة والسلام : « الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يَردُّ القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البّر » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « الدعاء مُخُّ العبادة » ، وقال : « لا يهلك مع الدعاء أحد . والدعاء ينفع ممّا نزل وممّا لم ينزل » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة . واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ ساهٍ » .

وأمرَ عليه الصلاة والسلام بتعظيم المسألة وبجزمها . وأن لا يقول العبد : اللهم اغفر لي إن شئت . بل يَعزم المسألة ،

ويُعظم الرغبة ، ويلح في المسألة ، ويوقن بالإِجابة ، ويكون عند دعائه حاضر القلب مع ربّه ، خائفاً من الردّ من حيث غفلتُه عن مولاه ، وتقصيرُه في القيام بحقه وطامعاً في الإِجابة ونَيل الرغبة لكمال الجود وصدق الوعد .

وقد ورد : أن الله حَيِيٌّ كريم ، يستحي من العبد إذا رفع إليه يديه أن يردَّهما فارغتين .

وورد أيضاً : أنه لا يدعو الله داع إلا استجاب له ؛ فإما أن يعجِّل له ماسأل ، وإما أن يدفع عنه من البلاءِ أعظمَ من ذلك ، وإما أن يدّخر له في الآخرة ما هو أفضلُ وأكمل فينبغي للعبد أن لا يزال داعياً ومتضرّعاً في رخائه وشدته ، ويسره وعسره . ولا يستبطىء الإِجابة ولا ييأس ، فقد يكون لله تعالى سرٌّ وخيرة في تأخير بعض الأمور . ويكون للعبد في ذلك صلاح ونفع من حيث لا يشعر ؛ فليدْعُ ويفوِّضْ .

وكلما سأل ربه شيئاً فليسأل معه اللُّطفَ والعافية وصلاحَ العاقبة . وليسألِ الله كلَّ ما يشاء مما فيه رضاه من أمور الآخرة والدنيا ، ومن كل جليل وحقير .

ولا يغفل عن أكل الحلال ؛ فإنه من أهم الشرائط لاستجابة الدعاء ، كما ورد في الحديث الصحيح : « ثم ذكَر الرجلَ يطيل السّفَر ، أشْعَثَ أَغْبر يمد يديه إلى السماء ، يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّيَ بالحرامِ ،

فأنّى يستجاب لذلك »! وقال بعض السلف : الدعاء كالمفتاح ، وأسنانه لُقَم الحلال . انتهى .

وينبغي للإنسان أن لا يغفل عن الدعاء في أوقات الشدة والرخاء . قال عليه الصلاة والسلام : « تعرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرفْك في الشدة » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « مَن سرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكُرب فليكثر من الدعاء في حالة الرخاء » .

وبالجملة : فالدعاء من أعظم ما أنعم الله به على عباده حين أمرهم به وحرضهم عليه ؛ حتى إنه عز وجل يغضب على من لم يسأله ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام : « من لم يسألِ الله تعالى يغضبْ عليه » .

وكما ينبغي للإنسان أن يدعو لنفسه بالخير وبالنجاة من الشر ، ينبغي له أن يدعو بمثل ذلك لوالديه ولأحبابه وللمسلمين .

وليحذر كل الحذر من الدعاء بالشر على نفسه أو على أولاده أو على ماله ، أو على أحد من عباد الله ، وإن ظلمه فلْيَكِلْ أمره إلى الله ، ولْيَرْضَ بنصرة الله تعالى له ، وفي الحديث : « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » .

ولا خير في الدعاء بالشر على ظالم ولا على غيره ، ولْيجعل بدل الدعاء عليه الدعاء له ، كما هي صفة عباد الله الرحماء .

* * *

وفي حديث عائشة رضي الله عنها : أنه كان عليه الصلاة والسلام يستحب من الدعاء الجوامع الكوامل ، ويَدَعُ ما سوى ذلك .

فمن الدعوات النبويات الجامعات : « اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة » ، « اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » ، « اللهم ارزقني طيباً واستعملني صالحاً » ، « اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي » ، « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى » ، « اللهم كما حسَّنت خَلْقي فحسِّن خُلُقي » ، « اللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي ، واجعل علانيتي صالحة » . « اللهم إني أسالك علماً نافعاً ، وأسألك رزقاً طيباً ، وأسألك عملاً متقبلاً » ، « اللهم اجعل خير عمري آخره ، وخير عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم لقائك » ، « اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه ، وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه » ، « اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا » ، « اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » .

ولْيفتتح الدعاء بالحمد لله والثناء عليه ، ثم بالصلاة والسلام على النبي وعلى آله ، وليختم دعاءه بمثل ذلك ، ثم ليقل بعده آمين . وليكثر العبد جداً من سؤال العافية في الدنيا والآخرة ، فقد ورد في الحديث : « أنه ما سُئل اللهُ شيئاً أحب

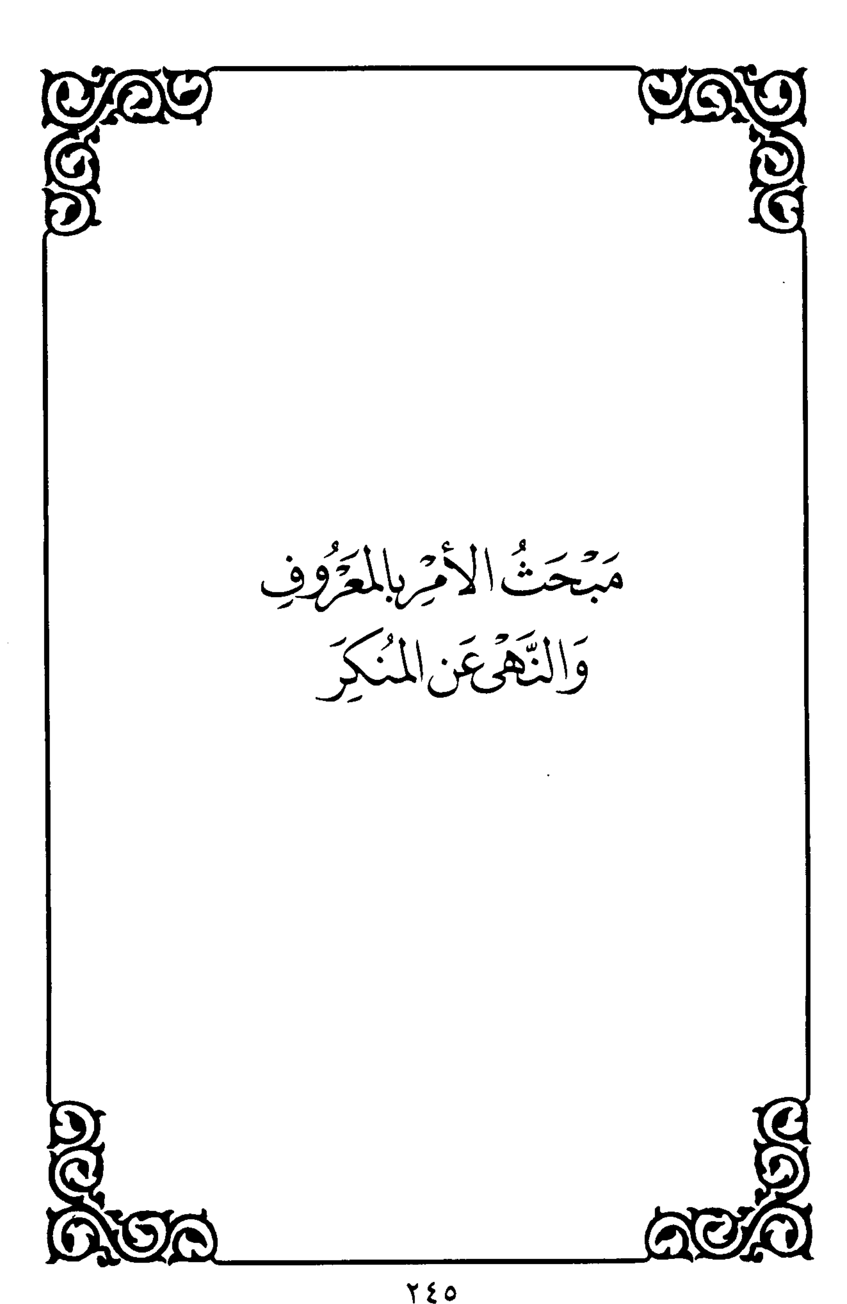
إليه من أن يُسألَ العافية في الدنيا والآخرة » ؛ فهي من أجمع الدعوات وأفضلها . والله ولي التوفيق .

ثم إنه قد ورد عن رسول الله ﷺ من الأذكار والأدعية المطلقة والمقيدة بالأوقات المتعاقبة ، والأحوال المتغايرة ما كثر وانتشر ، وقد رتبها عليه الصلاة والسلام لأمته ، ورغبهم فيها ؛ لتكون سبباً لهم إلى نيل الخير والخيرات ، والسلامة من الشر والآفات الواقعة بمشيئة الله تعالى في تلك الأحوال والأوقات . فمن حافظ عليها نجا وسلم ، وفاز وغنم . ومن فرَّط فيها وأهمل العمل بها فلا يلومنَّ إلا نفسه . وما ربك بظلام للعبيد .

وقد جمع الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في « كتاب الأذكار » له ، جملة مستكثرة من ذلك ، وضم إليها من الإيضاح والبيان ، ونفائس الأحكام ، ومهمات الفوائد ما يطمئن به القلب ، وينشرح له الصدر شكر الله سعيه ، وجزاه عن المسلمين خيراً .

وذكر أيضاً صاحب « عدة الحصن الحصين » فيها من ذلك طرفاً صالحاً رحمه الله . وقد جمعنا لأصحابنا من أذكار الصباح والمساء خاصة نبذة مختصرة مباركة إن شاء الله تعالى . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

* * *



مَبحَثُ الأمرِ بالمعرُوفِ
وَالنّهيِ عَن المنكرَ

واعلموا معاشر الإخوان ـ جعلنا الله وإياكم من القوَّامين بالقسط ، الآمرين به ـ : أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم شعائر الدين ، وأهم المهمات على المؤمنين ؛ وقد أمر الله بذلك في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ؛ وحث عليه ورغب فيه ، وشدد في تركه فقال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٠٤] .

وقال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١١٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩/ ٧١] .

وقال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : ٥/ ٧٨ـ٧٩] .

وقال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » وقال عليه الصلاة والسلام : « يا أيها الناس ، مروا بالمعروف وانْهَوْا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم ، وقبل أن تستغفروا فلا يُغفَرُ لكم » ، إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يدفع رزقاً ، ولا يقرب أجلاً ، وأن الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى لما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعنهم الله على لسان أنبيائهم ، ثم عُمُّوا بالبلاء . وقال عليه الصلاة والسلام : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

وسئل صلوات الله عليه عن خير الناس فقال : « أتقاهم للرب ، وأوصَلُهم للرحم ، وآمَرُهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر » .

* * *

وبلغنا أن الله تعالى عَذَّبَ قريةً فيها ثمانية عشر ألفاً ؛ أعمالهم كأعمال الأنبياء غير أنهم كانوا لا يغضبون لله . فقد تبيَّن واتضح أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا رخصة لأحد في تركهما عند القدرة والإمكان ، وأن من أضاع ذلك وتساهل فيه فهو متهاون بحق الله ، وغير معظِّم لحرماته كما ينبغي ، وقد ضعُف إيمانه وقلَّ من الله خوفه وحياؤه . فإن كان

سكوته رغبةً في الدنيا ، وطمعاً في الجاه والمال ، ويخشى أنه إذا أمر أو نهى سقطت منزلته ، وضعف جاهه عند من أمرَه أو نهاه من العصاة والظلَمة ؛ فقد عظُم إثمه ، وتعرض بسكوته لسخط ربه ومقته . فأما إذا سكت عن الأمر والنهي لعلمه أنه يحصل له إذا أمَرَ أو نهىَ مَكروهٌ في نفسه أو ماله ؛ فقد يجوز له السكوت إذا تحقق ذلك وكان المكروه الذي يحصل له شديداً وله وقع ظاهر . ولو أمر ونهى مع ذلك كان له أجر عظيم ، وثواب جزيل ، وكان ذلك منه دليلاً على محبة الله ، وإيثاره على نفسه ، وعلى نهاية الحرص على نصرته لدينه ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان : ٣١/ ١٧] .

وما أحسن حال العبد إذا ضُرِب أو حُبِس أو شُتِم بسبب قيامه بحقوق ربه ، وأمره بطاعته ، ونهيه عن معصيته ! ! ذلك دأبُ الأنبياء والمرسلين ، والأولياء والصالحين ، والعلماء العاملين ، كما هو منقول في أخبارهم ، ومعروف من سيرهم وآثارهم ، ولا خير في الجبن والضعف المانِعَيْنِ من نصرة الدين ، ومجاهدة الظالمين والفاسقين ، لردّهم إلى طاعة الله رب العالمين . فإن الغضب لله والغَيرة عند ترك أوامره ، وارتكاب نواهيه وزواجره ، شأنُ الأنبياء والصديقين ، وبذلك وصِفُوا ، واشتهروا وعرفوا ، كما ورد في الحديث : أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يغضب لنفسه ، فإذا انتهك شيء من

حرمات الله تعالى لم يقم لغضبه شيء ، وكما قال عليه الصلاة والسلام في حق عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « قوله الحق ، وماله في الناس من صديق » . وقال تعالى في وصف أحبابه من المؤمنين : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة : ٥/ ٥٤] .

فتبين أن المؤمن الكامل لا يقدر أن يملك نفسه عند مشاهدة المنكرات حتى يغيِّرها أو يحال بينه وبين ذلك بما لا طاقة له على دفعه . وأما المنافق ومن ضعف إيمانه جداً ، فإذا رأوا المنكرات تعلَّلوا وعذَرُوا أنفسهم بالأعذار الركيكة التي لا تقوم بها حجة عند الله وعند رسوله ﷺ . وتراهم إذا شُتِمُوا أو ظُلِمُوا بشيء من أموالهم يقومون أتمَّ القيام ويغضبون أشدَّ الغضب . ومن فعل معهم ذلك يخاصمونه ويصارمونه الزمان الطويل ، ولا يفعلون شيئاً من ذلك مع المصرِّين على الظلم والمنكر ، المضيِّعين لحقوق الله تعالى . وأن المؤمنين الصادقين على العكس من ذلك ، يغضَبون لله ولا يغضَبون لأنفسهم ، ويقاطعون من عصى الله وترك أمره ، ويصارمونه إذا لم يقبل الحق ، ويصفحون ويتجاوزون عمن ظلمهم أو شتمهم .

فانظروا الفرق ما بين الفريقين ، وكونوا مع أحسنهم فريقاً ، وأقومهم طريقاً ، و ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ٧/ ١٢٨] .

* * *

ثم إن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر واجب على الكفاية ، فحيث قام به البعض من المسلمين سقط الحرج بقيامهم عن الباقين ، واختص الثواب بالقائمين فقط . وحيث قصَّروا فيه كلهم عمَّ الإثم والحرج كل عالم بالمنكر منهم يستطيع إزالته وتغييره بيدٍ أو لسان .

* * *

وأول ما يجب عند مشاهدة المنكر : التعريفُ والنهيُ بلطف ورفق وشفقة ؛ فإن حصل بذلك المقصود وإلاّ انتقل منه إلى الوعظ والتخويف ، والغلظة في القول والتعنيف ، ثم إلى المنع والقهر باليد وغيرها ، ومباشرة تغيير المنكر بالفعل .

أما الرتبتان الأَوَّلتان : التعريف باللطف ، والوعظ والتخويف ؛ فهما عامتان والغالب فيهما الاستطاعة ، ومدَّعي العجز عنهما متعلِّل ومتعذر في الأكثر بما لا يقوم به عذر .

وأما الرتبة الثالثة : التي هي المنع بالقهر ، وتغييرُ المنكر باليد ؛ فلا يستطيعه ويتمكن منه في الأكثر إلا من بذل نفسه لله تعالى ، وجاهد بماله ونفسه في سبيل الله ، وصار لا يخاف في الله لومة لائم ، أو كان مأذوناً له في تغيير المنكر من جهة السلطان .

والحاصل : أن الإنسان يأتي من ذلك بما يستطيع ، ولا يقصِّر في نصرة دين الله ، ولا يعتذر في إسقاط ذلك بالأعذار

التي لا تصح ولا يسقط بها ما وجب عليه من أمر الله تعالى .

* * *

واعلم : أن الأخذ بالرفق واللطف ، وإظهار الشفقة والرحمة عليه مدار كبيرِ عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فعليك به ، ولا تعدل عنه ، ما دمت ترجو نفعه وحصول المقصود به ؛ وفي الحديث : « ما كان الرفق في شيء إلا زانَه ، وما نُزِع من شيء إلا شانه » . وورد أيضاً : « إنه لا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به ، رفيق فيما ينهى عنه » .

وكذلك ينبغي للإنسان : أن يكون عاملاً بما يأمر به ، مجتنباً لما يَنهى عنه ؛ فإنه يكون لكلامه وقع في القلوب ، وهيبة في الصدور ، وقد ورد الوعيد الشديد في حق من يأمر بالخير ولا يأتيه ، وينهى عن الشر ويأتيه ، وهذا هو الأفضل والأولى . وإلا فعلى الإنسان أن يأمر وينهى وإن كان غير عامل بما يدعو إليه ؛ فإن العالم الذي لا يعمل بعلمه ولا يعلِّمه الناس أخسّ حالاً ، وأشد عقاباً من الذي يعلِّم ولا يعمل . والله أعلم .

* * *

واحذروا معاشر الإخوان ـ أرشدكم الله ـ من المداهنة في الدين . ومعناها : أن يسكت الإنسان عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعن قول الحق وكلمة العدل ، طمعاً في

الناس ، وتوقعاً لما يحصل منهم من جاه أو مال ، أو حظ من حظوظ الدنيا ؛ فقلّما فعل ذلك أحد إلا أذلَّه الله وأهانه ، وسلَّط عليه الناس ، وحُرِم ما يرجوه ممّا في أيديهم .

وأما المداراة فهي مباحة ، وربما تندب ، ومعناها : أن يبذُل الإنسان شيئاً من دنياه لصلاح دينه ، أو لصلاح دنياه ، أو لسلامة عِرْضه من مذمّة أهل الشر ؛ وفي الحديث : « ما وَقَى به المرء عِرضَه فهو له صدقة » . فإذا استكفى الإنسان ما يخافه من شر الأشرار بما لا يضره في دينه ، لم يكن عليه في ذلك بأس ولا جناح إن شاء الله . ولكن العدول عن الأشرار ومجانبتهم أحسن من ذلك وأحوط .

وهذا الذي ذكرناه إنما يكون عند الابتلاء بهم ، وإلا فلا رخصة لمؤمن تَقِيّ في الاختلاط بأهل الشر وأهل الباطل ، بل عليه مجانبتهم والاحتراز منهم .

* * *

وكذلك فاحذروا من التجسُّس ، وهو طلب الوقوف على عورات الناس المستورة ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « من تتبَّع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع عورته يفضحه ولو في جوف بيته . . . » الحديث .

وعليكم بستر عورات المسلمين ، والكف عن ذكرها

وإشاعتها ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النور : ٢٤/١٩] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة » .

ولا يكثر الخوضَ في عيوب الناس وذكر مساوئهم وكشف عوراتهم ، إلا كل منافق ممقوت .

والذي يجب على المسلم إذا رأى من أخيه المسلم عورة أن يسترها عليه ، وأن ينصحه في السر بلطف وشفقة « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » .

ومن الواجب على من رأى منكراً لا يستطيع تغييره والنهي عنه ، أن يبغض فاعله ، ويكرهه ويكره فعله بقلبه ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام : « فإن لم يستطع فبقلبه » ويبغض المصرِّين على المعاصي من القرابات ، وعليه أن يفارق ذلك الموضع ، فإن مشاهدة المنكرات وحضورها بالاختيار غير جائز .

ومن نهاهُ عن منكر فلم ينته وأصر على منكره ، فعليه أن يهجره ويجانبه حتى يترك المنكر ، ويتوب إلى ربه منه ؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام : « من أوثق عرى الإيمان الحبُّ في الله ، والبغضُ في الله » .

* * *

ولْيحذر كلَّ الحذر من أُمِرَ بمعروف ونُهِيَ عن منكر من الكبر والأنفة وردِّ الحق ، والقول لآمره وناهيه : عليك نفسَك ! وما في معنى ذلك من الكلام المصرِّح بكراهية الحق ؛ فإنه يخشى عليه عند ذلك من نزول مقت الله به وحلول غضبه عليه ، ويكون حاله كحال من قال الله فيه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

[البقرة : ٢/٢٠٦] .

وأما الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر فلا عليه من ذلك ، وإن رُدَّ عليه قوله كان أبلغ في ثوابه وأعظم في أجره ؛ فلْيصبرْ وليحتسبْ .

ولْيكن قصده تخليص نفسه وتخليص أخيه من الإثم ، ولْيكن حاله كحال من وقع أخوه المسلم في هلَكة أو ورطة من الورطَات ، كحرق أو غرق وهو قادر على تخليصه وإنقاذه ؛ بل أولى . فإن هلاك الدِّين والتعرض لسخط رب العالمين أشدُّ وأعظم من هلاك الدنيا ، وتلف النفوس الذي لايَفوت به إلا مفارقة هذه الحياة الفانية ، وهذه الدار الزائلة ، بل لا مناسبة وَلا مقاربة بين إتلاف الدين ، وبين تلف الدنيا ، وإن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ساع في خلاص نفسه ونجاتها ، سواء أُخذ بقوله أم لم يؤخذ به . وقد بلغنا أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة وهو لا يعرفه ، فيقول له : مالكَ

إليّ ! وما بيني وبينك معرفة ، فيقول : كنت تراني على الخطأ والمنكر فلا تنهاني .

وفي الحديث : « مثل القائم على حدود الله ، ومثل الواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين من أسفل إذا استقوا الماء يمرون على من فوقهم فقالوا : لو خرقنا خَرقاً في نصيبنا ولم نُؤْذ مَنْ فوقنا ؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نَجْوا ونجوا جميعاً » والمعنى : أن الذي يأمر وينهى ساع لنفسه ، ومجتهد في نجاتها بالسلامة مما جعل الله عليه من الإثم لو سكت عن الأمر والنهي مع الاستطاعة ؛ وبما يرجو من ثواب الله وكريم وعده ، الذي وعد به مَن نَصَر دينه وقام بأمره قال الله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٢٢/ ٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٤٧/ ٧] .

* * *

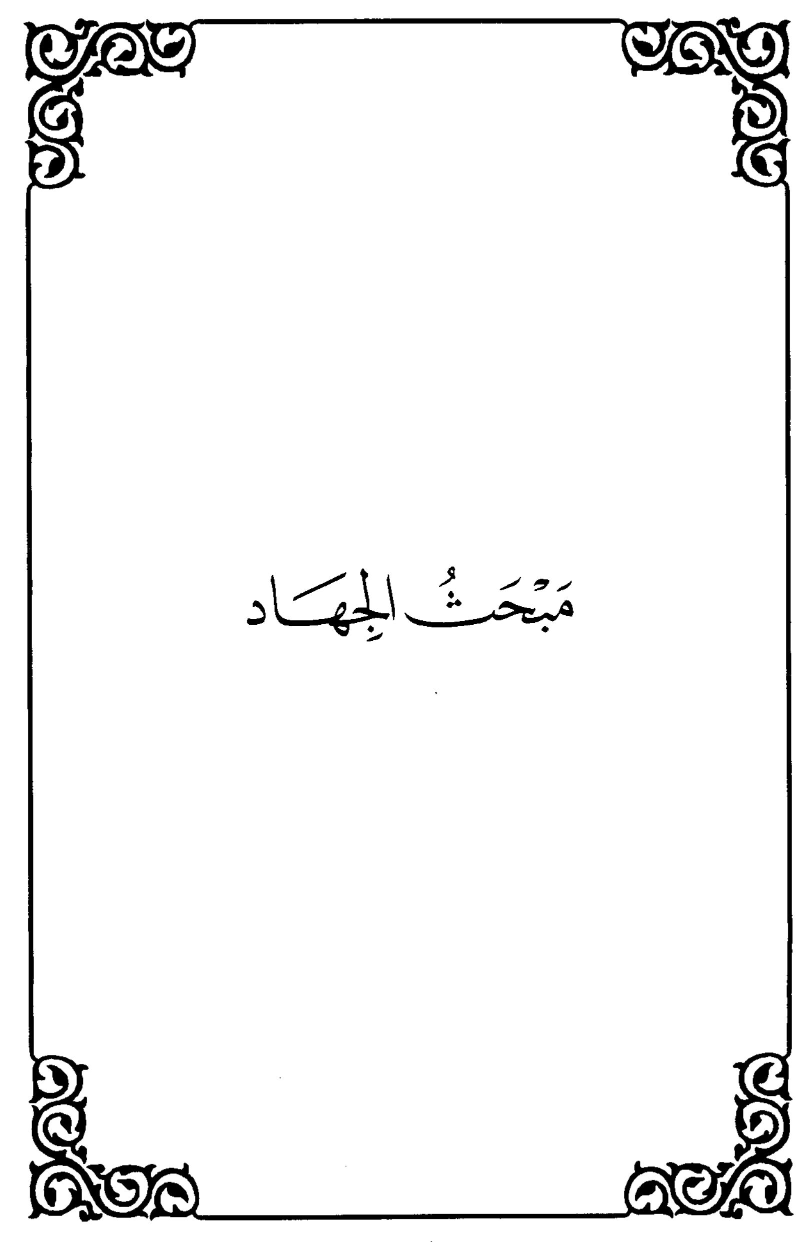
ومن أهم الآداب وآكدها على من أمر بمعروف أو نَهَى عن منكر : مجانبة الكبر والتعنيف ، والتعيير ، والشماتة بأهل المعاصي ؛ فإن ذلك قد يبطل الثواب ويوجب العقاب ؛ وربما يكون داعياً إلى ردِّ الحق وعدم قبوله والاستجابة له . فلْيحذر

كل الحذر من ذلك ، وليكن رفيقاً شفيقاً ليناً ، رحيماً متواضعاً ، مخفوض الجناح ، والله الموفق والمعين ، وبه الثقة وعليه التكلان .

ثم إنّا قد قدمنا في أول التأليف هذا طرفاً من الكلام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذلك عند ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٠٤] .

وربما أنّا أعدنا ههنا بعض الكلام الذي قد ذكرناه هنالك لمناسبة المحل ، ولأجل زيادة الإقناع ، وشدة الحرص على تأثر القلوب لرجاء الانتفاع . فإن هذا الأصل ـ أعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ جدير بطول الكلام وتكرره ، لعظم موقعه من الدين ، وعموم نفعه للمسلمين ، ومسيس حاجتهم إليه ؛ سيَّما وقد رأينا من يتساهل من الناس في ترك هذا الأمر حيث لا عذر له فيه ، ولا ضَيْر عليه لو قام به . فدعانا ذلك إلى الإكثار والتكرار والأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى .

* * *



مَبْحَثُ الجِهَاد

وقد رأينا أن نذكر طرفاً مما ورد في الجهاد من الآيات والأخبار في الأمر بالجهاد في سبيل الله وفي فضله ، تتميماً للفائدة .

وهذا الموضع من أنسب المواضع لذكر ذلك ، لأن الجهاد من أقسام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو أعلاها ، وأشرفها وأفضلها ، لأنه أمرٌ برأس المعروف الذي هو التوحيد والإسلام ، ونهيٌ عن أفحش المنكرات والآثام ، الذي هو الكفر والإشراك بالله .

وأول الجهاد الدعوة إلى الإسلام ، ثم القتال بالسيف .

فضل الجهاد

وقد ورد في الجهاد من الآيات والأخبار ما يطول ذكره ، ويتعذر حصره ، ونحن نذكر من ذلك شيئاً يسيراً تبركاً بذكر هذا الأصل الشريف من أصول الدين ، الذي أعز الله به الإسلام والمسلمين ، وأذل به الشرك والمشركين ، قال الله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢/٢١٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ٢/ ١٩٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٤/ ٩٥ـ٩٦] .

وقال تعالى : ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩/ ٥] .

وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩/ ٢٠ـ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٩/ ٤١] .

وقال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج : ٢٢/ ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ

أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ٩/١١١] .

وقال رسول الله ﷺ : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » .

وسئل عليه الصلاة والسلام عن أفضل الأعمال فقال : « الإيمان بالله ، والجهاد في سبيل الله » .

وسئل أيضاً عليه الصلاة والسلام : أيُّ العمل أفضل ؟ فقال : « الإيمان بالله ورسوله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل الله . قيل : ثم ماذا ؟ قال حج مبرور » .

وقال عليه الصلاة والسلام « أُغزُوا في سبيل الله ، من قاتل في سبيل الله فَوَاقَ ناقة وجبت له الجنة » والفَوَاقُ : ما بين الحلبتين ؛ قاله النووي رحمه الله .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أي الناس أفضل ؟ فقال : « مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله . قال ثم مَن ؟ قال ثُم مؤمن في شِعْب من الشعاب يعبد الله ويَدَع الناسَ من شره » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « رِباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد في سبيل الله تعالى والغدوة خير من الدنيا وما عليها » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « تَضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي ، وإيمان بي ، وتصديق برسلي ، فأنا ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى منزله الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة . والذي نفس محمد بيده ، ما منكم أحدٌ يُكْلَمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِمَ ، لونه لون الدم ، وريحه ريح المسك . والذي نفس محمد بيده ، لولا أن أَشُق على المسلمين ما قعدتُ خلافَ سَرِيّة تغزو في سبيل الله تعالى أبداً ، ولكن لا أجد سَعة فأحملهم ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني . والذي نفس محمد بيده ، لودِدتُ أن أغزوَ في سبيل الله فأُقتَلَ ، ثم أغزوَ فأُقتَل ، ثم أغزوَ فأُقتَل » ؛ الكَلْمُ : هو الجرح .

وقيل : يارسول الله ، ما يعدل الجهاد ؟ قال : « لا تستطيعونه » ، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً ، كل ذلك يقول : « لا تستطيعونه » ، ثم قال في الثالثة : « مثَل المجاهد في سبيل الله كمثَل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتُر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن في الجنة مائة درجة أعدَّها الله تعالى للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما اغبرَّت قَدَمَا عبد في سبيل الله فتمسَّه النار » .

وقال ﷺ : « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضَّرع ، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخرَي مسلم أبداً » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « كل عين باكيةٌ يوم القيامة إلا عيناً بكت من خشية الله ، وعيناً باتت تحرس في سبيل الله » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من رمى بسهم في سبيل الله كان له كعِدل محرَّرٍ »[1] .

وقال ﷺ : « من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده ، فإن شِبَعه وريّه ورَوْثه وبَوْلَه في ميزانه يوم القيامة » ؛ يعني : حسنات .

* * *

وللنفقة في سبيل الله وإعانة الغزاة فضل وثواب عظيم ؛ قال ﷺ : « من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ، ومن خَلَف غازياً في أهله بخير فقد غزا » . وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ بناقة مخطومة وقال : هذه في سبيل الله . فقال له عليه الصلاة والسلام : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة » .

وقال ﷺ : « من أنفق نفقة في سبيل الله كتبت له سبعمائة ضعف » .

---

(١) أي : كمثل عبد محرر من الرق ، والمراد كمثل أجر عتقه .

وروي عنه ﷺ : « أن من أنفق على الغازي ولم يَغْزُ فله بكل درهم سبعمائة درهم ، ومن أنفق على نفسه في الغزو فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم » .

* * *

وللرباط في سبيل الله فضل عظيم ، قال عليه الصلاة والسلام : « رباط يوم في سبيل الله أفضل من ألف يوم فيما سواه من المنازل » .

وورد : « أن من مات مرابطاً أجري عليه أجره ورزقه إلى يوم القيامة ، وأمن من فتنة القبر » .

* * *

وأما فضل الشهادة في سبيل الله فأعظم من أن يحاط به ، وأجلّ وأكبر من أن يأخذه حدٌّ ومقدار ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٦٩-١٧٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد : ٤٧/ ٤-٦] .

وقال ﷺ : « إن للشهيد عند الله سبعَ خصال : أن يغفر له في أول دَفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلَّى حلية الإِيمان ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ،

ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوَّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقاربه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين : قطرة دموع من خشية الله ، وقطرة دم تُهراق في سبيل الله . وأما الأثران : فأثر في سبيل الله ، وأثر في فريضة من فرائض الله » . وقال ﷺ : « ما يجد الشهيد من ألم القتل إلا كما يجد أحدكم مسَّ القرصة » .

* * *

وورد : « أن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر ، تأكل من ثمر الجنة ، وتشرب من أنهارها ، وتأوي إلى قناديل معلّقة بالعرش » .

وورد : « أن الشهيد يتمنّى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتَل عشر مرات لما يرى من فضل الشهادة » .

وسئل عليه الصلاة والسلام : هل يفتن الشهيد في قبره ؟ فقال : « كفى ببارقة السيوف فتنة على رأسه . . . » الحديث .

آداب المجاهد

ومن أهم الأمور على المجاهد في سبيل الله ، وأوجبها عليه وآكدها في حقه : الإخلاص لله في جهاده ، وأن يريد به وجه الله تعالى ، ونصرة دينه وإعلاء كلمته ، دون غَرَض آخر

من مراءاة الناس ، وطلب الذكر والمنزلة عندهم ، ونيل غنيمة أو شيء من حظوظ الدنيا . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى » . وقال رجل : يارسول الله ، إني أقف الموقف أريد وجه الله ، وأريد أن يُرى موطني ؟ فلم يرد عليه حتى نزلت : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١٨/ ١١٠] . وقيل : يارسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ؟ فأي ذلك في سبيل الله ؟ فقال ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

وفي حديث الثلاثة الذين قال فيهم عليه الصلاة والسلام : « إنهم أول خلق الله تسعَّر بهم النار » . قال عليه الصلاة والسلام : « ورجل قتل في سبيل الله فأُتي به وعرّفه نعمته فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت في سبيلك حتى قتلت . فيقول الله تعالى : كذبت ، بل أردت أن يقال هو جريء فقد قيل ، ثم يؤمر به فيسحب على وجهه حتى يلقى في النار » . الحديث .

وقال ﷺ : « أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرُش ، وكم من قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته » .

فينبغي للمجاهد : أن يحترز كل الاحتراز من الرياء ،

وإرادة غير وجه الله بجهاده ، ولْيُخلِصْ نيته لله ، وليبالغ في ذلك عند القتال ، ولْيزدَدْ من التحفظ والاجتهاد في إصلاح النية ؛ مخافة أن يُقتل على غير كمال الإخلاص فيحبط عمله ، ويبطل أجره ، وتكون خاتمته والعياذ بالله غير حسنة ، ويصير أمره في غاية الخطر .

* * *

ومما ينبغي للمجاهد أن يحذره ويحترز منه غاية الاحتراز : الفرار من الزحف حيث لا يجوز الفرار ؛ فقد عدّ عليه الصلاة والسلام ذلك من المُوبقات ، ومن الكبائر المهلكات . وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاث لا ينفع معهن عمل : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف » .

* * *

وكذلك يجتنب الغُلول كل الاجتناب ؛ فإن إثمه عظيم ، وقد ورد فيه عن رسول الله ﷺ تشديدات هائلة . ومعناه : أن يأخذ شيئاً من الغنيمة مختصّاً به دون بقية المجاهدين ، ودون علمهم بذلك ورضاهم . والله أعلم .

* * *

وينبغي لكل مسلم أن ينوي الجهاد ، ويحدث نفسه به حتى يسلم من الوعيد الوارد في ترك ذلك ؛ قال عليه الصلاة

والسلام : « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بالغَزْوِ مات على شعبة من النفاق » .

* * *

وينبغي الإكثار من سؤال الشهادة ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » .

اللهم اجعلنا من المجاهدين في سبيلك بأموالهم وأنفسهم ابتغاء مرضاتك ، فضلك ومنتك يا كريم .

وقد ذكرنا هذه الأحرف الوجيزة في الجهاد تيمُّناً وتبركاً بذكره ، وكراهية أن يخلو هذا الكتاب منه ، ورجاء ورغبة في أن يقف عليها أحد من المسلمين ، فتنبعث له نية صالحة على الجهاد في سبيل الله فيجاهد ، فيكون لنا في ذلك نصيب من ثواب المجاهدين وأجرهم ؛ « فإن الدّالّ على الخير كفاعله ، ومن دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً » ؛ كما في الحديث الصحيح . وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

* * *

فقد علمتم معاشر الإخوان ـ رحمكم الله ـ فضل الجهاد في سبيل الله ومكانته من الدين ، فمن استطاع الجهاد وتمكن منه ،

فليجاهد وليبادر ويشمِّر ، ولا يتكاسل ولا يقصِّر . ومن لم يستطع ولم يتمكّن ، فعليه بحسن النية في الجهاد ، وكثرة الدعاء للمجاهدين ، وإعانتهم بما يقدر عليه ، وليشتغل بمجاهدة نفسه وهواه في طاعة ربه ومولاه ، فإن ذلك من أقسام الجهاد ، قال ﷺ : « المجاهد من جاهد هواه ، والمهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه » .

وبلغنا أنه عليه الصلاة والسلام قال لبعض أصحابه وقد قدموا من الجهاد : « رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ؛ جهاد النفس » .

* * *

ثم إن من أكبر الكبائر الموبقات ، وأعظم الجرائم المهلكات : قتال المسلمين بعضهم بعضاً على الرياسة والملك ، وحظوظ الدنيا والحميَّة والعصبية التي هي من أمور الجاهلية ؛ وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤/ ٩٣] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قالوا : هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » .

وقال عليه الصلاة والسلام في خطبة يوم النحر في حجة

الوداع : « إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم ؛ كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، وَيْحَكُمْ ، اُنظروا لاترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » . الحديث .

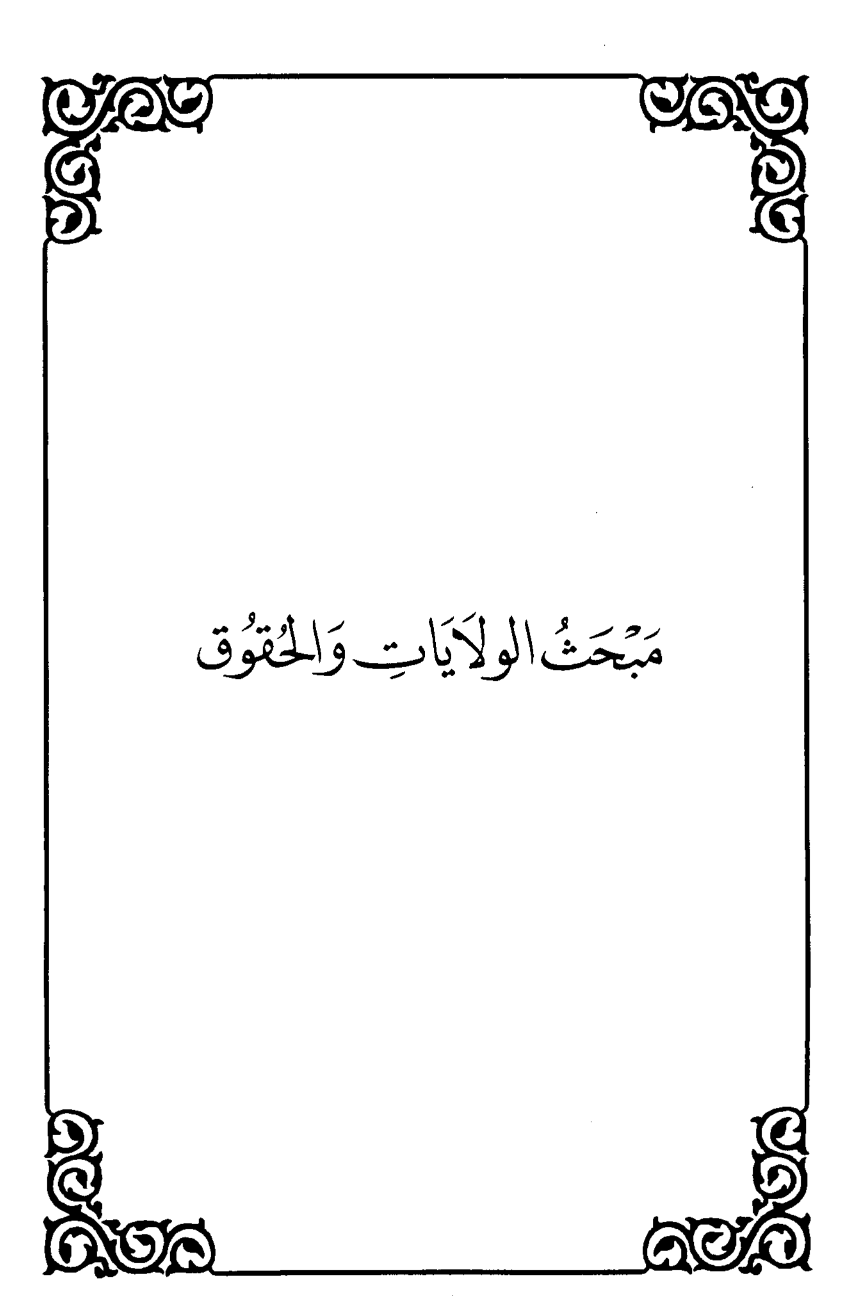
وقال عليه الصلاة والسلام : « سِبابُ المؤمن فسوق ، وقتاله كفر » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لن يزال الرجل في فُسحة من دينه ما لم يُصِبْ دماً حراماً » ، وقال ﷺ : « لَزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق . ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه اشتركوا في قتل مؤمن لأدخلهم الله النار » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة ، لقي الله مكتوباً بين عينيه : آيس من رحمة الله » .

والتشديدات في هذا الباب كثيرة هائلة ، فليحذر المسلم من ذلك كل الحذر ، ولا يعرض نفسه للوقوع في سخط الله تعالى وغضبه ، ولعنته وعذابه العظيم ، والإِياس من رحمته ، نسأل الله العافية والسلامة من جميع أنواع الخزي والبلاء في الآخرة والأولى ، لنا ولأحبابنا وكافة المسلمين .

* * *



مَبحَثُ الولاَياتِ وَالحُقوق

ثم إنّا نرى أن نذكر هاهنا شيئاً يسيراً مما يتعلق بالولايات ، فإن هذا الموضوع من أنسب المواضع لذكر ذلك .

* * *

واعلموا معاشر الإخوان ـ أمدنا الله وإياكم بدوام التوفيق ـ : أن التعرض للولايات فيه خطر ، وأن الدخول فيها والتقلد لعهدتها من أثقل الأمور وأشقها ؛ فينبغي للمؤمن المشفق على دينه ، الحريص على نجاة نفسه وسلامتها وخلاصها أن يحترز من الولايات ويتباعد عنها ما وجد إلى ذلك سبيلاً .

ثم إن من أهم الولايات الإمارة والسلطة ، ثم القضاء والحكم ، ثم الولاية على أموال اليتامى والأوقاف ونحو ذلك ، وفي جميعها خطر .

قال ﷺ في الإمارة : « أولها ملامة ، ووسطها ندامة ، وآخرها عذاب يوم القيامة » . الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام : « ما من وال يلي عشرة فما فوق ذلك إلا جيء به يوم

القيامة مغلولةً يده إلى عنقه ، فكَّه عَدْلُه ، أو أوبقَهُ جَورُه » .

وورد : « أن الوالي يوقف على جسر جهنم ، فإن كان محسناً نجا ، وإن كان مسيئاً إنخرق به الجسر فهوى في جهنم سبعين خريفاً » .

وورد أيضاً : « لَيودُّنَّ رجال لو أن ذوائبهم ـ أي : شعر رؤوسهم ـ علّقت بالثريا بين السماء والأرض ولم يَلُوا من أمر المسلمين شيئاً » .

وقال عليه الصلاة والسلام في القضاء : « من جُعل قاضياً فقد ذُبح بغير سكين » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من قضى بالجهل فهو في النار ، ومن قضى بالجَوْر فهو في النار ، ومن قضى بالعدل فحرِيٌّ أن ينجو كَفافاً » ؛ أي : لا له ولا عليه . الحديث .

* * *

وبالجملة فالبعد من الولايات هو الحزم والذي ينبغي . فإن بُلِيَ العبد بها فليعرف مالله عليه فيها وما لعباده ، ثم ليجتهد ويشمِّر في الوفاء بذلك وفي إقامته ، والعمل به من غير تفريط ولا إضاعة ، ولا عجز ولا تقصير ؛ فبذلك ينجو من الوعيد الوبيل ، ويفوز بالثواب الجزيل . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لَيومٌ من إمام عادل خير من عبادة ستين سنة ، وحدٌّ يقام في الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين صباحاً » .

وورد : « أن الإمام العادل مستجاب الدعوة ، وأنه لا يستخف به إلا منافق ، وأنه أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظلُّه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « المقسِطون يوم القيامة على منابر من نور على يمين الرحمن . . . » الحديث . والمقسطون : هم أهل العدل والإنصاف .

وأما من ولي فجار وظلم ، فويلٌ له من عذاب الله وعقابه . وكم ورد في خزيه ومقته من الأخبار والآثار ، وإن تمتع في الدنيا قليلاً فسوف يقاسي في الدار الآخرة من الوبال والنكال ما يتمنّى عنده أنه لم يخلق ، ولم يكن شيئاً مذكوراً ؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام : « اللّهم من وَلِيَ من أمر أمتي شيئاً فشَقَّ عليهم ، فاشقُقْ عليه ، ومن رفَق بهم فارفق به » .

وورد : أنه « ما من والٍ يموت يوم يموت غاشّاً لرعيته إلا حرّم الله عليه الجنة » .

واجبات الوالي

فعليك أيها الوالي الموفَّق بنصح رعيتك ، وبالرفق بهم ، وبحسن النظر في أمورهم ، وكمال التعهد والتفقد لهم في جميع أحوالهم ، ولا تغفُل عنهم ولا تَلْهُ ، فإن الله سائلك عما استرعاك ، وكل راع مسؤول عن رعيته .

وإياك ثم إياك والظُلْمَ والجورَ على الرعيّة ! فإن فيه هلاك دنياك وآخرتك .

وكما يحرم عليك أن تظلم رعيتك ، فكذلك يحرم عليك أن تمكن بعضهم من ظلم بعض . وكذلك تحرم عليك الإضاعة لأمورهم ، وترك النظر فيها ؛ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو ماتت سخلة على شاطىء الفرات ضياعاً لخشيت أن أُسأل عنها . انتهى .

فكيف بإضاعة الأيتام والأرامل ومساكين المسلمين وضعفائهم ! .

واجبات القاضي

وعليك أيها القاضي المبارك بالاحتراز والتثبت في قضائك ، حتى يتبين لك الحق الذي لا شك فيه فتقضي به . وإياك والانحرافَ والميلَ إلى أحد المتخاصمين ! وإن وجدت شيئاً من ذلك فأمسك عن القضاء حتى يصيرا عندك بمثابة واحدة ، بحيث لا تبالي لأيهما يكون الحق ، أو يكون عليه ، وإلا هلكت .

وإياك وقبولَ الرُّشا فإنها من السحت ، وقد لعن عليه الصلاة والسلام الراشي ، والمرتشي ، والساعي بينهما .

واحْكم بما أنزل الله بين عباد الله ، فإنه عزَّ من قائل كريم يقول : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : ٥/ ٤٤] و﴿ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ و﴿ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ في آيات بينات محكمات في كتاب مجيد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

واجبات مولى الأيتام

وأما الولاية على أموال اليتامىٰ فهي من الأمور الخطرة ، وفيها عُسرٌ ومشقة ؛ فينبغي ويتأكد على من بُلى بذلك أن يبالغ في الاحتراز والاحتياط ، وأن يجتهد غاية الاجتهاد في حفظ أموالهم وتنميتها ، وليحذر من تفريطها وإضاعتها ، ومن أكلها وتبذيرها ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء : ٤/ ٢] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ٤/ ١٠] .

وقد عدّ عليه الصلاة والسلام أكل مال اليتيم في السبع الموبقات ، والكبائر المهلكات .

ويقرب من أكل مال اليتيم في الإثم والحرج : أكل مال الأوقاف ظلماً وتعدِّياً ، فينبغي الاحتراز من ذلك ، وغايةُ التوقِّي عنه ، ومِن تولِّيها رأساً إيثاراً للسلامة وبعداً عن مواضع الخطر ومظانِّ الحرج . والله أعلم .

* * *

وكما يجب على الوالي العدلُ في أهل ولايته ، ومجانبة الظلم والجَور عليهم ، والإضاعةِ والإهمالِ لأمورهم فكذلك يجب على الرجل في أهل بيته العدلُ والإنصاف ، واجتنابُ

الظلم والإهمال ؛ فإنهم رعيته ، وله الولاية الشرعية عليهم .
وقد ورد : أن الرجل يكتب من الجبّارين وما يملك إلا أهل بيته ؛ أي فيظلمهم ويجور عليهم .

نسأل الله تعالى اللطف والعافية ، والتحقّق بالتقوى والاستقامة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

حقوق الوالدين

واعلموا معاشر الإخوان ـ جعلنا الله وإياكم من البارِّين المحسنين ، القائمين بحقوقه تعالى ، وبحقوق عباده ابتغاء وجهه ومرضاته ـ : أن بر الوالدين ، وصلة الأرحام والأقربين ، وحسن القيام بالأهل والعيال والمملوكين ، والإحسان إلى الجيران والأصحاب وسائر المسلمين ؛ كل ذلك مما أمر الله به وحث عليه ، ورغَّب فيه وندب إليه ، ونهى عن تركه وإغفاله ، وتوعَّد على إضاعته وإهماله .

أما الوالدان فقد أمر الله ببرّهما والإحسان إليهما ، ونهى عن عقوقهما ، وشدَّد في ذلك أبلغ التشديد ، وحذّر عنه أبلغ التحذير ، وذلك في كتابه العظيم ، وعلى لسان رسوله الكريم ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

[الإسراء : ١٧/ ٢٣ـ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾

[لقمان : ٣١/ ١٤] .

فانظروا رحمكم الله كيف قرن تعالى الأمر بالإحسان إلى الوالدين مع توحيده وعبادته ، وكيف قرنَ شكرهما بشكره ، وقال تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [النساء : ٤/ ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف : ٤٦/ ١٥ـ١٦] .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : سألت رسول الله ﷺ : أيُّ الأعمال أحبّ إلى الله ؟ فقال : « الصلاة لوقتها . قلت ثم أيٌّ ؟ قال : برُّ الوالدين . قلت ثم أيٌّ ؟ قال : الجهاد في سبيل الله » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « رضا الله في رضا الوالدين ، وسخَط في سخط الوالدين » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاث لا ينفع معهن عمل :

الإِشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرارُ يوم الزحف » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أكبر الكبائر ثلاث : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور . . . » . الحديث .

وقال ﷺ : « رَغِم أنفُ مَن أدرك أبويه عند الكبر أحدَهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة » ؛ أي : فلم يَبَرَّهما بِرًّا يكون سبباً في دخوله الجنة . وخص به البر عند الكبر لاشتداد حاجة الإِنسان عند كبره إلى من يَبرُّه ويقوم به ، ويتعاهده أكثر من حاجته إلى ذلك قبل الكبر . والله أعلم .

وروي عن الله تعالى أنه قال : « من أصبح مُرْضياً لوالديه ، مسخطاً لي فأنا عنه راض ، ومن أصبح مرضياً لي ، مسخطاً لوالديه فأنَا عنه ساخط » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « بَرُّوا آباءكم تَبَرّكم أبناؤكم ، وعِفُّوا عن نساء الناس تعف نساؤكم » . وقال ﷺ لرجل استأذنه في الجهاد : « أحيٌّ والداك » ؟ قال : نعم . قال : « ففيهما فجاهِد » . وسأله عليه الصلاة والسلام رجل فقال : ما حق الوالدين على ولدهما ؟ فقال : « هما جنّتك ونارك » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من سره أن يُمَدَّ له في عمره ، ويزاد له في رزقه ؛ فليبرّ والديه ، وليصل رحمه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاثة حرَّم الله تبارك وتعالى

عليهم الجنة : مدمِن الخمر ، والعاقُ لوالديه ، والديوث الذي يقر الخبث في أهله » . وورد : « أن برّ الوالدين أفضل من الحج والعمرة والجهاد في سبيل الله . وأن العاق لوالديه لا ينظر الله إليه يوم القيامة ، وأنه لا يَرَحْ رائحة الجنة » .

وبالجملة فحق الوالدين أعظم الحقوق بعد حق الله وحق رسوله ؛ فعليك ببرّهما وبالإِحسان إليهما ، وبطاعتهما وخفض الجناح لهما ، وبتقديمهما في البر والصلة والمعروف ، على نفسك وعلى أهلك وأولادك ؛ من غير مِنّة عليهما ولا استثقال لهما ، وعُدَّ حاجتهما إليك ورغبتهما في برك وخدمتك إياهما من أعظم ما منّ الله به عليك ، ووفقك له .

* * *

واعلم أن بر الوالدة أضعاف برّ الوالد ؛ كما ورد في الحديث . ولعل السبب في ذلك ما تقاسيه الوالدة من تعب الحمل ومشاقه ، ومشقة الوضع ومؤونة الرِّضاع والتربية ، ومزيد الحنانة والشفقة . والله أعلم .

وقد قال رجل للنَّبي ﷺ : من أحق الناس بحسن صحبتي ؟ أي ببري وصِلَتي . فقال له ﷺ : « أمُّك . قال ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال ثم من ؟ قال : أبوك » .

* * *

وكما يجب على الإنسان أن يَبَرَّ والديه في حياتهما ، كذلك ينبغي له أن يَبَرَّهما بعد وفاتهما ، وذلك بالدعاء والاستغفار لهما ، وبالتصدق ، عنهما ، وبقضاء ديونهما وتنفيذ وصاياهما ، وبصلة أرحامهما وبِرِّ أصدقائهما وأهل مودتهما ؛ فذلك كله من تمام البِر كما وردت به الأحاديث . وفي الدعاء للميت وفي الاستغفار له ، والتصدق عنه نفع له كثير ؛ فينبغي للإنسان أن لا يغفل عن ذلك في حق والديه خصوصاً ، وفي حق غيرهم من الأقارب وذوي الحقوق عليه ، والمسلمين عموماً .

حقوق الأولاد

ثم إنه ينبغي ويستحب للوالدين أن يُعينوا أولادهم على برهم بالمسامحة ، وترك المضايقة في طلب القيام بالحقوق ، ومجانبة الاستقصاء في ذلك ؛ سيما في هذه الأزمنة التي قلّ فيها البر والبارُّون ، وفشا فيها العقوق وكثر العاقُّون ؛ فإذا فعل ذلك وسامح أولاده سلَّمهم وخلَّصهم من إثم العقوق ومما يترتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرةِ ، وحصل له من ثواب الله وكريم جزائه ما هو أفضل وأكمل ، وخير وأبقى من برّ الأولاد . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « رحم الله والداً أعان ولده على برّه » .

وليحذر الوالدان كل الحذر من الدعاء على ولدهما العاق ؛ فإن ذلك يزيده ضرراً وفساداً وعقوقاً ، ويعود بعض ما يتولّد من ذلك من الضرر على الوالدين في الدنيا ، ودعاء الوالد

مستجاب ؛ فينبغي له أن يدعو له ولا يدعو عليه ، فقد يصلحه الله ببركة دعائه ، فيعود بارًّا فينتفع الوالد ببره وتقرّ عينه به ، ويفوز الولد بثواب البر ، ويسلم من إثم العقوق . والله الموفق والمعين .

* * *

ثم إن للأولاد على الوالد حقوقاً وذلك في القيام بكفايتهم ما داموا محتاجين إلى ذلك ، وفي تأديبهم وحسن تربيتهم وهدايتهم إلى الأخلاق المحمودة والصفات الحسنة والخصال الجميلة ، وحفظهم وصيانتهم من أضداد ذلك ، وتحسين أسمائهم ، وأن يختار لهم الأمهات المباركات من المَنابت الحسنة الصالحة ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام : « تخيَّروا لنطفكم الأكْفاء فإن العرق دسَّاس » .

وعليه أيضاً أن يسوِّي بينهم في العطية ، وأن لا يقدم أحداً منهم على أحد بمجرد ميل الطبع واتباع هوى النفس .

وأهم ما يتوجه على الوالد في حق أولاده تحسين الآداب والتربية ، ليقع نشوءُهم على محبة الخير ومعرفة الحق ، وتعظيم أمور الدين ، والاستهانة بأمور الدنيا وإيثار أمور الآخرة . فمن فرط في تأديب أولاده وحسن تربيتهم ، وزرع في قلوبهم محبة الدنيا وشهواتها ، وقلة المبالاة بأمور الدين ، ثم عقّوه بعد ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه ، والمفرِّط أولى

بالخسارة ! وأكثر العقوق الفاشي في هذه الأزمنة سببه التفريط فيما ذكرناه ؛ كما يعرف ذلك من تأمله وأحسن النظر فيه . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! .

صلة الأرحام

وأما صلة الأرحام وهم الأقارب .

فقال تعالى في الأمر بصلتهم : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ [الإسراء : ١٧/ ٢٦] .

وقال تعالى في معرض الثناء على قوم اختارهم ورضيهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد : ١٣/ ٢١] .

ومما أمر الله به أن يُوصَل : الأرحام .

وقال الله تعالى في الزجر عن قطيعة الرحم والتحذير منها : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ١٣/ ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد : ٤٧/ ٢٢-٢٣] .

فقاطع الرحم ملعون في نص الكتاب .

وقد قال عليّ بن الحسين رضي الله عنهما يوصي بعض بَنيه : إياك وصحبةَ قاطع الرحم ! فإني وجدته ملعوناً في ثلاثة

مواضع من كتاب الله تعالى . انتهى .

وقال رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيصِلْ رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من سرّه أن يُمَدَّ له في عمره ، ويُوسَّع له في رزقه ، ويدفع عنه ميتة السوء فليتَّق الله وليصل رحمه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « قال الله عز وجل أنا الله ، وأنا الرحمن ، خلقت الرحم وشقَقْت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته » .

وقال ﷺ : « لا يدخل الجنة قاطع » ؛ أي : قاطع رحم .
وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم » . فإذا كانت الرحمة لا تنزل على القوم بسبب كون قاطع الرحم فيهم ، فكيف يكون حال القاطع نفسه ؟ وكيف يكون مقت الله له وقطعه إياه من كل خير ! ! .

فعليكم رحمكم الله بصلة الأرحام ، وإياكم وقطيعَتَهم فإنها من أعظم الآثام ، وعقوبتها معجلة في الدنيا ، مع ما يدَّخر الله تعالى للقاطع في الآخرة من شديد العقاب وأليم العذاب .

وكذلك يعجِّل ثواب البر والصلة في الدنيا ، مع ما يدَّخر الله للواصل من عظيم الثواب وكريم المآب . وقد

قال ﷺ : « أسرع الخير ثواباً البرُّ وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقاباً البغي وقطعية الرحم » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبةَ في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » .

قلت : فثواب البر والصلة معجَّل ومؤجل ، وعقاب العقوق والقطيعة كذلك . نسأل الله العافية .

وينبغي للإنسان أن يصل أرحامه وإن لم يصلوه ، ويحسن إليهم وإن لم يحسنوا إليه . قال عليه الصلاة والسلام : « ليس الواصل بالمكافىء ، ولكن الواصل هو الذي إذا قَطَعْتَ رَحِمُه وصلها » .

وينبغي له أيضاً أن يصبر على أذاهم إن آذَوه ، ولا يكافِئْهم بإساءتهم إن أساؤوا إليه ؛ بل يعفو ويصفح ، ويصل ويحسن ، وكلما آذَوْه وأساؤوا في حقه كانت الصلة لهم آكد، وكانت الصدقة عليهم أفضل .

قال عليه الصلاة والسلام : « أفضل الصدقِة الصدقةُ على ذي الرحم الكاشح » . وهو الذي يضمر العداوة لقريبه المحسن إليه . وفي حديث الرجل الذي قال للنَّبي ﷺ : « إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني! فذكر الحديث حتى قال في آخره : « ولا يزال معك من الله ظهير ما دمتَ على ذلك » يعني : على برهم وصِلَتِهم وإن قطعوا وأساؤوا .

* * *

وكذلك ينبغي للإنسان أن لايتعدى بصدقته أقاربَه وأرحامه المحتاجين ، فيتركهم ويتصدقَ على غيرهم ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « المتعدي في الصدقة كمانعها » . وورد : « أن من يتصدق على الأجانب مع علمه بحاجة أقاربه إلى صدقته لا يقبل الله تعالى صدقته » . وقال عليه الصلاة والسلام : « الصدقة على الأجانب صدقة ، والصدقة على الأقارب اثنتان : صدقة وصلة » .

قلت : ومحل ذلك ما لم تشتد حاجة الأقارب ، وإلا فهم أحق بالصدقة من غيرهم . وإذا وَسِعت الصدقة القريب والبعيد فاشتركوا فيها ، كانت على البعيد صدقة فقط ، وعلى القريب صدقة وصلة . وأما إذا تعدى بصدقته ، وترك أقاربه مع العلم بحاجتهم ؛ فقد أساء وظلم ، وصدقته غير مقبولة كما ورد .

وكلما كان الرحم أكثر قرابةً كان حقه آكد ، وكانت صلته أوجب . ويكون القريب الضعيف المسكين المحتاج أولى بالبر والصلة من القريب الغني ؛ وذلك لأنه يصير للقريب المسكين حقَّان : حق القرابة ، وحق المسكنة . وقد قرن الله بين الأمر بالإحسان إلى القرابة والمساكين في آيات من كتابه ؛ مثل قوله تعالى : ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الروم : ٣٠/ ٣٨] .

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ ﴾ [البقرة : ٢/ ١٧٧] إلى غير ذلك .

فلا شك أن صلة من له حقان معاً أولى من صلة من له حق واحد .

فلْيجتهد العبد الموفق في صلة أرحامه وأقاربه ، بكل ما يمكنه ويستطيعه من برٍ ومعروف ، وهدية وصدقة ، وزيارة ومؤانسة ، ويفعل مع كل منهم ما يناسبه من ذلك ، ويكون فيه بره وصلته وإيناسه ، ولا يقصِّر في صلة أرحامه كسلاً وبخلاً واستخفافاً بحق الرحم التي عظَّم الله تعالى أمرها ، وأكثرَ الوعيدَ في قطيعتها ، وعلى العبد بذل الاستطاعة والمقدور . وعلى الله الإعانة والمسامحة . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « بلّوا أرحامكم ولو بالسلام » . أي : صِلوهم بما تقدرون عليه .

وقد عمّت في هذا الزمان قطيعة الأرحام ، وقلة المبالاة بصلتهم وتعهدهم . ولعل السبب فيما حدث ، وعمّ العباد والبلاد من ضنك المعاش ، وضعف الأرزاق ، وقلة ذات اليد هو القطيعة للأرحام التي قد فشت وانتشرت في هذه الأيام ؛ وقد وردت الأحاديث بأن صلة الأرحام مَنْسأة في الآجال ، مَثْراة في الأموال .

وأن الله تعالى قد بسط الرزق لأقوام ، وأكثر لهم الأموال ، وما نظر إليهم منذ خلقهم ؛ لِصِلَتِهِم أرحامهم ، فتكون القطيعة وترك الصلة على الضد من ذلك . والله أعلم .

حقوق الأهل والعيال

وأما الأهل والعيال ونعني بالأهل ههنا : الزوجة والزوجات . وبالعيال : كل من يكون في نفقة الإنسان ، وتحت نظره وكفالته ؛ فيجب عليه القيام بنفقتهم وكسوتهم ، ورعاية حقوقهم وإرشادهم إلى وظائف دينهم ، وما فيه سلامتهم ونجاتهم في الدار الآخرة .

وعليه أيضاً أن يُلْزِمهم القيامَ بما يجب عليهم من أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، وقد قال الله تعالى في حق النساء : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢/٢٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : ٤/١٩] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٤/٣٤] .

وقال النَّبي ﷺ : « استوصوا بالنساء خيراً » . وقد أكثر عليه الصلاة والسلام من الوصية بالنساء ، وحث على الرفق بهن ، وحسن المعاشرة لهن . وقال عليه الصلاة والسلام : « خياركم خياركم لنسائهم » .

وقال ﷺ : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » .

فينبغي للإنسان أن يكون حسن المعاشرة مع نسائه ، لطيف الأخلاق ، شفيقاً رفيقاً ، صبوراً على جفائهن وسوء أخلاقهن ؛ ويكون كثير المسامحة لهن بما يجب له من الحقوق عليهن .

وأما ما يجب عليهن من حقوق الله فيكلفهن بالقيام به ، ولا تجوز المسامحة والمساهلة في ذلك .

وكذلك لا ينبغي له أن يملِّك المرأةَ أمرَه ، ويولِّيها نفسه وماله ؛ كما يفعله بعض الأغبياء المغفلين . وذلك من الأمور المستقبحة شرعاً وعقلاً ؛ فإن المرأة حكمها حكم المملوك والتابع ، فمن جعل المملوك مالكاً والتابع متبوعاً فهو معكوس منكوس . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة . . . » الحديث . وقال الحسن البصري رحمه الله : ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهواه إلا أكبه الله في النار .

* * *

وإذا كان للرجل زوجتان أو زوجات لزمه العدل بينهن . فإن لم يعدل وقع في الإثم والحرج ؛ قال النَّبي ﷺ : « من كانت عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط » .

* * *

وأما حق الزوج على زوجته فهو من أعظم الحقوق ، ولها في القيام به ثواب كثير ، وعليها في إضاعته وإهماله إثم كبير . قال عليه الصلاة والسلام : « لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد

لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » لعظم حقه عليها . وقال عليه الصلاة والسلام : « أيّما امرأة باتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا صلّت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها ، قيل لها : أُدخلي من أي أبواب الجنة شئت » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأة لا تشكر زوجها وهي لا تستغني عنه » .

وقال ﷺ : « إذا دعا الرجل زوجته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح » . فيجب على المرأة طاعة زوجها وترك المخالفة له ، وأن لا تأذن في بيته ولا تتصدق من ماله ، ولا تخرج من البيت إلا بإذنه ورضاه ؛ فإن فعلت شيئاً من ذلك بدون إذنه أثمت . وإذا دعاها إلى فراشه لم يجز لها الامتناع إلا لعذر شرعي .

وبالجملة فحق الزوج على زوجته عظيم ؛ حتى إنه ورد عن النّبي ﷺ : « لو كان بالرجل جراحة من رأسه إلى قدمه فلحستها المرأة بلسانها لم تقم بحقه عليها » . فينبغي للمرأة أن تجتهد في القيام بحق زوجها وأن لا تقصر في القيام به ؛ لتفوز بثواب الله ورضاه ، وتنجو من عذابه وسخطه .

وينبغي للزوج أن يسامح زوجته بعض المسامحة ، ولا يستقصي عليها في طلب القيام بالحقوق فيوقعها في الحرج ،

فإن النساء ناقصات عقل ودين ، والغالب عليهن التساهل والتغافل عن حقوق الأزواج . ومن سامح سامحه الله ، ومن تجاوز تجاوز الله عنه .

فضل النكاح

واعلموا رحمكم الله : أن للنكاح فضلاً وفوائد ومنافع دنيوية وأخروية ؛ وقد ورد الترغيب فيه كتاباً وسنة ، قال تعالى : ﴿ فَأَنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء : ٤/ ٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٢٤/ ٣٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وِجاءٌ » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أربع من سنن المرسلين : الحياء ، والتعطر ، والسواك ، والنكاح » . وقال عليه الصلاة والسلام : « تناكحوا تكاثروا فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا تزوج العبد فقد استكمل

نصف الدين ، فليتَّقِ الله في النصف الباقي » . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يمنع من النكاح إلا عجز أو فجور .

قلت : وفي النكاح فراغ للقلب من وساوس الشيطان فيما يتعلق بالنساء ، وربما يعرض بعض ذلك للإنسان وهو في صلاته واقفاً بين يدي الله ، أو وهو يتلو القرآن أو وهو في ذكر الله فيقع في سوء الأدب مع الله . وفي النكاح غض للبصر ، وتحصين للفرج . وقد ورد في فضل ذلك وفي التحذير من تركه من شواهد الكتاب والسنة ما لا يخفى على ذي علم وبصيرة .

قال الله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور : ٢٤/٣٠] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس . . . » الحديث .

وفي النكاح من الصبر على معاشرة النساء بالمعروف ، والقيام بحقوقهن ، والإنفاق عليهن وعلى العيال فضل كبير ، وفيه فضل التسبُّب في تحصيل أولاد صالحين يعبدون الله تعالى ، ويدعون لآبائهم ، ويستغفرون لهم في حياتهم وبعد وفاتهم ؛ وربما مات بعضهم قبل البلوغ فيحصل لوالديهم من ثواب ذلك الحظُّ العظيم .

وفي تربيتهم ، أعني الأولادَ ، وحسنِ القيام بهم لاسِيَّما البنات منهم ، ثواب كثير ، وفضل كبير . وقد قال عليه الصلاة

والسلام : « دينارٌ أنفقتَه في سبيل الله ، ودينارٌ أَنفقَته في رقبة ، ودينارٌ تصدقتَ به على مسكين ، ودينارٌ أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك » . وقال ﷺ : « ما أطعمتَ نفسك فهو لك صدقة ، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة ، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة ، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

* * *

وقال ﷺ : « ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْث[1] إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم » وفي رواية « فقالت امرأة : واثنانِ ! فقال أو اثنان » . وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « لأن أقدِّم سِقْطاً أحبّ إليّ من أن أخلف خمسين فارساً يجاهدون في سبيل الله » . وورد : « أن الأطفال يُعطَوْنَ آنية فيها من شراب الجنة فيسقون آباءَهم في موقف القيامة وبالناس من الكرب والعطش ما لا يعلمه

(١) أي لم يبلغوا مبلغ الرجال ويجري عليهم القلم؛ فيكتب عليهم الحنث والطاعة.

إلا الله ، وأنهم يقفون على أبواب الجنة ويأبَوْن أن يدخلوها حتى يدخلها آباؤهم ؛ فيأمر الله بإدخال آبائهم معهم الجنة برحمته » .

* * *

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أُبتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من كان له ثلاث بنات يؤدبهن ويرحمهن ويكفلهن وجبت له الجنة ألبته . قيل : يارسول الله ، وإن كانتا اثنتين ؟ قال : وإن كانتا اثنتين » قال : فرأى بعض القوم أنْ لو قال : واحدة . لقال : واحدة . وقال ﷺ : « من كانت له أنثى فلم يَئِدْها ولم يُهِنْهَا ولم يُؤْثِر ولده ـ يعني الذكور ـ عليها أدخله الله الجنة » ومعنى « يئدها » يدفنها حية ، كما كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك . وقد يصدر من بعض الناس الأغبياء إذا أخبر بحدوث بنت له أو لغيره من الكلمات الشنيعة الدالة على كراهية الأنثى وعدم الرضا بها بما لا ينبغي . وذلك من المكروهات والمستقبحات ، وهو قريب مما وصف الله به أهل الجاهلية في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ١٦/٥٨ـ٥٩] .

فليحذر المؤمن التقيُّ من ذلك ـ أعني كراهية الأنثى ـ ومن

إهانتها ، ومن إيثار ولده الذكَر عليها ؛ فإنه لا يدري فيمن تكون البركة والعاقبة الحسنة .

* * *

وينبغي لمن أراد التزوّج أن يتحرَّى ذات الدِّين والخير والصلاح وإن كانت فقيرة وغير فائقة في الجمال ؛ فقد حثّ عليه الصلاة والسلام على ذات الدِّين ، ورغّب فيها وقال : « فاظفَر بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك » فلا ينبغي للإنسان أن يتزوّج المرأة لمالها وجمالها فقط ؛ فإن ذلك مكروه . قال عليه الصلاة والسلام : « لا تزوَّجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يُرْديهن ، ولا تزوجُوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهُنّ على الدِّين . . . » الحديث .

* * *

ثم إن مَن قصد ترك النكاح تفرُّغاً للعلم والعبادة ، وتباعداً عن شواغل الدنيا وعلائقها ، وكان مع ذلك فارغ القلب عن الميل إلى النساء والركون إليهن ، فإنه لا بأس عليه في تركه ولا جناح ، فقد رأى ذلك وأخذ به جماعة من صالحي السلف والخلف ، رحمهم الله . وقد قيل لبعضهم : ألا تتزوج ؟ فقال : قد عجزت عن تقويم نفسي ، أفأضم إليها نفساً ثانية ؟! وقيل مثل ذلك لآخرَ منهم فقال : لو قدَرت على تطليق نفسي

لطلقتها . وقيل لِبشْر بن الحارث رحمه الله : إن الناس يتكلمون فيك ، يقولون : إنك تارك للسنة !! يريدون التزوّج ، فقال : قولوا لهم : هو مشغول بالفريضة . انتهى .

قلت : فينبغي لمن أراد التزوج أن يتزوّج بنيَّة الاستعانة على الدِّين والآخرة . ومن ترك فينبغي أن يترك بنية التحفظ على الدين وإيثار جانب السلامة والاحتياط ؛ فيكون في تزوجه وتركه على نية صالحة يصلح التقرب بها إلى الله . فأما من يعوِّل في نكاحه وفي ترك النكاح على حظوظ الدنيا وأغراضها ، وبواعث الطبع والشهوة فهو بعيد من الصواب والتأسِّي بصالحي السلف . والله الموفق والمعين لا رب غيره .

الإحسان إلى المماليك والجيران

وأما الإحسان إلى المماليك والأرقَّاء فقد ورد الأمر به والحث عليه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾ [النساء : ٤/٣٦] .

وقال ﷺ : « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ، وأن لا يكلَّف من العمل ما لا يطيق » . وقال عليه الصلاة والسلام : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فما أحببتم فأَمسِكوا ، وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذِّبُوا

خَلْق الله ؛ فإن الله تعالى ملّككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم » . وقال رجل : يارسول الله ، كم نعفو عن الخادم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « اعف عنه في كل يوم سبعين مرة » .

وورد أيضاً عنه عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنة سيِّىء المَلْكَة » وهو الذي يسىء إلى ما ملكت يمينه . ومن الإساءة إلى المملوك . أن لا يقوم له بما يكفيه من الطعام واللباس ، وأن يكلفه من الخدمة فوق ما يطيق ، وأن يشتمه ويضربه بغير حق ؛ فإن فعل به شيئاً من ذلك اقتص له منه في الدار الآخرة كما وردت به الأحاديث . ومهما ضربه أو شتمه على أمر يستوجب به ذلك فعليه أن لا يجور ، ولا يتجاوز الحدَّ ، وإن عفا وصفح كان ذلك أحسنَ وأجمل ، وكان له فيه الثواب العظيم من الله عزَّ وجل .

وعَلَى من ملك شيئاً من الحيوانات والبهائم أن يتعهدها ويتفقدها ، ويحسن النظر عليها ؛ يتولى ذلك بنفسه ، أو يوليه من يثق به من أولاده وخدمه ؛ فإنه إن لم يفعل ذلك وقع في الإثم والحرج . وفي الحديث : « إنَّ امرأة دخلت النار في هرّة ربطتها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خَشَاش الأرض » .

* * *

وأما الإحسان إلى الجيران : فقد أمر الله به في قوله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾

[النساء : ٤/ ٣٦] .

وقد عظم رسول الله ﷺ حقّ الجار ، وحثّ على الإحسان إليه ، وبالغ في النهي عن إيذائه ، حتى قال عليه الصلاة والسلام : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه » أي يجعل له نصيباً من الإرث في مال جاره . وقال عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من آذى جاره فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « والله لا يؤمن من لم يأمن جاره بوائقه » يعني بذلك شره وأذاه وفتنته . والله أعلم .

وحق الجار عظيم ، والإحسان إليه من أهم المهمات في الدين ، ولا يتم الإحسان إلا بكف الأذى عنه ، واحتمال الأذى منه إن آذاك ، مع اصطناع المعروف وبذل الإحسان إليه حسب الاستطاعة ، وذلك وصف كل مؤمن كامل الإيمان كما قال عليه الصلاة والسلام : « أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنا » .

وأحقُّ الجيران بالإحسان الأقرب منهم باباً إليك فالأقرب .

وفي الحديث : « إن من الجيران من له ثلاثة حقوق وهو الجار المسلم ذو القرابة . ومنهم من له حقان وهو الجار

المسلم . ومنهم من له حق واحد وهو الجار الذّمّي » . فانظر كيف أثبت للجار الذمي حق الجوار مع كفره تعرِفْ به عظم تأكيد حق الجار ومحلّه من الدِّين . فعليك رحمك الله بالإحسان إلى جيرانك حسب الإمكان بعد كف الأذى عنهم مطلقاً ، واحتمال الأذى منهم إن كان . واستعن بالله واصبر ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٤١/٣٥] .

وقد ذكر الإمام حجة الإسلام في « الإحياء » وغيره ؛ حديثاً جامعاً فيما ينبغي للجار أن يفعله مع جاره ، فقال رحمه الله : قال عليه الصلاة والسلام : أتدرون ما حق الجار ؟ إن استعان بك أعنته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر جُدْتَ عليه ، وإن مَرِض عُدْتَه ، وإن مات تبعت جنازته ، وإن أصابه خير هنَّأته ، وإن أصابته مصيبة عزَّيته ، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه ، وإن اشتريت فاكهة فأهْدِ له ؛ فإن لم تفعل فأدخلها سِرّاً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقُتار[1] قِدْرِك إلا أن تغرف له منها . أتدرون ما حقّ الجار ؟ والذي نفسي بيده ! لا يبلغ حقَّ الجار إلا من رحمه الله » انتهى .

وقد كان السلف الصالح يبالغون في الإحسان إلى الجيران

---

(١) القتار ـ بضم القاف ـ ريح القدر والشواء ونحوهما .

وكفّ الأذى عنهم إلى الغاية والنهاية ؛ حتى بلغنا أنه كثر الفأر في دار بعضهم فقيل له : لو اقتنيت هرّاً ؟ فقال أخاف أن يهرُب الفأر منه إلى ديار الجيران ؛ فيكون ذلك من الأذى لهم .

الإحسان إلى الأصحاب

وأما الإحسان إلى الأصحاب : فهو مأمور به ، ومرغّب فيه ، ومندوب إليه . وللأصحاب حقوق تجب مراعاتها وتتأكد المحافظة عليها ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ [النساء : ٤/ ٣٦] .

وروي عنه عليه أفضل الصلاة والسلام أنه قال : « ما من صاحب يصحب صاحباً ولو ساعةً من نهار إلا سئل عن صحبته يوم القيامة هل أقام فيها حقّ الله أو أضاعه ؟ » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « خير الأصحاب خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران خيرهم لجاره » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ما تحابَّ اثنان إلا كان أحبُّهما إلى الله أشدَّهما حبّاً لصاحبه » وفي رواية « أرفقَهما بصاحبه » .

* * *

وأصل الصحبة صدق المحبة وصفاء المودة ، ومهما كان ذلك في الله ولله فثوابُه عظيم . وقال عليه الصلاة والسلام : « قال الله تعالى : وجَبت محبتي للمتاحبِّين فيّ ، والمتجالسين فيّ ، والمتزاورين فيّ ، والمتباذلين فيّ » . وقال عليه الصلاة

والسلام : « يقول الله تعالى يوم القيامة : أين المتحابّون بجلالي ، اليوم أُظلّهم في ظلّي يوم لا ظلَّ إلا ظلّي » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من سرّه أن يجد حلاوة الإيمان فليحبّ المرء لا يحبه إلا لله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه ، فذكرهم حتى قال : ورجلان تحابّا في الله ، اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه . . . » الحديث .

فإذا أحب الإنسانُ الإنسانَ وألِفَه وصاحَبَه لأنه يحب الله ويعمل بطاعته كان ذلك من المحبة في الله تعالى .

وإذا أحبه وصحبه لأنه يعينه على دِينه ويساعده على طاعة ربه فقد أحبه في الله .

وإذا أحبه وصحبه لأنه يعينه على دنياه التي يستعين بها على أخراه فقد أحبه في الله تعالى .

وإذا أحبه وصحبه لأنه وجد طبعه يميل إليه ونفسه تأنس به ، أو لأنه يعينه على دنياه وأسباب معاشه التي يتمتع بها فتلك محبّة طبعية ليست من المحبة لله في شيء ، وتلك صحبة نفسانية اقتضاها ميل الطبع ولكنها مباحة ، ولعلها لا تخلو من خير إن شاء الله تعالى .

وأما إذا أحبه وصاحبه لأنه يعينه على المعصية والظلم ، ويساعده على أسباب الفسق والمنكر فتلك محبة وصحبة

مذمومة قبيحة ، وهي في سبيل الشيطان وليست من الله في شيء ، وهي التي تنقلب في الآخرة عداوة وربما انقلبت في الدنيا قبل الآخرة ؛ قال الله تعالى : ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٤٣/ ٦٧] .

* * *

فينبغي لك أيها الأخ أن لا تحبّ ولا تصحب إلا أهل التقوى وأهل العلم ، وأهل الزهد في الدنيا من عباد الله الصالحين ، وأوليائه المؤمنين ؛ فإن المرء مع من أحب في الدنيا والآخرة كما في الحديث الصحيح ، وكما قال عليه الصلاة والسلام : « المرء من جليسه ، والمرء على دين خليله ؛ فلينظر أحدكم من يُخالِل » وقال عليه الصلاة والسلام : « الجليس الصالح خير من الوحدة ، والوحدة خير من الجليس السوء » .

فصحبة المتقين والصالحين قربة إلى الله ، وهي الصحبة المحمودة المشكورة ، وفي فضلها وردت الأخبار والآثار الكثيرة ، وهي المحبة لله وفي الله التي عظُم فضلها وثوابها ، وارتفع قدرها ومحلها من الدِّين .

وأما صحبة الأشرار ، ومن لا خير في صحبته من الغافلين المعرضين عن الله وعن الدار الآخرة فهي الصحبة المذمومة الممقوتة ، لأن أهل الشر والفساد يتعيّن بغضهم في الله ،

وتجب مباعدتهم ومجانبتهم ، وذلك من المهمات في الدين . ومن أحبّ في الله ولله مَنْ بَرَّ مِن عباد الله واتَّقى ، أبغضَ لا محالة من عصى الله وأعرض عن طاعته ؛ فإن الحب في الله والبغض في الله متلازمان لا يصح أحدهما بدون الآخر ، وهما من الدين بمنزلة عالية رفيعة ، وقد قال رسول الله ﷺ : « من أوثقِ عُرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « أفضل الأعمال الحبّ في الله والبغض في الله . . » وقال عليه الصلاة والسلام : « وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله » الحديثَ . وأوحى الله إلى عيسى عليه السلام : « لو عبدتني بعبادة أهل السماء وأهل الأرض وحبٌّ فيَّ ليس ، وبغض فيَّ ليس ، ما نفعك ذلك عندي » .

وقال عيسى عليه السلام : « تحبَّبوا إلى الله ببغض أهل المعاصي ، وتقرَّبوا إلى الله بالبعد عنهم ، واطلبوا رضا الله تعالى بسخطهم » .

وقال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ : مقاطعة الفاسق قربان إلى الله . انتهى .

فتبين بما ذكرنا : أنه ينبغي للمؤمن ويتعين عليه أن يحب أهل الخير والدين والعلم والصلاح أحياء وأمواتاً ، ويبغض أهل الباطل والفساد والظلم والفسوق أحياء وأمواتاً .

وينبغي له أيضاً : أن يختار صحبة الأخيار والأبرار ، ويجتنب صحبة الأشرار والفجار . وفي الحديث : « لا تصحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي » وأنَّ مَن لم يجد مؤمناً تقيّاً ، برّاً صالحاً يصحبه ويعاشره فالعزلة والانفراد خير له وأصلح من مخالطة أهل الشر والفساد ؛ فإن خلطة المفسدين عظيم ضررها ، كثير شرها ، وفيها آفات كثيرة ، وبَلِيّات هائلة عاجلة وآجلة ؛ فمنها : استراق الطبع من الطبع من حيث لا يشعر الإنسان ، ومنها : أن مشاهدة أهل الغفلة والإعراض تقتضي الأنس بهم ، والميل إلى ما هم عليه من سوء الحال ، وتهون على القلب وقع المعاصي ، وتجر إلى التشبه بهم ، والاستحسان لأقوالهم وأفعالهم ؛ وفي ذلك يقول الشاعر :

عَنْ ٱلْمَرْءِ لاتَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِٱلْمُقَارَنِ يَقْتَدي

وقال الآخر :

ما يُبرِىءُ ٱلْجَرْباءَ قُرْبُ سَليمةٍ ... مِنْها ، وَلٰكِنَّ السَّليمَةَ تَجْرَبُ

وبهذا السبيل تعرف ما في خلطة الأخيار وأهل الصلاح : من المصالح والمنافع ، والفوائد العاجلة والآجلة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك : إما أن يحذيك ـ أي يعطيك ـ ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه رائحة طيبة . ومثل الجليس السوء كنافخ الكير : إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه رائحة منتنة » .

فإن قلت : قد يصحب الإنسان صاحباً من أهل الخير والطاعة ، ثم يطرأ عليه ما يغيّر ذلك من الغفلة والمعصية ، فما الذي ينبغي لصاحبه أن يعامله به ؟

فأقول ينصحه باللطف والرفق حتى يرده إلى الله ؛ فإن رجع وإلا وعظه وأغلظ عليه وخوفه بالله . فإن لم ينفع فيه ذلك وأيس معه جانبه وأعرض عنه ، وانتظر فيه أمر الله . فإن عاد إلى ما كان عليه من الخير عاد له ؛ وإلا فلا خير في صحبة من لا خير فيه .

فإن قلت : الذي ينبغي للإنسان ويتعين عليه : بغض أهل المعاصي ومجانبتهم ، وترك المعاشرة والمخالطة لهم ، ومع ذلك فالإنسان مأمور بالنصيحة للمسلمين عموماً ، وبدعوة أهل الشر والمعصية إلى الخير والطاعة ؟

فأقول : الأمر كذلك ، ولكن النصيحة والدعوة إلى الخير لا تقتضي معاشرة ومخالطة ؛ بل إذا لقيهم ورأى للنصيحة والدعوة إلى الخير موضعاً فيهم فعل ذلك معهم ، وإن قصدهم بذلك وكان من أهله إلى أماكنهم من غير معاشرة ولا مخالطة فهو أيضاً مأمور به ومندوب إليه من أهله ، وفي محله فاعلم ذلك ، ولا يلبِّس عليك الشيطان . فإن السبيل واضح ، والحق غير ملتبس بالباطل .

* * *

ثم اعلم : أنه ينبغي لك إذا قصدت صحبة أحد ومصادقته ؛ ليكون لك جليساً وأنيساً ومعاوناً على أمور آخرتك ودنياك أن تقدم قبل عقد الصحبة واختيارها حسنَ النظر والاختبار ، والتفتيش عن أحوال من تريد أن تصحبه وتتخذه صديقاً ؛ فإن كان يصلح لذلك صحبته وإلا تركت ؛ فليس كل أحد يصلح للصحبة والمعاشرة ، ورب صحبة لم تتقدمها الخبرة وحسن النظر تعودُ وحشةً وعداوةً في أسرع وقت .

* * *

وقد قال حجة الإسلام رحمه الله تعالى : إذا أردت صحبة أحد فراعِ فيه خمس خصال : العقل ، والخلُق الحسن ، والصلاحُ ، وأن لا يكون حريصاً على الدنيا ، وأن لا يكون كذاباً . انتهى كلامه مختصراً ، وهو الغاية في ذلك والكفاية .

ثم إذا انعقدت الصحبة ، وتمت المودة بينك وبين صاحب فقد توجّهت عليك له حقوق لا بد لك من القيام بها ، وإلا كانت الصحبة صورة بلا حقيقة لا نفع فيها ولا طائل لها .

* * *

وحقوق الصحبة كثيرة ، وجملتها : أن تحبّ له ما تحبّ لنفسك من الخير ، وأن تكره له ما تكرهه لنفسك من الشر . وأن تنزله منزلة نفسك في الاهتمام بأموره ، والسعي في مصالحه ، وقضاء حوائجه ، والسرور بمساره والاغتمام

بمكارهه . وأن تجتهد في إدخال السرور عليه بكل وجه أمكنك ، وأن تحفظه حاضراً وغائباً وحياً وميتاً . وأن تحسن الوفاء مع أهله وأولاده وأقاربه بعد مماته وفي حياته كذلك ، وأن تواسيه من مالك عند حاجته ، وإن آثرته على نفسك كان أحسن وأفضل ، على مثل ما كان عليه السلف الصالح رحمة الله عليهم ، فقد كانت لهم سِيَرٌ وأفعال مع من صحبهم وعاشرهم محمودةً مشهورة حتى كان أحدهم يأتي إلى بيت صديقه في غيبته فيأكل من طعامه ، ويأخذ من متاعه ما أراد ، وكان الآخر يفعل مع أخيه كذلك .

وقيل لبعضهم : أخوك أحبّ إليك أم صديقك ؟ فقال : إنما أحبّ أخي ـ أي من النسب ـ إذا كان صديقي . وقال بعضهم لبعض مَنْ قَدِم عليه : هل يُدِخل أحدكم يده في جيب أخيه فيأخذ منه ما أراد ؟ فقال : لا . فقال : لستم إذاً بإخوان ، وكان الرجل منهم يقوم بأولاد صديقه وأهله بعد وفاته ، حتى أنهم لا يفقدون من أبيهم إلا وجهه ، وحكاياتهم في ذلك كثيرة معروفة . وهذا أمر قد تُوُدِّعَ منه من زمان سابق ، ولم يبق من الأخوّة في الله والصداقة إلا صورٌ ورسوم لا حاصل تحتها ! وقد أشبع الكلام في شرائط الصحبة وحقوقها وآدابها : الإمام حجة الإسلام في كتاب الصحبة من « الإحياء » ، وذكر من ذلك في « بداية الهداية » نبذة صالحة .

وعلى الجملة : فكل ما يجب عليك لعامة المسلمين من

الحقوق ، أو يستحب ، ففِعْلُ ذلك مع الصديق والصاحب آكد وجوباً ، وأكثر استحباباً .

حق المسلم على المسلم

ثم إن للمسلم على المسلم حقوقاً كثيرة ، وقد ذكرنا منها طرفاً في رسالة (المعاونة) فانظره إن شئت .

وقد قال رسول الله ﷺ : « حق المسلم على المسلم ستّة ، فقيل : وما هي يارسول الله ؟ قال : إذا لقيتَه فسلِّم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطَس فحمد الله فشَمِّته ، وإذا مرض فعُده ، وإذا مات فاتْبَعْه » .

ومن آكد حقوق المسلم على المسلم : النصيحة في الدِّين ، والمعاونة على البر والتقوى ، والحث على طاعة الله رب العالمين .

ومن أهم الحقوق : ستر العورات ، وتفريج الكربات ، والمعاونة في المهمات ، وقضاء الحاجات ، وإغاثة الملهوف ، ونصرة المظلوم ، وإعانة الضعيف ، والتيسير على المعسر ، والتوقير للكبير ، والرحمة للصغير ، وأن لا يؤذي أحداً من المسلمين ، ولا يستخف به ، ولا يحتقره ولا يخذله ، ولا يسخر منه ولا يستهزىء به ، وأن لا يغش أحداً من المسلمين ولا يحسده ولا يحقد عليه ، ولا يظنَّ به السوء ، وأن يهتم بأمور المسلمين ، ويفرح بمسارِّهم ، ويغتم بما يسوؤهم ، وأن يحب لسائرهم ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن

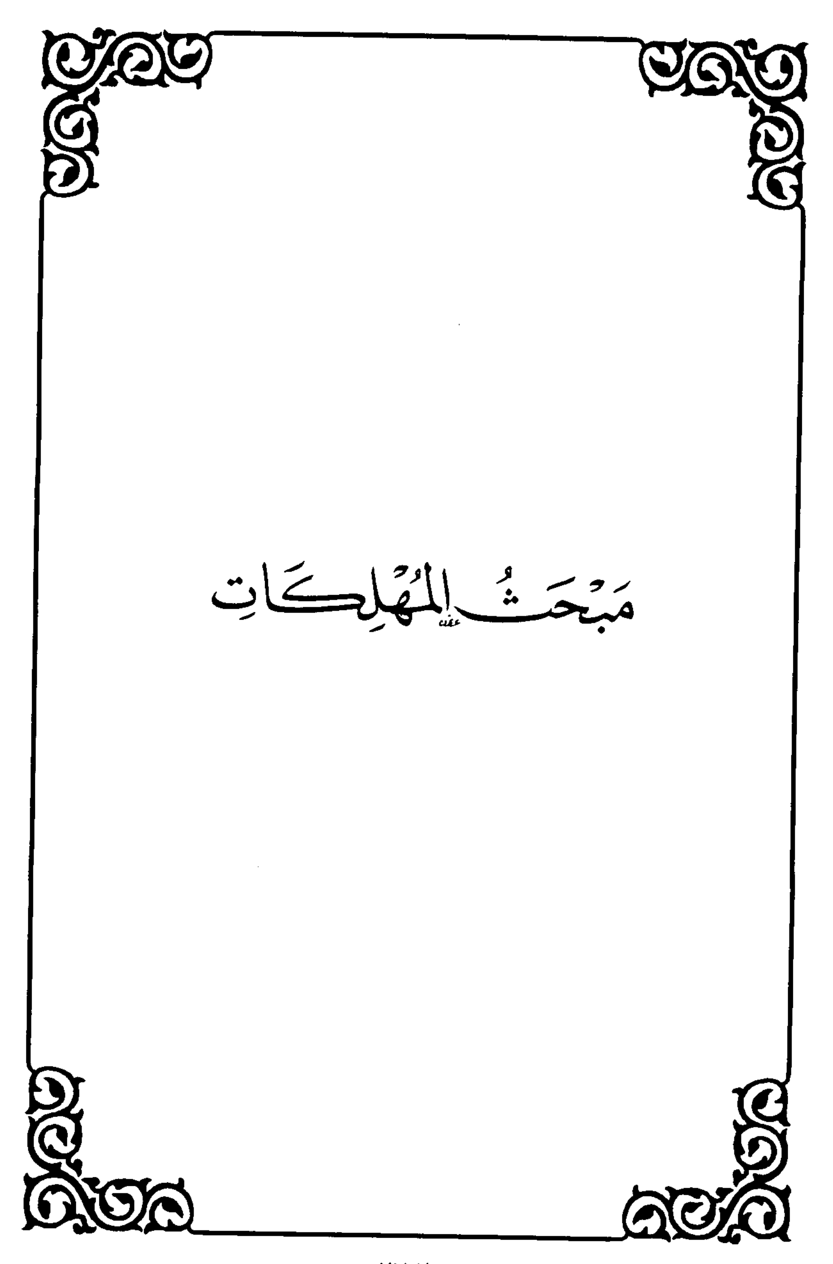
أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . وقال عليه الصلاة والسلام : « المسلم للمسلم كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » وقال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من غشّنا فليس منا » . وقال عليه الصلاة والسلام : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فقال رجل : ننصره إذا كان مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ » قال ﷺ : « تمنعه من الظلم فذلك نصرةٌ له » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تحاسدوا ولا تناجَشُوا ولا تباغضوا ولا تدابرُوا ولا يَبِعْ بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقِرُه ولا يَكْذِبُه ، التقوى ههنا ، ويشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام دمُه وماله وعرضُه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من نَفَّس عن مؤمن كُربة من كُرَب الدنيا نفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . . » الحديث .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته » والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

* * *



مَبْحَثُ المُهلِكَاتِ

طلب الحلال

واعلموا معاشر الإخوان أغنانا الله وإياكم بحلاله عن حرامه ، وبطاعته عن معصيته ، وبفضله عمن سواه : أن الورع عن المحرمات والشبهات ، وطلبَ الحلال والأكل منه مع اجتناب الحرام رَأساً اكتساباً وأكلاً وغير ذلك ، كل ذلك من أهم المهمات في الدين ، ومن أفضل ما يتقرب به العباد إلى الله رب العالمين ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

[البقرة : ٢/١٦٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥/٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

[النساء : ٤/٢٩-٣٠] .

وقال رسول الله ﷺ : « خير دينكم الورع » وقال عليه

الصلاة والسلام : « يا أبا هريرة ، كن ورعاً تكن أعبد الناس . . » الحديث .

وقال عليه الصلاة والسلام : « طلب الحلال واجب على كل مسلم » وقال عليه الصلاة والسلام : « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله طيّب لا يقبل إلا طيّباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون : ٢٣/ ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾ [البقرة : ٢/ ١٧٢] .

ثم ذكر الرجل أشعثَ أغبرَ يطيل السفر ، يمد يديه إلى السماء يا ربُّ يا ربُّ ! ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِّي بالحرام فأنَّى يستجاب لذلك » ! ؟ وقال ﷺ : « لا يدخل الجنة لحم نبت من سُحْت » . وقال عليه الصلاة والسلام : « كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به » وقال عليه الصلاة والسلام : « لأن تجعل في فيك تراباً خير لك من أن تجعل فيه طعاماً حراماً » . وقال ﷺ : « من اكتسب مالاً من غير حلّه فإن تصدَّق به لم يقبل منه ، وإن أنفق منه لم يبارك له فيه ، وإن تركه خلف ظهره كان زادَه إلى النار » الحديث .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من اشترى ثوباً بعشرة دراهم

وفيه درهم من حرام لم يقبل الله له صلاة ما دام عليه » فإذا كان هذا في الثوب الذي يكون عُشر ثمنه حراماً ، فكيف يكون الحال لو كان الثمن كله من الحرام ! ؟ وإذا كان هذا الثوب الذي يكون على ظاهر الجسد ، فكيف يكون الحال في الطعام الذي يكون في باطن الجسد ويجري في اللحم والدم والعروق والعظام وسائر أجزاء البدن ! ؟ فتأمّلوا ذلك جدّاً ، وأمعنوا فيه النظر ، واتقوا الله واحذروا .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يقبل الله تعالى صلاة امرىء وفي جوفه لقمة حرام .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا ، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار[1] لم يُتقبل ذلك منكم إلا بورع حاجز . ويقال : إن في التوراة : من لم يبال من أين مطعمه لم يُبالِ الله من أي أبواب النار أدخله .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : مثل الذي ينفق في طاعة الله من الحرام مثل الذي يغسل الثوب المتنجس بالبول . انتهى . وذلك لا يطهر الثوب ؛ ولكنه يزيد في نجاسته .

وقال ابن المبارك رحمه الله تعالى : رَدُّ درهم من شبهة

---

(١) الحنايا جمع حنية . وهي القوس ، والمراد حتى صرتم كالأقواس في الانحناء من طول الركوع والسجود ، وكالأوتار في النحافة والهزال من شدة الجوع .

أحب إلى الله من التصدق بمائة ألف درهم ومائة ألف ومائة ألف ، حتى عدّ ستمائة ألف .

وقال سهل بن عبد الله التُّستَرِي رحمه الله : من أكل الحرام عَصتْ جوارحه شاء أم أبىٰ ، علم أم لم يعلم . ومن أكل الحلال أطاعت جوارحه شاء أم أبى ، علم أم لم يعلم ، ووفق للخيرات . وكان السلف رحمهم الله يقولون : كُلْ ما شئت فمثله تعمل . انتهى .

قلت : والذي يأكل الحرام والشبهات وإن عمل بالطاعات في الظاهر ، فطاعاته غير مقبولة ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٥/ ٢٧] .

ولقوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » . ولا بد أن يعرض لآكل الحرام في طاعته من العوارض الظاهرة والباطنة ما يفسدها عليه ، ويحبطها ويخرجها عن كونها طاعة ، ومن تأمل ذلك وجربه من نفسه أو من غيره عرفه إن لم يكن مغروراً مستدرَجاً . فقد تبين لكم واتضح : أن الحرام يجب اجتنابه بكل حال ، ويتعين الاحتراز منه ، والبعد عنه بكل وجه .

* * *

وأما الشبهات : فيتأكد اجتنابها وربما وجب . وفي الحديث الصحيح : « من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه

وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام » . وقال عليه الصلاة والسلام : « دع ما يَرِيبك إلى ما لا يَرِيبك » انتهى .

والشبهات كل شيء تتشكك فيه ، وتتردد في كونه حلالاً أو حراماً ، شكّاً وتردداً ينشأ عن أسباب متعارضة ، فما كان من الشبهات أصله الحل ، ثم طرأ الشك في تحريمه فيجوز الأخذ فيه بالأصل ، والورع عن هذه الشبهة فضيلة مهمة ، وما كان من الشبهات أصله التحريم ، ثم طرأ الشك في حله فهذه شبهة يجب اجتنابها اعتماداً على الأصل .

وأقسام الشبهات كثيرة متفاوتة ، والورع عن سائرها مهمٌّ متأكد ؛ إلا ما كان من ذلك يرجع إلى الوسوسة والأوهام التي لا مستند لها ولا سبب يدل عليها ، مثل أن يقول الإنسان : أموال الدنيا كلها شبهات ، وليس تخلو أصولها عن شيء من المعاملات الفاسدة ، والأيدي المتعدية ، فأنا أتركها جملة ، أو آخذ ما أحتاج إليه منها من غير تفرقة . فمثل هذا وسواس وتنطُّع ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « هلك المتنطِّعون » قالها ثلاثاً . وأمثلة الوسوسة كثيرة ، وترجع إلى كل توهم وتشكك لا يستند إلى سبب معروف .

ولا ينبغي للإنسان أن يقول : ما بقي في الدنيا من الحلال شيء يعذر بذلك نفسه في ترك الورع والاحتياط ، فإن ذلك قول فاسد .

قال الإمام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ : الحلال بيِّن

والحرام بيِّن ـ كما قال عليه الصلاة والسلام ـ وذلك في زمانه عليه السلام ، وكذلك يكون في كل زمان ، وإنما تختلف الأزمنة في قلة الحلال وكثرته باختلاف صلاح الأزمنة وفسادها . قال : فالحلال كثير والحرام كثير ، وليس الحرام بالأكثر . ولا بد في كل زمان من وجود الأقسام الثلاثة : الحلال ، والحرام ، والشبهات على وفق ما أخبر به رسول الله ﷺ في قوله « الحلال بيّن . . . » الحديث . انتهى كلامه رحمه الله بمعناه .

ثم اعلموا رحمكم الله : أنّا قد نبهنا على الشبهات بما قدمناه فيها من الكلام المجمل الوجيز . وقد أطال الكلام فيها ، وفي تفاصيل أقسامها حجة الإسلام في كتاب الحلال والحرام من « الإحياء » ، فمن أراد شفاء الغليل في ذلك فعليه بالكتاب المذكور ؛ فقد ذكر بعض العلماء رحمهم الله : أنه لم يؤلَّف في الإسلام مثل ذلك الكتاب .

قلت : وجميع الإحياء لم يؤلف في الإسلام مثله في فنه كما يعرف ذلك ويتحققه من نظر فيه وتأمله من أهل العلم والإنصاف .

اقسام محرمات

ثم اعلموا رحمكم الله أن المحرمات على قسمين :

القسم الأول : شيء محرَّم في عينه ، وذلك كالميتة والدم والخمر ، وما لا يحل أكله من الطير والسباع والحيوانات

والحشرات . وهذا القسم لا يحل منه قليل ولا كثير بوجه من الوجوه إلا عند الاضطرار . وهو : أن يشرف الإنسان على الهلاك ثم لا يجد غيره ، فعند ذلك يحل له التناول منه ، قال الله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥/ ٣] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢/ ١٧٣] .

والقسم الثاني من المحرمات : شيء هو حلال في نفسه ولكنه مملوك لغيرك ؛ فمهما كان شيء منها مملوكاً لغيرك لم يحل لك أخذه ، ولا تناوله إلا بوجه صحيح سائغ في الشرع ؛ كالشراء والنذر ، والهدية والهبة ، والصدقة والإرث ، إلى غير ذلك من الوجوه السائغة في الشرع . فإن أخذت شيئاً من ذلك بغير وجه شرعي صار محرماً عليك ، وصرت بأكله أو شربه أو لبسه آكلاً وشارباً ولابساً للحرام .

والوجوه المحرَّمة كثيرة ؛ مثل الغصب ، والسرقة ، والخيانة والربا ، وغير ذلك .

وكذلك إذا كان مال الإنسان الذي تعامله أو تأخذه من يده حراماً لم يفدك الأخذ من ماله ، وإن كان بوجه سائغ في الشرع ؛ مثال ذلك : أن يهدي إليك أو يبيع لك على وجه صحيح من تعلم أن أكثر ماله حرام أو شيئاً من ماله ذلك ؛ فلا تُصَيِّرهُ المعاملة الصحيحة فيما بينك وبينه حلالاً مهما كان حراماً ؟؟ وهذا موضوع إشكال وقد يغلط فيه من لا بصيرة له . فعُلم أن المعاملة وإن كانت صحيحة لا تصيِّر الحرام حلالاً ، وأن المعاملة الفاسدة يصير بها الحلال حراماً ؛ كالذي تعامله معاملة غير صحيحة من رباً ونحوه على مال حلال ، فيصير بها ذلك المال الحلال حراماً .

* * *

ثم اعلموا رحمكم الله : أن الناس بالنسبة إلى المعاملة في أمور الدنيا على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : المعروفون بالصلاح والخير والورع ، تجوز معاملتهم مطلقاً من غير سؤال ولا تفتيش .

والقسم الثاني : هم المجهولون الذين لا تعرفهم بصلاح ولا تخليط وأحوالهم مستورة عنك ؛ فهؤلاء أيضاً تجوز معاملتهم مطلقاً ، ولكن يستحب السؤال والتفتيش إن أمكن برفق ودون إيذاء ، وهو من الورع المستحب ، أعني السؤال .

والقسم الثالث : هم المعروفون بالتخليط وقلة الورع ، وكثرة المجازفة في بيعهم وشرائهم ومعاملاتهم ، وهؤلاء ينبغي للإنسان المتقي أن لا يعاملهم رأساً ؛ فإن احتاج إلى معاملتهم تأكد عليه أن يقدم التفتيش والسؤال عما يأخذه من أيديهم ، وذلك من الورع المهم .

فأما إذا علم أو غلب على ظنه في شخص معين أن جميع ماله حرام ، فتحرم عليه معاملته . وكذلك إذا علم أن أكثر ماله حرام ، وأن الحلال في يده عزيز نادر . وقد سأل ابنَ المبارك رحمه الله بعضُ وكلائه عن شخص يعامل السلطان ، هل يعامله أم لا . فقال له : إن كان لا يعامل إلا السلطان فقط فلا تعامله ، وإن كان يعامل السلطان ويعامل غيره فعامله ، انتهى .

* * *

الورع

قلت : ومن أراد التورع والتحري وإيثار الحلال ، فينبغي له أن يتصف بالقناعة من الدنيا ، وأن يرغب في التقلل منها ، وأن يجانب الإسراف والتوسع والميل إلى شهواتها ؛ فقد قال السلف الصالح : الحلال لا يحتمل السرف . ومن توسع وتبسط في لذات الدنيا احتاج لا محالة إلى مباشرة أسباب لا تتم بل لا تتأتى إلا باقتحام شبُهات ، بل باقتحام محرمات كما يعرف ذلك من جرَّبه من أهل الإنصاف والنصيحة

لأنفسهم ، دون الحمقى المغرورين ، والأغبياء الجاهلين ، من الذين ترى أحدهم يتناول الشبهات والمحرمات ويدعي لنفسه أنه يتناول الحلال ويتحراه ، ويقيم لنفسه في ذلك الحجج الساقطة ، ويطلب لها التأويلات البعيدة ! والتقوى والورع هو الواجب والمتعيّن ، فإن لم يكن فلا أقل من الإنصاف والاعتراف ، وملازمة الانكسار والاستغفار ، وقد قيل لبعض السلف الصالح رحمهم الله : من أين تأكل ؟ فقال : من حيث تأكلون ، ولكن ليس من يأكل وهو يبكي مثل من يأكل وهو يضحك . والله سبحانه أعلم .

* * *

فقد تبين لكم أن الورع مِلاك الدين وسبيل أهل الحزم واليقين من المؤمنين وقد كان للسلف الصالح رحمهم الله العناية التامة البالغة بالورع ، ولهم فيه النظر الدقيق ، وحكاياتهم في ذلك مشهورة ، وسيرَهم فيه معروفة ومذكورة . وقد بلغنا أن ابن سيرين رحمه الله : اشترى من دهن الزيت حِبَاباً[1] كثيرة بمال كثير ، فوجد في واحد منها فأرة ميتة فصبها كلها ، وقال : أخاف أن تكون الفأرة قد ماتت في المعصرة وجرى عليها الزيت كله .

---

(١) الحباب ـ بالكسر : جمع حب ـ بالضم ـ الجرة الضخمة .

وكان سفيان الثوري رحمه الله ، إذا لم يجد الحلال الصافي يأكل الرمل ويمكث عليه الأيام .

ورجع ابن المبارك من مَرْوْ بخراسان إلى الشام في قلم استعاره ونسي أن يرده على صاحبه .

ورجع إبراهيم بن أدهم رحمه الله من القدس إلى البصرة في ردِّ تمرة سقطت في تمر اشتراه حال الوزن ، وغفل عن ردها حينئذٍ .

وكان ذو النون المصري رحمه الله محبوساً ، فحملت إليه امرأة صالحة طعاماً حلالاً من ثمن غزلها فرده وقال : جاءني على طبق ظالم يعني به يد السجان ، وكانت أرسلته له على يده .

وكان بعضهم عند إنسان محتضر بالليل ، فلما مات المحتضر قال لهم : اطفئُوا السراج ، فإنه من الآن صار في ملك الورثة .

وقال بعضهم : كنت مسافراً فتهت في الطريق واشتد عليّ العطش ، فاستقبلني جندي وسقاني شربة من ماء ، فعادت قساوتها على قلبي ثلاثين سنة . وحكاياتهم في ذلك أكثر من أن تحصى قصدنا بهذا اليسير منها التبرك بذكرهم ؛ لأن الرحمة تنزل عند ذكر الصالحين . وليعلم العاقل البصير تفاوت ما بين السلف والخلف ، ويعقل ويعرف في أي زمان هو ، وأي ناس الذين هو منهم وبين أظهرهم .

* * *

ثم اعلموا رحمكم الله : أن أكل الحلال ينور القلب ويرقِّقه ، ويجلب له الخشية من الله والخشوع لعظمته ، وينشط الجوارح للعبادة والطاعة ، ويزهِّد في الدنيا ويرغِّب في الآخرة ، وهو سبب في قبول الأعمال الصالحة واستجابة الدعاء ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام لسعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه : « أطِب طُعمتك تُسْتَجَب دعوتك » . وأما أكل الحرام والشبهات فصاحبه على الضدِّ من جميع هذه الخيرات : يقسِّي القلب ويُظلمه ، ويقيد الجوارح عن الطاعات ، ويرغّب في الدنيا . وهو سبب في عدم قبول الأعمال الصالحة وردِّ الدعاء ؛ كما في الحديث : أنه عليه الصلاة والسلام ذكر الرجل أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء يا ربّ يا ربّ ! ومطعمه حرام . . . » الحديث ، وقد تقدم فاحرصوا على أكل الحلال وعلى اجتناب الحرام كلَّ الحرص . وليس الورع خاصّاً بالأكل فقط ، بل هو عام في جميع الأمور .

* * *

وعليكم بالاكتساب من الحلال ؛ فإن الاكتساب مأمور به ، وفيه فضل وثواب كثير مهما صلحت فيه النية ، قال النَّبي ﷺ : « أطيب ما أكل الرجل من كسب يمينه » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من أمسى كالاً من عمل الحلال أمسى مغفوراً له » فلينوِ الإنسان باكتسابه صيانة دينه ، وصيانة وجهه عن الحاجة

إلى الناس ، وكفاية نفسه وعياله ، والتصدق بما فضل من كسبه عن حاجته على المحتاجين من عباد الله تعالى ؛ فيكون بذلك عاملاً للآخرة .

وليحذر كل الحذر : من أن يشتغل بسبب الكسب عن فرائض الله ، أو يقع بسببه في محارم الله ، فيخسر بذلك في دنياه وأخراه ، وذلك هو الخسران المبين .

وقد قال بعض السلف رحمهم الله تعالى : الرجال ثلاثة : رجل شغله معاده عن معاشه فهذا من الفائزين ، ورجل شغله معاشه لمعاده فهذا من المقتصدين ، ورجل شغله معاشه عن معاده فهذا من الظالمين . أو قال من الهالكين . انتهى .

* * *

فإن كنت ممن يكتسب بصنعة أو حرفة فعليك بالنصح فيها للمسلمين ، وبالإحسان والإتقان لصنعتك وحرفتك حسب الإمكان ؛ وفي الحديث : « إن الله يحب المؤمن المحترف » . وإياك والكذب والغشَّ ، وكثرة الإخلاف بالوعد ، ومن غدٍ ، بعد غدٍ . واحذر كل الحذر من التساهل في ترك إتقان الحرفة في معاملة من لا يعرفها كما ينبغي ؛ فتتساهل في حقه وتغرّه لقلة معرفته . وقد ورد : « وَيْلٌ للتاجر من لا والله ، وبلى والله ، وويل للمحترف من غدٍ بعد غدٍ » .

آداب التاجر

وإن كنت ممن يكتسب بالتجارة والبيع والشراء فعليك في جميع معاملاتك باجتناب المعاملات الفاسدة ، والبيوع المحرَّمة والمكروهة . وتعلَّم ذلك وتفقَّه فيه . لا بدَّ لك من ذلك ، ولا رخصة لك في تركه . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يبع في سوقنا ولا يشتر من لم يتفقه ، فإن من لم يتفقه أكل الربا وهو لا يعلم . إنتهى بمعناه . والحال كما ذكر رضي الله عنه .

وعليك في تجارتك بملازمة الإحسان والعدل ، وسلوك سبيل المسامحة والفضل ، وترك المشاحة والاستقصاء ؛ فإن ذلك أكثر للبركة وأنمى للتجارة . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « رحم الله عبداً : سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا اقتضى » . وقال عليه الصلاة والسلام : « أفضل المؤمنين : رجل سمحاً إذا باعَ ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا اقتضى ، سمحاً إذا قضى » .

ولا تبع ولا تشتر شيئاً إلا بإيجاب وقبول صحيحين ، فإن المعاطاة بدون لفظ لا تكفي في انعقاد البيع ، وقد أجازها بعضهم في المحقرات ، ومال إليه حجة الإسلام في « الإحياء » وأطال الكلام في المعاطاة هنالك . وعلى كل حال فالبيع والشراء بالإيجاب والقبول في كل شيء أحسن وأحوط .

* * *

وعليك باجتناب الكذب رأساً ، وقول : أخذته بكذا وأعطيت عليه كذا ، ولا أبيع إلا بكذا ، وأنت في قولك غير صادق فتخسر من حيث ترجو الفائدة ، ولا تحلف بالله على البيع والشراء ، ولا تتعوّد ذلك ؛ فإن الدنيا بأسرها أصغر وأحقر من أن يُحلف بالله عليها مع الصدق ، فكيف مع الكذب !

ولا حاجة إلى الأيمان . وفي الحديث : « إن الله يبغض البياع الحلاّف » .

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام : « اليمين منفقة للسلعة ، ممحقة للبركة والكسب » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « التجار يحشرون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى وبَرّ وصدق » .

* * *

واحذر كل الحذر من الغش والخداع والتلبيس ، وكتمان عيوب المبيع ؛ فإن ذلك محرم شديد التحريم ، وقد يفسد به البيع من أصله ، وقد مرَّ ﷺ على رجل يبيع طعاماً فأدخل يده فيه فمسّت أصابعه بللاً فقال : « يا صاحب الطعام ما هذا ؟ فقال : أصابته السماء ، يعني المطر » ، فقال عليه الصلاة و السلام : « هلاّ جعلته ظاهراً حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا » وفي رواية : أنه رأى داخل الطعام طعاماً رديئاً فقال

لصاحبه : « هلاَّ بعت هذا على حدته وهذا على حدته ! من غش المسلمين فليس منهم » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما ، وإن كذبا وكتما مُحقت بركة بيعهما » . فلا يحل لأحد أن يبيع المعيب إلا ويُبيِّن ما فيه من العيب ، فإن لم يبين وكان من الحاضرين من يعلم ذلك وجب عليه أن يبين ، وقد ورد الحديث بذلك ، وهو من النصح الواجب . ومن الغش المحرَّم : خلطُ جيّد المتاع برديئه وبيعهما على حدة واحدة تلبيساً وخداعاً .

ومنه : إدخال الدرهم الزائف في الدراهم الجيدة ؛ وذلك مما لا يجوز . فإن أعطاه الزائف بنقصان وجده بين الدراهم مسامحة ، وكان يعرف من حالِهِ أنه سَيُرَوِّجهُ على مسلم آخر في بيع ثان لم يحلَّ ذلك . فلا خلاص من النقد الرديء الذي يخالف نقد البلد إلا بأن يرميه في بئر ونحوها ؛ كما كان يفعل ذلك بعض السلف الصالح . أو يذهب به إلى الصائغ ليخرج ما فيه من الفضة الخالصة ، فيكون نقداً صالحاً ، ويكون الغش الذي فيه من نحاس ونحوه نافعاً على قدره ، ومن لم تسمح نفسه بذلك فليحترز من أخذ الدراهم الزائفة التي لا تجوز المعاملة عليها ، وإذا وقع في يده الدرهم الزائف وكان يعرف صاحبه الذي عامله عليه فليرده على صاحبه إن لم تسمح نفسه بإتلافه ، ولا يروِّجه على مسلم آخر فيأثم بذلك .

* * *

وليتَّق التاجر ربه في كل شيء ولا سيما في المكيال والميزان ؛ فإن الخطر فيهما عظيم ، قال الله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين : ٨٣/ ١-٣] .

وقال عليه الصلاة والسلام للتجار : « إنكم وُلّيتم أمراً هلكت فيه الأمم السابقة : المكيال والميزان . . » الحديث ، فلا بد له من العدل ، وهو أن يأخذ ويعطي على حدّ سواء ، ويحترز ويحتاط ، وإن أرجح قليلاً إذا أعطى ، ونقص قليلاً إذا أخذ كان ذلك أفضل وأحوط ، كان بعض السلف الصالح يفعل ذلك ويقول : لا أشتري الويل من الله بحبة . يريد الويل المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين : ٨٣/ ١] وأراد بالحبَّة هنا القدر اليسير من المال .

* * *

ومن الفضائل في حق المُتَّجِر : إقالة النادم ، والتيسير على المعسر ، والتجاوز عن الموسر ، وإقراض المستقرض ، وقضاء حاجة المحتاج .

قال عليه الصلاة والسلام : « من أقال نادماً بيعته أقال الله عثرته يوم القيامة » . وفي الحديث الصحيح : « إن الله أُتي بعبد لم يعمل خيراً قط ، غير أنه كان يداين الناس ، وكان يأمر غلمانه بالتيسير على المعسر ، والتجاوز عن الموسر ويقول :

لعل الله يتجاوز عنا ؛ فقال الله له : نحن أولى بذلك منك ؛ فتجاوز عنه » .

وقال ﷺ : « كل قرض صدقةٌ » . وقال عليه الصلاة والسلام « رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر . . . » الحديث .

* * *

وليحذر كل الحذر : من البيع على بيع أخيه ، والشراء على شراء أخيه ؛ ومثال ذلك : أن يقول للبائع أو للمشتري في زمن الخيار : أنا أبيعُك غير هذا بأرخص منه ، أو أشتري منك هذا بأكثر مما اشتراه ؛ وذلك محرّم منهي عنه .

وكذلك النَّجْش : وهو أن يزيد في ثمن السلعة من غير رغبة فيها ليغُرّ غيره من المسلمين .

وليحذر أيضاً : من احتكار الطعام ؛ فإنه محرَّم شديد التحريم . وقد وردت فيه أخبار فيها تشديدات هائلة ، مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « من احتكر طعاماً أربعين ليلة فقد برىء من الله وبرىء الله منه » . وقوله عليه الصلاة والسلام : « الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون » . وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يحتكر إلا خاطىء » .

وقال ﷺ : « من احتكر طعاماً أربعين يوماً ثم تصدّق به لم يكن له كفارة » . وفي الحديث : « إن الحاكرين وقتلة النفوس يحشرون يوم القيامة معاً » .

ومعنى الاحتكار : أن يشتري الإنسان الطعام في أوقات الغلاء وشدة حاجة الناس إلى الأطعمة ، ثم يخبؤه ويحبسه ليبيعه بأغلى .

فإن أخذه في وقت الرخص على نية أن يدَّخره للغلاء ، أو كان من غلته زائدة على حاجته فادخره على تلك النية لم يخلُ في ذلك من كراهة شديدة ، وصار في خطر عظيم من محبته ورغبته في غلاء الأسعار ، ولَوْ سلم من ادِّخار الطعام لما سلم من محبة الغلاء الذي فيه أعظم المشقة على المسلمين . وقد كان السلف الصالح يكرهون البيع والشراء في الأطعمة لما في ذلك من التعرض لضرورة الإنسان ؛ بحيث يكره السعة والرخاء ، ويحب القحط والغلاء .

تحريم الربا

وأما المعاملة بالربا : فإثم عظيم ، وحُوبٌ كبير ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾

[البقرة : ٢/ ٢٧٨ـ٢٧٩] .

فمن ذا الذي يقوى على محاربة الله ورسوله ! نعوذ بالله تعالى من المقت والبلاء ، ودرك الشقاء ! وقد لعن رسول الله ﷺ : « آكل الربا ومؤكله وشاهده وكاتبه » .

وعدَّ عليه الصلاة والسلام أكل الربا في السبع الموبقات ، التي منها « الإشراك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الربا ثلاثة وسبعون باباً ، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أربعة حقٌّ على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها : مدمن الخمر ، وآكل الربا ، وآكل مال اليتيم بغير حق ، والعاقُّ لوالديه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبُرُّ بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح مِثْلاً بمِثْل ، سواء بسواء ، يداً بيد . وإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد » فقد بيّن عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث حكم الربا ؛ فليس لأحد بعد ذلك سبيل إلى الخلاف وترك الامتثال ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٥٩/٧] .

وقال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٢٤/ ٦٣] .

فمن باع ذهباً بذهب ، أو فضة بفضة ، أو بُرّاً ببر ، أو ذرة بذرة ، أو تمراً بتمر ، لزم أن يكون ذلك مِثْلاً بمِثْل ، يداً بيد . فإن اختلف النوع كالبر بالذرة أو الذرة بالتمر ، جازت المفاضلة ووجب التقابض في الحال . وفي الباب فروع ومسائل كثيرة محلها كتب الفقه ؛ وهذا جملة القول في ذلك .

فاحذروا معاشر الإخوان ـ رحمكم الله ـ من الربا غاية الحذر ، واحترزوا منه غاية الاحتراز ، فإنه الله تعالى حرمه وحظره على عباده ، وجعله خبيثاً ممحوقاً لا خير فيه ولا بركة ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢/ ٢٧٦] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

[آل عمران : ٣/ ١٣٠ـ١٣٢] .

فتأملوا وانظروا ، واتقوا الله واحذروا .

* * *

واعلموا أن في بيع النسيئة بسعر ينقص عن السعر الحاضر سَعةً عن الربا ، وهو جائز مباح ؛ فليأخذ به الراغب في أرباح الدنيا .

* * *

وإياكم وما يتعاطاه بعض الجهال الأغبياء المغرورين الحمقى من استحلالهم الربا في زعمهم بحيل أو مخادعات ، ومناذرات يتعاطَوْنها بينهم ، ويتوهمون أنهم يسلمون بها من إثم الربا ، ويتخلصون بسببها من عاره في الدنيا وناره في العقبى ؛ وهيهات هيهات ! إن الحيلة في الربا من الربا ، وإن

النذر شيء يتبرر به العبد ويتبرع ويتقرب به إلى ربه ، لا يصح النذر إلا كذلك . وقرائن أحوال هؤلاء تدل على خلاف ذلك ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لانذر إلا فيما ابتُغِي به وجه الله » . وبتقدير أن هذه المناذرات على قول بعض علماء الظاهر تؤثر شيئاً فهو بالنسبة إلى أحكام الدنيا وظواهرها لا غير ، فأما بالنسبة إلى أحكام الباطن وأمور الآخرة فلا .

ومن تأمل كلام علماء الدين أرباب البصائر وجدهم مجمعين على ذلك ، وقد قال حجة الإسلام فيمن يحتال في إسقاط الزكاة بأن ينذر ماله لغيره في آخر الحول ؛ وذكر صوراً تشبه هذا ، ثم قال : وهذا كله من الفقه الضارّ ، ومن قال بجوازه فيعني بذلك قطع المطالبة بالنسبة إلى أحكام الدنيا ، أما إذا رجع الأمر إلى أحكم الحاكمين وجبار الجبابرة فليس يغني ذلك شيئاً . انتهى كلامه بمعناه .

وقد حلَّت ببني إسرائيل أنواع العقوبات من الله ؛ لمّا أخذوا بأمثال هذه الحيل والمخادعات ، كما يعرف ذلك من عنده علم بسِير الأولين . ولولا خشية الإطالة لأوردنا من ذلك طرفاً ، وخير الكلام ما قلّ ودلَّ ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [المائدة : ٥/ ٤١] .

* * *

ومن الربا أكل أموال الناس بالباطل ، وجهاتُ أكل أموال الناس بالباطل كثيرة ، وقد نهى الله عن جميع ذلك بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء : ٤/٢٩] .

فمن جهات أكل أموال الناس بالباطل : جميعُ ما يأخذه السلاطين الظلمة وأعوانهم من أموال المسلمين من الجبايات والمكوس والعشور وغير ذلك ، وذلك محرم شديد التحريم .

والمأخوذُ من الحرام السحت الذي لاشبهة فيه . والمكاس والعشّار من المتعرضين لسخط الله ومقته ، وقد ورد في ذمّهم وشدة عقاب الله لهم الأخبار الكثيرة ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنة صاحب مكس » . قال يزيد بن هارون ـ رحمه الله ـ : يعني العشار . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن صاحب المكس في النار » .

ومن أكلِ أموال الناس بالباطل : ما يؤخذ ظُلماً بالغصب والنهب ، والسرقة والخيانة في الأمانات ، وما يقتطعه الإنسان من أموالهم بالأيمان الفاجرة وشهادات الزور ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « من ظَلَم قِيد شبر من الأرض طُوِّقَه من سبع أرضين » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يحل لمسلم أن يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفس منه » قال ذلك لشدة ما حرَّم الله من مال المسلم على المسلم .

وقال عليه الصلاة والسلام في السرقة : « لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل فتقطع يده » .

وقال عليه الصلاة والسلام في الخيانة : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا إيمان لمن لا أمانة له » . وقال ﷺ : « لا دين لمن لا أمانة له ولا صلاة ولا زكاة له . . » الحديث .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاث متعلقات بالعرش : الرحم تقول : اللهم إني بك فلا أقطع ، والأمانة تقول : اللهم إني بك فلا أخان ، والنعمة تقول : اللهم إني بك فلا أكفر » .

* * *

وأما اقتطاع أموال المسلمين بالأيمان الفاجرة وشهادة الزور فذلك من الكبائر ، وفيه من الوعيد الشديد الهائل ما لايخفى ؛ قال عليه الصلاة والسلام : « من اقتطع مال أخيه المسلم بيمين فاجرة فليتبوأ مقعده من النار » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من حلف على مال امرىء مسلم بغير حقه لقي الله تعالى وهو عليه غضبان » .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ثم قرأ رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [آل عمران : ٣/ ٧٧] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، واليمين الغموس » .

قال الحافظ المنذري رحمه الله : سُمِّيت اليمين الغموس غموساً لأنها تغمس صاحبها في الإثم في الدنيا ، وتغمسه في النار في الآخرة . انتهى . واليمين الغموس : هي التي يقتطع بها الإنسان شيئاً من مال أخيه المسلم وإن كان ذلك شيئاً يسيراً ؛ حتى قال عليه الصلاة والسلام : « ولو قضيباً من أراك » .

* * *

وأما الاقتطاع من أموال الناس بشهادة الزور فأن يشهد به له غيره بشهادة باطلة وهو يعلم ذلك ويريده فيأثم المشهود له والشاهد ؛ فيكون الشاهد على مثل ذلك ممن باع آخرته بدنيا

غيره . وشهادة الزور من أكبر الكبائر ، كما في الحديث الصحيح . وقال عليه الصلاة والسلام : « عدلت شهادة الزور الإِشراك بالله » قالها ثلاث مرات .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تزول قدما شاهد الزور حتى يوجب الله له النار » .

* * *

ومن أكل أموال الناس بالباطل : ما يأخذه الحكّام والعمّال من الرُّشا والهدايا . ورشوات الحكام وهدايا العمال من السحت الحرام ، وقد لعن عليه الصلاة والسلام « الراشي والمرتشي والرائش وهو الساعي بينهما » وقال عليه الصلاة والسلام : « هدايا العمال غُلول » والعمال هم الذين يستعملهم السلطان على الأمور .

* * *

ومما يتأكد الاحتراز عنه ، ويتعين على كل مؤمن أن يصون نفسه منه : مسألة الناس ، إلا عند الضرورة أو الحاجة الشديدة التي لا بد منها ، ولا غنى عنها ، قال رسول الله ﷺ : « لا تحل المسألة لغنيّ ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيّ » والمرة : هي القوة . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس على وجهه مُزعة لحم » وقال عليه الصلاة

والسلام : « مسألة الغَنِيِّ نار ، إن أُعطيَ قليلاً فقليل ، وأن أعطى كثيراً فكثير » . وسئل عليه الصلاة والسلام عن الغِنىٰ الذي لا تحل معه المسألة فقال : « قدر غدائه وعَشائه » وقال عليه الصلاة والسلام : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطَوْه أو منعوه » . وقال عليه الصلاة والسلام : « استغنُوا عن الناس ولو بشَوْص السواك »[1] .

تحريم الخمر

وقد رأينا أن نذكر ها هنا شيئاً مما ورد في تحريم الخمر وذمِّها . وهذا الموضع من الكتاب من أنسب المواضع لذكر ذلك ؛ لأنه في تتمة الكلام على الورع عن المحرمات من المأكولات والمشروبات وغيرها .

والخمر من الأشربة التي حرّمها الله وحظرها ، ونهى عنها في كتابه المبين وعلى لسان رسوله الأمين ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٥/ ٩٠ـ٩١] .

وقال رسول الله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » فناهيك بهذا حرمة ومذمة

---

(١) أي بغسالته وقيل : بما يتفتت منه عند التسوك .

لشيء إذا تعاطاه الإنسان فارقه الإيمان ؟! .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » زاد في رواية « وآكل ثمنها » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرب الخمر . . . » الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام : « مُدمِن الخمر إن مات لقي الله تعالى كعابد وثن » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدّق بالسحر » . وقال عليه الصلاة والسلام « اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر » . وقال عليه الصلاة والسلام : « الخمر جِمَاع الإثم ، والنساء حبائل الشيطان ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة » . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما حُرّمت الخمر مشى أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم إلى بعض وقالوا : حرمت الخمر وجُعلت عِدْلاً للشرك ؛ أي في الإثم . وقال عليه الصلاة والسلام : « من شرب الخمر خرج نور الإيمان من جوفه » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من شرب الخمر سقاه الله من حميم جهنم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « كل مسكر حرام ، وإن على الله عهداً لمن شرب الخمر أن يسقيه من طينة الخبال ، قالوا : يارسول الله ، وما طينة الخبال ؟ قال : عَرَق أهل النار أو عصارة أهل النار » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا شربوا الخمر فاجلدوهم ، ثم إن شربوا فاجلدوهم ، ثم إن شربوا فاجلدوهم ، ثم إن شربوا فاقتلوهم » .

قال الحافظ المنذري رحمه الله تعالى : قتل شارب الخمر قد جاء في غير ما وجه صحيح وهو منسوخ . والله أعلم . انتهى .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الخمر أم الخبائث » وقال عليه الصلاة والسلام : « من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من شرب الخمر لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً » .

والوارد في تحريم الخمر وذمها والتحذير منها كثير شهير ، وفيما ذكرناه كفاية لمن وفقه الله فاحذروا عباد الله ـ رحمكم الله ـ من هذا الشراب الخبيث ، الذي حرمه الله ، وجعل السخط والمقت والخزي حظَّ شاربه في الدنيا والآخرة . ومن ابتلي بشربها فليتب منها من قبل أن تحلّ به العقوبة ، أو يموت فيصير إلى النار وسخط الجبّار . نسأل الله لنا ولكم العافية والسلامة من جميع البليات .

حفظ القلب والجوارح

واعلموا معاشر الإخوان ـ جعلنا الله وإياكم ممن صلحت سريرته وعلانيته ، واستقام باطنه وظاهره على اعتقاد الحق والعمل به ـ : أن من أهم المهمات على كل مؤمن مراقبة قلبه وجوارحه ومراعاتهما ، وبذل الجهد في حفظهما وكفهما عن

مساخط الله ومكارهه ، واستعمالهما بمحاب الله ومراضيه ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء : ١٧/ ٣٦] .

والقلب والجوارح من أعظم نعم الله على عباده ؛ فمن استعملها بطاعته وزيَّنها بمحابِّه ، وصرف كلاً منها فيما خلق له فقد شكر النعمة ، وحفظ الحرمة ، وأحسن الخدمة ، وله عند الله جزاء الشاكرين وثواب المحسنين ؛ إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً . ومن أرسل قلبه وجوارحه في مخالفة الأمر ، وأهملها وأضاعها ، ولم يحفظها ، فقد كفر نعمة الله فيها ، واستوجب الذم والعقوبة من الله بسببها ، وستشهد عليه بين يدي الله بما عمل بها من معاصي الله ، كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور : ٢٤/ ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يسٓ : ٣٦/ ٦٥] .

وأما القلب : فهو رئيس الجوارح وأميرها ، وعليه يدور صلاحها وفسادها ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألاَ وهي القلب » .

وأما الجوارح : فنعني بها الأعضاء السبعة : العين ، والأذن ، واللسان ، والبطن ، والفرج ، واليد ، والرجل .

* * *

فأما العين : فهي نعمة عظيمة من الله على عبده ، وقد خلقها له لينظر بها في عجائب مصنوعاته في أرضه وسمٰواته ، فيزداد بذلك معرفة ويقينا بربه ، وطاعة وخدمة له . وليهتدي بها في الظلمات ، ويستعين بها على الحاجات ، فإن استعملها فيما خلقت له كان من المطيعين الشاكرين . وإن أطلقها وأرسلها فيما حرّم الله عليه من النظر إلى النساء الأجانب والصور الجميلة بباعث الشهوة ، فقد عصى وتعرض للعقاب والبلاء . فليحذر المؤمن من ذلك كل الحذر ، ومن النظر إلى أحد من المسلمين بعين الاستصغار والاحتقار والاستخفاف ، ومن التطلع إلى عورات المسلمين وعيوبهم .

وكذلك ينبغي له أن لايكثر النظر إلى شهوات الدنيا ومباحاتها التي تدعو النفس إلى الرغبة فيها ، فإن ذلك ربما فرَّق القلب ، وأقبل به على عمارة الدنيا وجمع حُطامها ، والإعراض عن الآخرة وترك الاستعداد لها ؛ فحفظ النظر عن ذلك مهِمٌّ ومتأكد ، لاسيّما على المتوجهين المقبلين على الله والدار الآخرة .

وأما النظر إلى المحرمات : من النساء الأجنبيات ، والصور المشتهيات التي لا تحل ، فذلك محرم شديد التحريم . قال الله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور : ٢٤/ ٣٠] .

وروي عن النَّبي ﷺ أنه قال « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، من تركها مخافة من الله أعطاه الله عبادة يجد حلاوتها في قلبه » . وقال عيسى عليه السلام : « النظرة تزرع في القلب شهوة ، وكفى بها لصاحبها فتنة » .

* * *

وأما الأذن فهي من أعظم النعم أيضاً ، وقد خلقت للعبد ليستمع بها كلام ربه وسنة نبيه ، وكلام العلماء والحكماء من صالحي عباد الله ، فيستفيد بذلك سلوك سبيل مرضاة الله ، وينتفع بها في معاشه الذي يستعين به على معاده ـ أعني الأذن ـ فإن أصغى بها إلى استماع ما حرم الله عليه : من كذب ، وغيبة ، وكلام قبيح فقد كفر النعمة ولم يشكرها ؛ لأنه قد استعملها في غير ما خلقت له .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : ولا تظننَّ أن الإثم يختص به القائل دون المستمع ، فإن المستمع شريك القائل ، وهو أحد المغتابين . انتهى .

فالمستمع إلى الخير شريك في ثوابه ، والمستمع إلى الشر شريك في إثمه . والله أعلم .

* * *

وأما اللسان : فهو من أعظم نعم الله على عبده ، وفيه خير كبير ، ونفع كثير لمن حفظه واستعمله فيما خلق له . وفيه شر كثير ، وضرر عظيم لمن أضاعه واستعمله في غير ما خلق له . وقد خلقه الله تعالى للعبد ليكثر به من ذكره وتلاوة كتابه ، ولينصح به عباده ويدعوهم به إلى طاعته ، ويعرفهم ما يجب عليهم من عظيم حقه ، وليظهر به ما في ضميره من حاجات دينه ودنياه . فإن استعمله بذلك كان من الشاكرين ، وإن شغله واستعمله بخلاف ما خلق له كان من الظالمين المعتدين .

ثم إن أمر اللسان مهم جداً ، وهو أغلب أعضاء العبد عليه ، وأقواها في سياقته إلى الهلاك إن لم يضبطه ويكفه عما حرم الله عليه .

وفي الحديث : « وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » . وقال عليه الصلاة والسلام : « رحم الله امرأ قال خيراً فغنم ، أو سكت عن شر فسلم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من صمت نجا » وقال عليه الصلاة والسلام : « كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ذكر الله أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر » . وقال عليه الصلاة والسلام « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من

سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها في النار سخطه إلى يوم يلقاه » .

وفي الحديث الآخر : « إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالاً فيهوي بها في النار أبعد من الثُّريا » .

فخطر اللسان عظيم ، وأمرُه مخوف ، ولا ينجّي منه إلا الصمت وترك النطق إلا عند الحاجة بقدرها ، ويكون له في تلاوة كتاب الله وفي الإكثار من ذكر الله شغلٌ شاغل عن الخوض في الباطل ، وفيما لا يعنيه من الكلام .

آفات اللسان

ومن أعظم آفات اللسان : الكذبُ ، وهو الإخبار بغير الواقع ، سواء أثبَتَ به منفيّاً كأن يقول : وقع كذا لما لم يقع : أو نفى به ثابتاً كأن يقول : لم يقع كذا لما قد وقع . وإثم الكذب عظيم ، وهو مناقض للإيمان ، وصاحبه متعرِّض بسببه للعنة الرحمن ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾

[النحل : ١٦/ ١٠٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾

[آل عمران : ٣/ ٦١] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أراد أن يلعن نفسه فليكذب » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال العبد يكذب

ويتحرَّى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » . وسُئل عليه الصلاة والسلام : أيكذب المؤمن ؟ فقال : « لا ، إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله . . » الحديث .

* * *

ومن أعظم آفات اللسان : الغِيبةُ ، وهي ذكرك أخاك المسلم في غَيْبته بما يكرهه لو سمعه ، وسواء ذكرته بنقص في دينه أو بدنه أو أهله أو ولده ، حتى في مشيته وثوبه وسائر ما يتعلق به ، وسواء في ذلك النطق باللسان والكتابة والإشارة باليد . كذلك قال العلماء رحمهم الله ، مثل الإمام الغزالي والإمام النووي وغيرهما .

والغِيبة محرّمة شديدة التحريم ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٤٩/ ١٢] .

فشبه الله تعالى المغتاب الظالم بآكل لحم أخيه المسلم ميتاً : وناهيك بذلك ذمّاً وزجراً عن الغيبة ! وقد قال رسول الله ﷺ : « كلُّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الربا اثنان وسبعون باباً ، أدناها مثل أن ينكح الرجل أمّه . وإن أَرْبَى الربا استطالةُ الرجل

في عِرض أخيه المسلم » . وقالت عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ : حسبك من صفية كذا وكذا ! قال بعض الرواة : تعني أنها قصيرة .

فقال عليه الصلاة والسلام : « لقد قلتِ كلمة لو مُزِجَتْ بماء البحر لمزجته » أي لو خلطت بماء البحر لغيرته وأنتنته من فحشها وقبحها .

وقالت امرأة : ما أطولَ ذيل فلانة ! فقال عليه الصلاة والسلام : « الْفِظِي الْفِظِي » فأخرجت من فمها قطعة لحم ؛ فصارت بهذه الكلمة الواحدة القريبة آكلة من لحمها . فانظروا عباد الله ما أفحش الغيبة وأقبحها ! وما أهون الوقوع فيها على الناس إلا من رحم الله ، وقليل ما هم ! .

واعلم : أن من الواجب عليك إذا رأيت من أخيك المسلم عيباً أو نقصاً يمكنك إزالته : أن تذكر له ذلك في الخلوة على سبيل النصيحة ، فإن عجزت عن ذلك ، أو لم توفق له فذلك نقص فيك ، فلا تجمع إليه نقصاً آخر أقبح منه ، وهو أن تهتك ستره وتذكر عيوبه للناس في غَيْبته ؛ فتجمع على نفسك مصيبتين ، وتجر إليها بليتين .

* * *

ومن آفات اللسان : النميمة ، وهي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض ، يقصد بذلك الإفساد والفتنة بينهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم : ٦٨/ ١٠ـ١١] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنة قتَّات » وهو النمام . وقال عليه الصلاة والسلام : « شرار عباد الله المشَّاءون بالنميمة ، المفرِّقون بين الأحبة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن النميمة والحقد في النار ، لا يجتمعان في قلب مسلم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ليس مني ذو حقد ولا نميمة ولا كهانة ولا أنا منه » ثم تلا : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣/ ٥٨] .

وقال بعض السلف الصالح رحمهم الله : لا يكون النمام إلاَّ ولد زِنا .

ومن أقبح أنواع النميمة وأفحشها : ما كان منها إلى السلاطين والولاة ونحوهم ، وتسمّى السعاية ؛ يقصد بها صاحبها إغراء الوالي بإيذاء من سعى به إليه ، وأخذ ماله ، وجلب الشرِّ له . وإثمها عظيم ، مضاعف على إثم النميمة التي تكون بين عامة الناس .

ومن **آفات اللسان** : شتم المسلم وسبه في الوجه ؛ قال ﷺ : « سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر » وقال عليه الصلاة والسلام : « المتسابّان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان » :

وقال عليه الصلاة والسلام : « من الكبائر السَّبّتان بالسَّبَّة » .

ومن آفات اللسان : السخرية بالمسلم ، والاستهزاء به ، والضحك عليه استخفافاً واحتقاراً له ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

[الحجرات : ٤٩/ ١١] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » .

ومن آفات اللسان : اليمين الفاجرة ، وشهادةُ الزور ، واللعنُ ، وقولُك للمسلم يا كافر ، والقطع بالشهادة على أحد من أهل القبلة بكفر أو بدعة أو فسق من دون أن يتحقق ذلك يقيناً ، والدعاء على المسلمين بالشر ، والوعدُ الكاذب ، وكلامُ ذي الوجهين ، وسائرُ الكلام القبيح ، والقول الفاحش الذي يُستحيا منه ، والمِراءُ والجدالُ ، ومنازعة الناس في الكلام ، وكثرةُ الخصومة ، والخوضُ فيما لا يعني .

وقد وردت في ذم جميع ذلك الآياتُ والأخبار الكثيرة الشهيرة.

فعلى المؤمن الناظر لنفسه ، الشفيق على دينه ، أن يكون كما قال عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً أو ليصمت » .

وآفاتُ اللسان كثيرة ؛ وقد عدَّ الإمام حجة الإسلام منها عشرين آفة في كتاب آفات اللسان من « الإحياء » ، وأشبع الكلام في ذلك على ما يليق بجلالة قدره ، وسعة علمه . فرضي الله عنه وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

* * *

وأما البطن : فحفظه وضبطه من أهم المهمات ، وذلك بكفِّه عن الحرام والشبهات ، ثم عن فضول الشهوات ، وعن الشبع من الحلال .

فأما الحرام والشبهات فقد تقدم الكلام عليهما في باب الورع .

وأما التوسع في الشهوات والإكثارُ من الشبع فذلك مكروه ، وفيه آفات كثيرة ومضرَّات عديدة ؛ ومنها : قسوةُ القلب ، وكسلُ الأعضاء عن الطاعة ، وقلةُ نشاطها للعبادة ، وقلةُ الفهم للعلم والحكمة ، وقلةُ الرحمة والشفقة على ضعفة المسلمين وأهل الحاجة منهم .

ويخشى من ذلك ـ أعني : الاتساع في أكل الشهوات وكثرة الشبع ـ الوقوعُ في اقتحام الشبهات بل والمحرمات .

قال حجة الإسلام رحمه الله تعالى : الشبع من الحلال أصل كل شر ؛ فكيف من الحرام ؟! انتهى .

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « ما ملأ ابن آدم وعاءً شرّاً من بطنه ، حسْب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ؛ فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنَفَسه » .

وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « شرار أمتي الذين غُذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم ، وإنما همة أحدهم ألوانُ الطعام وألوان الثياب ، ويتشدقون في الكلام » . وقال عليه الصلاة والسلام : « أطول الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً في الآخرة » . وقال علي كرم الله وجهه : من كان همته ما يدخل بطنه كان قيمته ما يخرج منها .

فعلى المؤمن أن يكف نفسه عن الشهوات عفةً وقناعةً ، وزهادةً في الدنيا ، وإذا أكل فليقتصر على ما دون الشبع ، وليأكل ما وجد من الحلال من غير قصد لما كان ألذّ وأوفق للطبع ، وإن تحرَّى الأخشن الأدنى كان أقرب للتقوى ، وأقلَّ للكلفة ، وأبعدَ عن الشهوات ، وأشبه بِهَدْي السلف الصالح .

وقد كان أكثر طعام رسول الله ﷺ من الشعير ، وكان يُعجَن ويخبز له من غير أن يُنخَل فإن المناخل حادثة ، وكان يمكث هو وأهله عليه الصلاة والسلام الأشهر على التمر والماء ، لا توقدَ لهم نار لطعام ولا لغيره .

وعلى المؤمن إذا أكل أن يأكل بالأدب ، واتباع السنة في ذلك ؛ من التسمية عند الابتداء ، والحمد لله في الآخر ،

ويأكل بنية الاستعانة على طاعة الله ، والتقوّي على عبادته ، إلى غير ذلك من الآداب التي وردت بها الأخبار .

حفظ الفرج

وأما الفَرْج : فحفظه مُهِمٌّ ، وأمره مخطر ، وقد أثنى الله في كتابه على المؤمنين من عباده فقال في أثناء وصفهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢٣/ ٥ـ٧] .

وقد سئل عليه الصلاة والسلام عن أكثر ما يُدْخِل الناس النار فقال : « الأجوفان ؛ الفمُ والفرْجُ » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من وقاه الله شر ما بين لحييه ورجليه دخل الجنة » .

فعليك أيها المؤمن بحفظ فرجك ، واستعن على ذلك بحفظ قلبك عن التفكر فيما لا يحل لك ، وبحفظ بصرك عن النظر إلى ما لا يجوز لك النظر إليه ، وفي الحديث : « العين تزني ، والنفس تتمنّى ، والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه » .

* * *

وتَباعدْ كل البعد ، واحذر كل الحذر من الزنا ومن اللِّواط ، فإنهما من الفواحش المهلكة والكبائر الموبقة ، وقد حرمهما الله تحريماً شديداً ، ونهى عنهما نهياً أكيداً فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٧/ ٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ

﴿ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان : ٢٥/ ٦٨ـ٧٠] .

وقال رسول الله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » . وقال عليه الصلاة والسلام : « المقيم على الزنا كعابد وثن » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الزناة يأتون تشتعل فروجهم ناراً » . أي : يأتون يوم القيامة . وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم ؛ شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الزنا يجلب الفقر » .

وورد : « أنه يأتي على أهل الموقف ريح منتنة تؤذي كل بَرّ وفاجر غاية الأذى . فيقال لهم : هذه رائحة فروج الزناة » . وفي الحديث الصحيح : أنه ﷺ رأى الزناة والزواني في مثل التنور ، يأتيهم لهب النار من أسفله فيصيحون ويرتفعون ، وذلك من أنواع تعذيب الله إياهم في البرزخ ، وقال الله تعالى في ذكر إهلاك قوم لوط ، حين عملوا بالفاحشة وأصروا عليها : ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود : ١١/ ٨٢ـ٨٣] .

قيل في بعض التفاسير : وما هي ببعيد من الظالمين الذين يعملون بعملهم .

وبلغنا أن رجلين كانا يعملان هذه الفاحشة الخبيثة في بيت ، ومن فوق سقفه حجر من الحجارة التي أرسلت على قوم لوط ؛ فخرق الحجر السقف ووقع عليهما فأهلكهما ، فبلغ ذلك بعض السلف فقال صدق الله ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود : ١١/ ٨٣] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أخوف ما أخاف على أمتي : عمل قوم لوط » . وقال ﷺ : « لعن الله سبعة من خلقه من فوق سبع سموات » ورَدَّد اللعنة على واحد منهم ثلاثاً ، ولعن كل واحد لعنة تكفيه قال : « ملعون من عَمِل عَمَل قوم لوط ، ملعون من عمل عمل قوم لوط ، ملعون من عمل عمل قوم لوط ، ملعون من ذبح لغير الله ، ملعون من أتى شيئاً من البهائم ، ملعون من عقّ والديه ، ملعون من جمع بين المرأة وأُختها ، ملعون من غَيَّر حدودَ الأرض ، ملعون من ادعى إلى غير مواليه » . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أربعة يصبحون في غضب الله ، ويمسون في سخط الله » قلت : من هم يارسول الله ؟ قال « المتشبهون من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال ، والذي يأتي البهيمة ، والذي يأتي الرجال » .

وما ورد في تحريم الزنا واللواط ، وفي عقوبة مرتكبهما كثير شهير ، وحسبك بهما قبحاً وتحريماً ونكالاً ؛ ما رتّب الله عليهما في الدنيا قبل الآخرة من الحد والعقوبة .

وبيان ذلك : أن الزاني والزانية مهما قامت عليهما البينة بالزنا فإن كانا بكرين جُلدا مائة جلدةٍ ، وغُرِّبا عن أوطانهما عاماً . وإن كانا محصَنَين رُجما بالحجارة حتى يموتا . وإن كان أحدهما محصَناً والآخر بكراً ، كان لكل واحد حكمه .

وأما اللواط : فحدّه كحدِّ الزنا على القول الصحيح ، وفي قول : يقتل الفاعل والمفعول به ، وقد ورد به الحديث . وفي بعض الأقوال : أنهما يُحْرَقان بالنار . نسأل الله العافية من كل بلية .

وأما إتيان البهيمة : فهو من العظائم ، وفاعله ملعون كما في الحديث المتقدم . وفي الحديث الآخر : « من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوها » .

وأما الاستمناء باليد : فهو قبيح مذموم ، وفيه آفات وبليات كثيرة ، وقد يبتلى به بعض الناس ، فليتق ويحذر ! وفي بعض الأحاديث : « لعن الله من نكح يده » . وقال ﷺ : « أهلك الله أمة كانوا يعبثون بفروجهم » .

اللهم يا عليم يا خبير ، طهر قلوبنا من النفاق ، وحصن فروجنا من الفواحش ، والطف بنا والمسلمين .

* * *

وأما اليدان : فعليك ببسطهما في الصدقات ، وإعانة المسلمين في الحاجات وفي كتابة العلم والحكمة ، وفي اكتساب الحلال بنية الاستعانة على الدين ، واحفظهما عن أن تضرب بهما مسلماً أو تؤذيه بغير حق ، أو تأخذ بهما ما لا يجوز لك أخذه من أموال المسلمين ؛ كالأخذ بالظلم والخيانة ، والمعاملات الفاسدة .

وأما الرِّجلان : فإياك أن تمشي بهما إلى حرام أو معصية ، أو إعانة على باطل ، أو إلى باب سلطان ظالم ، أو إلى لهو ولعب ، وما لا خير فيه ولا نفع ، ولا تمشِ بهما إلا إلى الخيرات والصالحات ؛ مثل طلب العلم النافع ، والسعي إلى المساجد لإقامة الصلوات في الجماعات ، والعمل بوظائف العبادات . ومثل زيارة الإخوان في الله ، وقضاء حوائج المسلمين ، وإقامة حقوقهم من عيادة المرضى وتشييع الجنائز ، ونحو ذلك من أعمال البر وأفعال الخير .

وبالجملة : فجوارحك من أعظم نعم الله عليك ، وقد خلقها لك لتستعين وتسعى بها إلى طاعته ؛ فإن استعملتها فيما خلقت له من الطاعات والموافقات فقد شكرت وصرت من المحسنين ، وإن استعملتها في غير ما خلقت له من المعاصي والمخالفات فقد كفرت نعمة ربك ، وخنته في أمانته التي ائتمنك عليها ؛ فإن الجوارح من الأمانات التي ائتمنك عليها ربك .

وقد انتهى الكلام في الجوارح السبع على وجه مختصر جامع .

حفظ القلب

وقصدنا الآن : أن نذكر شيئاً يسيراً فيما يتعلق بالقلب الذي هو سيد الجوارح وملك الأعضاء ، وهو معدن العقائد والأخلاق والنيات المذموم منها والمحمود ، ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا لمن طهَّره وزكاه عن القبائح والرذائل ، وزيّنه وحلاه بالمحاسن والفضائل . قال الله تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس : ٩١/٧ـ١٠] .

ثم إن الأخلاق المذمومة والخصال الممقوتة في القلب كثيرة ، وكذلك الأخلاق المحمودة والخصال المحبوبة التي ينبغي للمؤمن أن يحلّي بها قلبه كثيرة أيضاً .

وقد استوفى الكلام في ذلك كله الإمام حجة الإسلام في النصف الثاني من « الإحياء » في ذكر المهلكات والمنجيات ، وكلامه في هذه الفنون هو المعوَّل عليه والمرجع إليه ؛ لكماله في العلم والعبادة ، والزهد والمعرفة ، ولأنه جمع في ذلك كلام من تقدمه من السلف الصالح ومشايخ الطريق .

وقد اقتفى آثاره ، واقتبس من أنواره من جاء بعده من أَهل هذا الشأن من علماء المسلمين وصالحيهم ، من أهل سائر الآفاق والبلدان . كما يعرف ذلك ويعلمه تحقيقاً من له رسوخ في هذه العلوم ، وغَوْص واطلاع على أسرار طريق الله .

فإذا علمت ذلك وعرفته فاعلم أن الصفات المذمومة في القلب أمراضٌ له ، وقد تؤديه إلى الهلاك في الدنيا والآخرة ، فلا غنى للمؤمن عن علاج قلبه ، ولا بد له من السعي في تحصيل الصحة والسلامة له ، فإنه لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم .

وإذا عرفت أن صفات القلب المذمومة والمحمودة كثيرة ، والنظر فيها يطول ، وقصدنا الاختصار والإيجاز ، وقد أحَلْنا في طلب الاستقصاء في ذلك على ما شرحه حجة الإسلام في « الإحياء » ، ولكنا ننبه بكلام قريب على شيء من المهلكات التي يجب تزكية القلب عنها ، وعلى شيء من المنجيات التي يجب تحلية القلب بها ، ونقتصر من جملة ذلك على ما يعم وجوده ، ويغلب وقوعه ، وتشتد الحاجة إليه .

آفات القلب

فأول ذلك : أنه يجب على الإنسان أن يزكي قلبه ، ويطهره من رذيلة الشك في الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن ذلك من أعظم أمراض القلوب المهلكة في الآخرة ، والتي تضر ضرراً عظيماً ؛ خصوصاً عند الموت ، وقد تؤدي والعياذ بالله إلى سوء الخاتمة ، وهذا الشك قد يبتلى به بعض الناس . فلا يجوز لمن وجد شيئاً من ذلك أن يضمره في نفسه ، ويطويه في قلبه ، فيلقى الله شاكّاً ، بل يجب عليه أن يجتهد في إزالة ذلك ، ويسعى في نفيه عنه بكل ما يمكنه .

وأنفعُ الأشياء في إزالته سؤال العلماء بالله تعالى وبدينه أهلِ

اليقين والخشية ، والزهد في الدنيا . فإن لم يصادف أحداً منهم فلينظر في كتبهم التي ألفوها في علوم التوحيد واليقين . ولست أعني بالشك ما يجده الإنسان من الخواطر والوساوس في أمور الإيمان بما يعلم بطلانه ، ويجد قلبه مصمّماً على خلافه ونفسه كارهة له ونافرة عنه ، فإن ذلك هو الوسوسة ، ويكفي الإنسان فيها أن يكرهها ويعرض عنها ويستعيذ بالله منها .

الكبر

ومن أعظم أمراض القلوب وصفاتها المهلكة : الكبر ، وهو من صفات الشياطين ؛ كما قال تعالى في إبليس اللعين : ﴿ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢/ ٣٤] .

والمتكبر بغيض إلى الله تعالى ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل : ١٦/ ٢٣] ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : ٣٠/ ١٨] .

والخيلاء والفخر من أوصاف المتكبرين ، والمتكبر متعرِّض لأن يطبع الله على قلبه ؛ كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٤٠/ ٣٥] .

والمتكبر مصروف عن آيات الله ؛ كما قال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾

[الأعراف : ٧/ ١٤٦] .

وقال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « يحشر المتكبرون يوم القيامة مثل الذر في صورة الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان » الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام : « من تعاظم في نفسه ، واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان » . وقال عليه الصلاة والسلام : « بينما رجل ممن كان قبلكم يجرُّ إزاره خيلاء خسف الله به في الأرض ؛ فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » ، فقال رجل : يارسول الله ، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ـ يعني : رده ـ وغمط الناس » ؛ يعني : احتقارهم وازدراءهم .

فمن تعاظم في نفسه وأُعجب بها ، واحتقر الناس ، واستصغرهم فهو المتكبر الممقوت .

والكبر إنما يكون في القلب ، ولكن تكون له علامات في الظاهر تدل عليه ، فمنها : حبُّ التقدم على الناس ، وإظهار الترفُّع عليهم ، وحبُّ التصدر في المجالس ، والتبخترُ والاختيال في المِشْية ، والاستنكافُ من أن يُرَدَّ عليه كلامه وإن كان باطلاً ، والامتناع من قبول الحق ، والاستخفاف بضعفة المسلمين ومساكينهم .

ومنها : تزكيةُ النفس والثناء عليها ، والفخرُ بالآباء من أهل الدين والفضل ، والتبجحُ بالنسب ، وذلك مذموم ومستقبح

جداً ، وقد يبتلى به بعض أولاد الأخيار ممن لا بصيرة له ولا معرفة بحقائق الدين .

ومن افتخر على الناس بنسبه وبآبائه ذهبت بركتهم عنه ؛ لأنهم ما كانوا يفتخِرون ولا يتكبرون على الناس ، ولو فعلوا ذلك لبطل فضلهم ؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام : « من بَطَّأَ به عمله لم يسرع به نسبه » . وقال ﷺ : « يا فاطمة بنت محمد ، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنكم من الله شيئاً ، اشتروا أنفسكم من النار . . » الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا فضل لأحمر على أسود ، ولا لعربي على عجمي إلا بتقوى الله ، أنتم من آدم وآدم من تراب » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لينتهين أقوام عن الفخر بآبائهم أو ليكونُنَّ أهونَ على الله تعالى من الجِعلانِ » . فالفضل والكرم بالتقوى لا بالنسب ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ٤٩/١٣] .

ولو أن الإنسان كان من أتقى الناس وأعلمهم وأعبدهم ، ثم تكَبَّر على الناس وافتخر عليهم لأحبط الله تقواه وأبطل عبادته ، فكيف بالجاهل المخلِّط الذي يتكبر على الناس بتقوى غيره وصلاح غيره من آبائه وأجداده ؟! فهل هذا إلا جهل عظيم وحمق فظيع ؟! وإن الخير كُلَّه في التواضع والخشوع والخضوع لله تعالى . قال عليه الصلاة والسلام : « مَن تواضع رفعه الله ، ومن تكبر وضعه الله » .

وإنَّ حُبَّ الخمول والاختفاء ، وكراهية الشهرة والظهور لَمِنْ أخلاق صالحي المؤمنين ، والرضا بالدُّون من المجلس ، ومن اللباس والطعام وسائر أمتعة الدنيا كذلك أيضاً . فاحرص أيها المؤمن على ذلك .

الرياء

ومن أعظم المهلكات ؛ الرياء : وقد سمَّاه رسول الله ﷺ بالشرك الأصغر ، والشرك الخفي .

ومعنى الرياء : طلب المنزلة والتعظيم عند الناس بعمل الآخرة ؛ كالذي يصلي ويصوم ، ويتصدق ويحج ، ويجاهد ويقرأ القرآن ، ليعظمه الناس لذلك ويكرموه أو يعطوه من أموالهم ، فذلك هوالمرائي ، وعمله مردود ، وسعيه خائب ، سواء فعل له الناس ما أمله منهم أو لم يفعلوه له . وقد قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١٨/ ١١٠] .

وقال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : ٤٢/ ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾

[الماعون : ١٠٧/ ٤-٧] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « يقول الله تعالى : أنا أغنى

الأغنياء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء ، ونصيبي لشريكي » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من صام يرائي فقد أشرك ، ومن صلى يرائي فقد أشرك ، ومن تصدق يرائي فقد أشرك » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من طلب الدنيا بعمل الآخرة طمس الله وجهه ، ومحق ذكره ، وأثبت اسمه في النار » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس ، وأساء الصلاة حيث يخلو ، فتلك استهانة استهان بها ربَّه تبارك وتعالى » .

فالرياء مهلك وخطره عظيم ، والاحتراز منه واجب مهم ؛ وأشدُّ أنواعه : أن يتجرّد باعث الرياء في العبادة ، بحيث يصير أولَ ما يقصده الناس ، ويصير حريصاً على اطّلاعهم ونظرهم إليه ، ولم يجد باعثاً على العمل غير ذلك أصلاً ، ودون ذلك : أن يقصد بعمله التقرّب إلى الله تعالى وطلب ثواب الآخرة ، مع مراءاة الناس وطلب المحمدة عندهم والمنزلة ، وهذا قبيح محبط للثواب ، والذي قبله أقبح وأحبط وأخطر ، ولا يخلو صاحبه من الإثم والعقاب .

فعلى المؤمن أن يجتهد في دفع الرياء عن نفسه ، وأن لا يكون له نية ولا قصد في جميع طاعاته وعباداته إلا التقرب إلى الله وطلب ثواب الآخرة ؛ فبذلك يخلص من الرياء ، ويسلم من شره وبليّته إن شاء الله تعالى .

ومهما خاف على نفسه الرياء فليُخْفِ أعماله ويفعلها في

السر ، حيث لا يطَّلع عليه الناس ، فذلك أحوط وأسلم ، وهو أفضل مطلقاً أعني العمل في السرِّ حتى لمن لم يَخَفْ على نفسه الرياء إلا للمخلص الكامل ، الذي يرجو إذا ظهر العمل أن يقتدي به الناس فيه . نعم ، ومن الأعمال ما لا يتمكن الإنسان من فعله إلا ظاهراً ؛ كتعلم العلم وتعليمه ، وكالصلاة في الجماعة والحج والجهاد ، ونحو ذلك . فمن خاف من الرياء حال فعله شيئاً من هذه الأعمال الظاهرة ، فليس ينبغي له أن يتركه ، بل عليه أن يفعله ، ويجتهد في دفع الرياء عن نفسه ، ويستعين بالله تعالى ، وهو نعم المولى ونعم المعين .

الحسد

ومن المهلكات : الحسدُ للمسلمين ، ومحبة الشر لأحد منهم ، وإضمارُ العداوة والغش والحقد لهم . وقلةُ الرحمة بهم والشفقة عليهم ، وسوءُ الظن بهم ، فكل ذلك من الصفات المهلكة .

أما الحسد : فحسبك به ذمّاً وقبحاً أن الله تعالى أمر رسول الله ﷺ بالاستعاذة من شر الحاسد ، كما أمره بالاستعاذة من شر الشيطان فقال تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق : ١١٣/٥] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إياكم والحسدَ ، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يجتمع في جوف عبدٍ الإيمانُ والحسد » وهذا شديد فتأمله . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تحاسدوا ولا

تباغضوا ولا تدابروا . . . » الحديث . ومعنى الحسد : أن يجد الإِنسان في صدره وقلبه ضيقاً وحرجاً ، وكراهيةً لنعمة أنعم الله بها على عبد من عباده في دينه أو دنياه ، حتى إنه ليحب زوالها عنه ، وربما تمنى ذلك وإن لم تصِر إليه . وذلك منتهى الخبث .

فمن وجد شيئاً في نفسه من هذا الحسد لأحد من المسلمين فعليه أن يكرهه ويخفيه في نفسه ، ولا يظهره بقول ولا فعل ؛ فلعله أن ينجو بذلك من شره .

وفي الحديث : « ثلاث لا يخلو منهن أحد : الحسد ، والظن ، والطيِّرة . أفلا أُنَبِّئُكم بالمخرج من ذلك : إذا حسدت فلا تَبْغِ ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيَّرت فامض » . أي : لا ترجع بسبب الطيرة عن الأمر الذي تريده .

وإنْ عَمِلَ الحاسد على ضد ما يتقاضاه الحسد من الثناء على المحسود والسعي في إكرامه ومعاونته ، كان له في ذلك فضل ، وهذا من أنفع الأدوية في إزالة الحسد أو تضعيفه .

ولا بأس بالغبطة وهي أن تتمنى لنفسك مثل النعمة التي تراها على أخيك من فضل الله . ثم إن كان ذلك من النعم الدينية كالعلم والعبادة كان محموداً ، وإن كان من النعم الدنيوية كالمال والجاه المباح كان ذلك جائزاً مباحاً .

وأما حبّ الشر لأحد من المسلمين ، وإضمار الغش والعداوة والحقد : فحسبك زاجراً عنه قوله عليه الصلاة

والسلام : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من غش المسلمين فليس منهم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن قدَرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل ، وذلك من سنتي » .

* * *

وأما قلة الرحمة بالمسلمين والشفقة عليهم : فذلك يدل على قساوة القلب ، وعلى الفظاظة والغلظة ، وكل ذلك مذموم وقبيح ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « ارحم من في الأرض يرحَمْك من في السماء ، ارحم تُرحم ، إنما يرحم الله من عباده الرحماء » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تُنزع الرحمة إلا من شقي » . ومن لم يجد في قلبه رحمة وشفقة على جميع المسلمين ، لاسيّما على أهل المصائب والبلايا ، وأهل الضعف والمسكنة ؛ فذلك لقساوة قلبه ، وضعف إيمانه ، وبعده عن ربه .

وأما سوء الظن بالمسلمين : فمذموم قبيح ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير : حسن الظن بالله ، وحسن الظن بعباد الله . وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر : سوء الظن بالله ، وسوء الظن بعباد الله » . ومعنى سوء الظن بالمسلمين : أن تظن بهم السوء

في أقوالهم وأفعالهم التي ظاهرها الخير ، وتظن بهم خلاف ما يُظهرون من ذلك هذا غايته .

وأيضاً : أن تنزِّل أفعالهم وأقوالهم التي تحتمل الخير والشر على جانب الشر ، مع إمكان تنزيلها على جانب الخير ، فذلك من سوء الظن أيضاً ، ولكنه دون الأول . وحسن الظن بالمسلمين خلاف ذلك كله ، فما كان من أفعالهم وأقوالهم ظاهره الخير حملته على الخير أو ظننت فيهم الخير . وما كان من الأقوال والأفعال يحتمل الخير وغيره ، نزَّلته على الخير ، فاعمل على ذلك جهدك ، واستعن بالله تعالى . والله ولي التوفيق .

حب الدنيا

ومن المهلكات العظيمة : حبّ الدنيا وإرادتها ، وشدة الحرص عليها والرغبة فيها ، وحبّ الجاه والمال ، وكثرة الحرص عليهما ، والشحُّ والبخل ، فجميع هذه المذكورات من الصفات المهلكات ، والأخلاق المذمومات .

ومن أحب الدنيا وأرادها ، واشتد حرصه عليها ، وعظُمت رغبته فيها : فقد تعرض بذلك لخطر عظيم ، ووعيد من الله شديد . قال الله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

[هود : ١١/ ١٥-١٦] .

وقال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾

[الإسراء : ١٧/١٨ـ١٩] .

وقال تعالى مزهِّداً لعباده في الدنيا ومذكِّراً لهم بذَهابها وفنائها : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف : ١٨/ ٤٥] .

وقال تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد : ٥٧/ ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٧٩/ ٣٧ـ٣٩] .

وقال نبي الله عليه الصلاة والسلام : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » . وقال ﷺ : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها إلا ذِكْرَ الله ، وعالماً أو متعلماً » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أصبح وهمه الدنيا شتَّت الله عليه أمره ، وفرَّق عليه ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له » الحديث .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الزَّهادة في الدنيا تريح القلب والبدن ، والرغبة في الدنيا تكثر الهمَّ والحزن ، والبطالة تقسِّي القلب » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « نجا أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، وسيهلك آخرها بالحرص وطول الأمل » .

وما ورد من الآيات والأخبار والآثار ، في ذم الدنيا وذم المحبين لها ، والراغبين فيها ، وذم الحرص عليها خارجٌ عن الحصر .

وتصانيف العلماء ـ رحمة الله عليهم ـ من السلف والخلف مشحونة بذلك .

ثم إن الدنيا عبارة عن كل ما علىٰ وجه الأرض من

المشتهيات واللذات ، وأصناف الأمتعة التي تشتهيها النفوس وتميل إليها ، وتحرص عليها . وقد جمع الله أصول ذلك كلّه في قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

[آل عمران : ٣/ ١٤] .

فمن أحبّ ذلك ورغب فيه ، واشتد حرصه عليه ، وليس له غرض في ذلك إلا مجرد التمتع والتلذذ والتنعم ، صار بذلك من جملة المحبين للدنيا والراغبين فيها ، فإن أفرط به ذلك وغلب عليه ، حتى لم يبال من أين أخذ الدنيا من حلال أم من حرام ، وحتى اشتغل بسبب حرصه على الدنيا وسعيه لها عما فرض الله تعالى عليه من طاعته ، ووقع بسببه فيما حرم الله عليه من معصيته ؛ فقد تحقق في حقه الوعيد الوارد في المحبين للدنيا ، والمريدين لها ، والراغبين فيها من غير شك . وصار أمره في نهاية الخطر إلا أن يتداركه الله بتوبة قبل مماته ، وقبل خروجه من هذه الدار .

* * *

حب الجاه والمال

وأما حبّ الجاه والمال ، وكثرة الحرص عليهما : فمذموم جداً ؛ قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص : ٢٨/ ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٦٣/ ٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾

[التغابن : ٦٤/ ١٥] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حب المال والشرف في دين الرجل المسلم » . ومعنى ذلك : أن حب المال والجاه يفسدان دين صاحبهما أكثر مما يفسد الذئبان الجائعان إذا أرسلا في الغنم .

فمن اشتد حرصه على الجاه والمال ، وطلب المنزلة ، والتعظيم في قلوب الناس فقد تعرض بذلك لآفات كثيرة ؛ كالكبر والرياء ، والتزين والتصنُّع ، وترك التواضع للحق وأهله ، وكراهية الخمول ، إلى غير ذلك من البليّات .

وفي الحديث : « إن الله يحب من عباده الأتقياء الأخفياء الأبرياء » وفيه « رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه » .

ومن اشتدَّ حرصه على المال فقد تعرض بذلك لأخطار عظيمة ، وبليّات جسيمة ، إن لم يحفظه الله ويتداركه برحمته .

والمذموم من حب الجاه والمال ومن الحرص عليهما :

شدة ذلك وإفراطُه ، حتى يطلبهما الإنسان ويتسبّب في حصولهما بكل وجه يمكنه من جائز وغير جائز ، ويصير بهما في شغل شاغل عن التفرغ لعبادة الله وذكره ؛ كما يقع ذلك كثيراً لبعض المفتونين الغافلين عن الله تعالى .

فأما مَنْ طلب ذلك بنية صالحة للاستعانة به على الآخرة ، وصيانة الدين والنفس عن تعدي الظالمين ، وعن الحاجة إلى الناس ، ولم يشتغل بسبب ذلك عن عبادة الله تعالى وذكره ، ولم تفارقه التقوى والخوف من الله ؛ فذلك مما لا بأس به ولا حرج فيه إن شاء الله تعالى . وعلى كل حال ، فقلة الحرص على الجاه والمال وتركُ الرغبة فيهما أسلم وأحوط ، وأقرب إلى التقوى ، وأشبه بهدي السلف الصالح .

* * *

الشح والبخل

وأما الشحُّ والبخل : فقبيحان مهلكان ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٥٩/ ٩]

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٨٠] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اتقوا الشح ؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « البخيل

بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار » . الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام : « السخاء شجرة في الجنة وأغصانها في الدنيا ، فمن تعلق بغصن منها قاده إلى الجنة ، فلا يلج الجنة إلا سخِيٌّ . والبُخْل شجرة في النار وأغصانها في الدنيا ، فمن تعلق بغصن منها قاده إلى النار ، فلا يلج النار إلا بخيل » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ألا وإن كل جواد في الجنة ، حتمٌ على الله وأنا به كفيل . ألا وإن كل بخيل في النار ، حتمٌ على الله وأنا به كفيل » . وقال عليه الصلاة والسلام : « الجاهل السخيُّ أحبّ إلى الله من العالم البخيل » .

فقد علمت شدة ذم الشح والبخل وقبحهما .

والشح : هو البخل المفرط الشديد ، وهو كما قال بعض العلماء رحمهم الله : حرص الإنسان على أخذ ما في أيدي الناس .

وأما البخل : فهو بخل الإنسان بما في يده . وغايته : أن يبخل الإنسان بإخراج الحقوق الواجبة عليه في ماله كالزكاة وما في معناها . ومن كان كذلك فهو البخيل حقاً ، المتعرِّض للذم والوعيد الواردين في البخل .

وأما من بخل بالإنفاق في وجوه الخيرات ، وطرائق القرُبات مع التمكن من ذلك فحاله أهون من حال الذي قبله ،

ويسمى بخيلاً أيضاً ، لأنه قد آثر المال ورغب في إمساكه ، وبخل ببذله فيما هو أرفع له وأنفع عند ربه من الدرجات العلَى ، والخيرات الباقية في الدار الآخرة .

وما دام الإنسان يرجح إمساك المال على بذله في محابِّ الله ومراضيه فهو غير خال عن شيء من البخل . ولا يكون الإنسان جواداً سخياً حتى يكون بذل المال في محاب الله أرجحَ عنده وأحبَّ إليه من إمساكه . فاعلم ذلك واعمل عليه ، والله يتولى هداك .

* * *

الغرور

ومن المهلكات : **الغرور** ، ومعناه : أن يُلبِّس الإنسان على نفسه ، ويريها الأمور على خلاف ما هي عليه ، وذلك لضعف بصيرته في الدين ، وقلة معرفته بحقائقه ، ولجهله بآفات الأعمال ومكائد الشيطان ، ولغلبة هوى النفس عليه ، وركونه إلى أمانيها وخُدَعها ؛ وقد قال الله تعالى محذراً لعباده من الغرور : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر : ٣٥/ ٥] .

وقال تعالى في وصف بعض المغترين : ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٨/ ١٠٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ

ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد : ٥٧/ ١٤] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانيّ » .

وأنواع الغرور كثيرة ، وأصناف المغترين من المطيعين ومن العاصين كثيرة . ومن أمثال الغرور في أهل الطاعات : أن يطلب الإنسان العلم ويسوّف العمل ، ثم يحتج لنفسه بما ورد في فضل العلم وفضل طلبه ، ويغفل عما ورد من الذم والوعيد الشديد في حق من لا يعمل بعلمه .

ومنها : أن يتعلَّم ويعلِّم للرياسة والطمع في الناس ، ويظن بنفسه أنه يتعلم ويعلِّم لله ، ولا يناقش نفسه ولا يختبرها بأحوال أهل الإخلاص .

ومنها : أن يكثر الصلاة والصيام وأفعال الخير ، ثم يعجب بنفسه ، وينظر إلى حوله وقوته ، وينسى منّة الله عليه في توفيقه وهدايته ؛ والعُجب محبط للأعمال ، أو يرائي بعبادته ويطلب بها المنزلة عند الناس ، ويظن بنفسه الإخلاص وإرادة التقرب إلى الله .

وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه : حبذا نومُ الأكياس وفِطْرهم ! كيف يغبنون سهر الحمقى وصومهم ؛ ولَذرّةٌ من صاحب يقين وتقوى أفضل من أمثال الجبال من أعمال المغترين .

ومن أمثال غرور العصاة : أن يعصي الإِنسان ثم يتوب ، ويستغفر بلسانه من غير معرفة بشرائط التوبة وتحقيقها ، ثم يظن بنفسه أنه قد تاب وقد غفر الله له .

ومنها : أن يكثر المعاصي ويصّر عليها ، ويقصِّر في الواجبات ، ثم يحتج لنفسه بالقَدَر ، وأنه لا اختيار له ولا قدرة على ترك ما قد كُتب عليه ؛ وهذا غرور عظيم ، والقائل به مبتدع وليس من أهل السنة .

ومنها : أماني المغفرة مع التقصير عن امتثال الأوامر واجتناب المحارم . وقول بعض العصاة والمقصِّرين : إن الله غنيٌّ عنا وعن أعمالنا ، وليس تضره الذنوب ولا تنفعه الطاعات . وهذا الكلام حق أريد به باطل ، وقد ألقاه الشيطان في قلب هذا المتمني ، وأجراه على لسانه ليقطعه به عن المغفرة ، وعن السعي لها الذي أمره الله به .

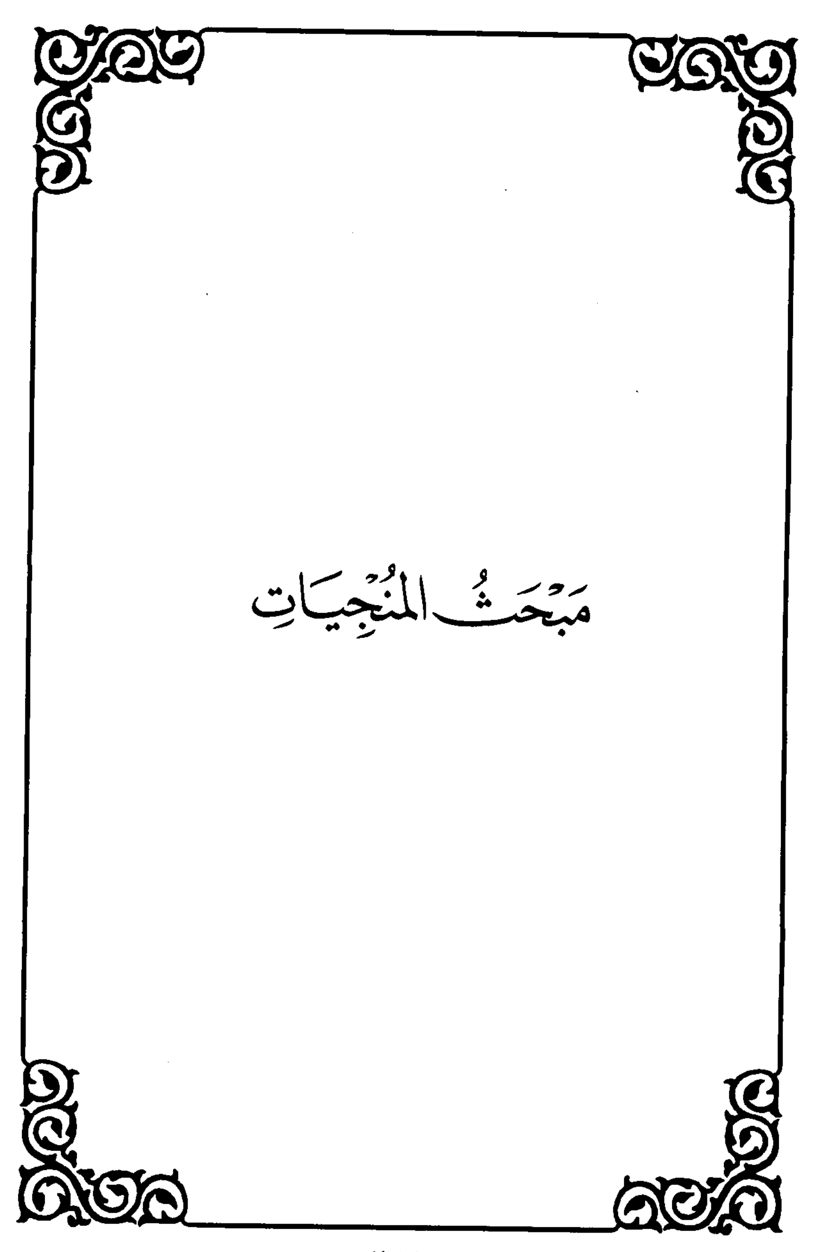
ومنها : اتّكال بعض العصاة والمخلِّطين على صلاح آبائهم وأجدادهم من أهل العلم والصلاح ، مع ترك الاقتداء بهم في أخلاقهم وأفعالهم وأقوالهم الصالحة . وذلك من الغرور المذموم ، والحمق الفاحش .

ومنها : اغترار بعض العصاة برؤية الصالحين وخدمتهم ، وحسن الظن بهم مع المجانبة والمباعدة لما هم عليه من الخير والصلاح ، والملازمة لطاعة الله .

وأنواعُ الغرور كثيرة كما تقدم ، ولا ينجِّي منها إلا الرجوعُ

إلى الله ، والاتكالُ على محض فضله وكرمه ، مع الحزم والاحتياط والتشمير في طاعته ، والجد والاجتهاد في عبادته ، ومع اجتناب معصيته ، والشكرُ له على ذلك مع الاعتراف بغاية التقصير عن القيام بأقل شيء من واجب حقه ، ومع ملازمة الانكسار ، ونهاية الافتقار إليه ، مع دوام التضرع والدعاء ، ولزوم الاستغفار آناء الليل والنهار . وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

* * *



مَبْحَثُ المُنْجِيَاتِ



وأما المنجيات التي يجب تحلية القلب واتصافه بها فكثيرة ، فنذكر شيئاً من أمهاتها ومهماتها ، وننبه عليها بكلام مجمل وجيز ، إن شاء الله تعالى .

التوبة

فمن أعظم المنجيات التوبة إلى الله تعالى : من جميع الذنوب . وقد أمر الله عز وجل عباده بالتوبة ، ورغَّبهم فيها ، ووعدهم بقبولها فقال تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٢٤/٣١] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم : ٦٦/٨] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢/٢٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥/٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى : ٤٢/٢٥] .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » . وقال ﷺ : « إن الله يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار حتى تطلع الشمس من مغربها » .

وقال ﷺ : « يا أيها الناس ، توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا ، وصِلُوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ » . أي : تبلغ روحه إلى الحلقوم حين الموت . وقال عليه الصلاة والسلام : « من تاب تاب الله عليه » .

* * *

ثم اعلم ـ رحمك الله ـ أن التوبة ليست هي قول العبد بلسانه : أستغفر الله وأتوب إليه ؛ من غير ندم بالقلب ، ومن غير إقلاع عن الذنب .

وقد ذكر العلماء ـ رحمهم الله ـ للتوبة شرائط لا بد منها ، ولا تتم التوبة إلا بها ؛ وهي ثلاثة :

الأول : الندم بالقلب على الذنوب السالفة .

الثاني : الإقلاع عن الذنب ، ومعناه : أن لا يتوب من ذنب وهو مقيم عليه وملازم له .

الثالث : العزم على أن لا يعود إلى الذنوب ما عاش .

وهذه الثلاث لا بد منها في التوبة من الذنوب التي تكون بين العبد وبين ربه . ويزيد عليها شرط رابع في الذنوب التي تكون بين العبد وبين غيره من العباد .

وبيان ذلك : أنه إن ظلم أحداً من الآدميين في نفس أو عِرض أو مال ، وجب عليه أن يرد حقه إليه بتمكينه من القصاص في المظالم النفسية ، ورد المظالم المالية ، وطلب الإحلال في المظالم العِرْضيَّة . وعليه بذل جهده في ذلك وإمكانه . وكذلك يجب عليه إذا تاب من ترك شيء من الفرائض اللازمة كالصلاة والزكاة : أن يتدارك ما فاته من ذلك بالقضاء حسب الاستطاعة والإمكان .

فإذا تاب العبد من ذنوبه على الوجه الذي وصفناه فينبغي له أن يكون بين الخوف والرجاء ، يرجو من ربه قبول توبته بفضله وكرمه ، ويخاف من عدم قبول التوبة مخافة أنه لم يأت بالتوبة على وجهها الذي أمره الله به ، فيكون غير تائب عند الله .

وينبغي لكل مؤمن ويجب عليه وجوباً متأكداً : أن يحترز من جميع الذنوب احترازاً كلياً لأن فيها سخط الله ومقته ، وهي السبب في جميع البليات والهلكات التي تحل بالعباد في الدنيا والآخرة .

ثم إن وقع في شيء من الذنوب وجب عليه أن يبادر بالتوبة

إلى الله من ذنبه من غير إصرار ، ولا إقامة على الذنب ، ولا رضاً به .

وينبغي لكل مؤمن أن لا يزال تائباً إلى الله ، ومجدداً للتوبة في كل حال وحين ؛ وذلك لأن الذنوب كثيرة ، ومنها الصغائر والكبائر ، والذنوب الباطنة ، والذنوب الظاهرة ، وذنوب يعلمها العبد ، وذنوب لا يعلمها ؛ وقد يؤاخذ بها من حيث إنه قصر في طلب العلم بكونها ذنوباً ، أو من حيث إن لها مقدمات وسوابق داخلة في العلم والاختيار .

* * *

ومن المتأكد المهم : الإكثار من الاستغفار ؛ فقد أمر الله به ، ورغّب فيه فقال تعالى : ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة : ٢/١٩٩] .

وقال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد : ٤٧/١٩] .

وقال تعالى في وصف عباده المحسنين : ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات : ٥١/١٨] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل همّ فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » . وقال عليه الصلاة والسلام : « طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً » .

وحسبك في فضل الاستغفار ومنافعه وفوائده قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٨/ ٣٣] .

وقوله تعالى مخبراً عن نبيه نوح عليه السلام : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾

[نوح : ٧١/ ١٠ـ١٢] .

فالتوبة والاستغفار من كنوز الخيرات ، ومن أعظم أبواب القربات والبركات ، ومن أوصل الوسائل إلى جميع خيرات الدنيا والآخرة .

فعليكم ـ رحمكم الله ـ بلزوم التوبة والاستغفار آناء الليل والنهار . ثم إن الشيطان لعنه الله قد يخدع بعض الأغبياء من المسلمين فيقول له : كيف تتوب وأنت لا تعرف من نفسك الثبات على التوبة ؟! وكم تتوب ثم تعود إلى الذنب ؟! ويُلقي عليه وساوس من هذا الجنس . فليحذره المسلم ولا يغتر ، ولا يأخذ بتزويره وتلبيسه ؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام : « ما أصرّ من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة » . وعلى العبد أن يتوب ، ويسأل من ربه الإعانة والتثبيت . ثم إن غلبته نفسه على العود إلى الذنب فَلْيغْلبها على العود إلى التوبة . والله الموفق والمعين .

الرجاء والخوف

ومن المنجيات الرجاء في الله والخوف من الله : والرجاء والخوف من المقامات الشريفة ؛ وقد وصف الله بهما أنبياءَه

والمرسلين وأتباعهم بإحسان من صالحي المؤمنين قال الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾

[الإسراء : ١٧/ ٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٢١/ ٩٠]

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[البقرة : ٢/ ٢١٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢١/ ٤٨ـ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢٣/ ٦٠] .

وقال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني . . . » الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام : « يقول الله تعالى : يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي ، ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، ابن آدم ، إنك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشركُ بي شيئاً للقيتك بقُرابها مغفرة » . وقال عليه الصلاة

والسلام : « قال الله تعالى : وعزتي ، لا أجمع لعبدي خوفين ولا أمنين ، فإن هو خافني في الدنيا أمَّنتُه يوم القيامة ، وإن هو أمِنَني في الدنيا أخفْتُه يوم القيامة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « رأس الحكمة مخافة الله » . ودخل ﷺ على شاب يعوده وهو في الموت فقال له : « كيف تجدك ؟ فقال أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي . فقال عليه الصلاة والسلام : ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمَّنه ممّا يخاف » .

واعلم : أن الخوف زاجر ، يزجر الإنسان عن المعاصي والمخالفات . والرجاء قائد ، يقود العبد إلى الطاعات والموافقات ؛ فمن لم يزجره خوفه عن معصية الله عزَّ وجلَّ ، ولم يَقُدْهُ رجاؤه إلى طاعة الله تعالى ، كان خوفه ورجاؤه حديث نفس لا يُعتدّ بهما ، ولا يعول عليهما ، لخلوهما عن ثمرتهما المقصودة ، وفائدتهما المطلوبة .

ثم الأفضل للمؤمن المستقيم على طاعة الله أن يكون بين الخوف والرجاء ، حتى يكونا كجناحي الطائر ، وكِفَّتي الميزان ، قال النبي ﷺ : « لو وُزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعْتَدَلا » .

وأما المؤمن المخَلِّطُ الذي يخشى على نفسه من الوقوع في ترك الطاعات ، وركوب المنهيات فالأصلح له والأولى به ، غلبة الخوف عليه ، فإن الخوف يقبض النفس ويزجرها عن

طغيانها وتعدِّيها ، ومن كان بهذا الوصف من غلبة النفس واستيلاء الشهوة ، وكان الرجاء مع ذلك غالباً عليه ، ربما كان سبباً في هلاكه ، لأنه كلَّما ذكَّر نفسه الأمَّارة بسعة رحمة الله ، وكثرة تجاوزه عن الذنوب ، ازداد على الله تجرُّؤًا ، ومن طاعته تباعداً ، وفي معصيته وقوعاً ، فيهلك من حيث لا يشعر .

وقد وقع في ذلك طوائف من عامة المسلمين المغترين بالله ، والرجاءُ على هذا الوصف هو الرجاء الكاذب ، وهو الاغترار بالله ، وليس من الرجاء المحمود في شيء ، لأن الرجاء المحمود هو الذي يقود العبد إلى العمل بطاعة الله ، ويحمله على سلوك سبيل مرضاته . فليحذر المؤمن من الرجاء الذي يكون بهذه المثابة ، فإنه غرور من الشيطان ، وشرّ ساقه إليه في معرِض الخير . وأما إذا نزل الموت بالإنسان ، فالأليق به غلبة الرجاء ، وحسن الظن بالله كيفما كان حاله ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » .

وليحذر المؤمن كل الحذر من الأمن من مكر الله ، ومن القنوط من رحمته ، قال تعالى : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٧/ ٩٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر : ١٥/ ٥٦] .

والأمن من مكر الله : عبارة عن تمحّض الرجاء وذهاب

الخوف من الله بالكلية ، حتى لا يجوِّز أن الله يعذبه ولا يعاقبه .

وأما القنوط : فهو عبارة عن تمحّض الخوف وذهاب الرجاء بالكلية ، حتى لا يجوِّز أن الله يرحمه ويتجاوز عنه ، والأمنُ من مكر الله . والقنوطُ من رحمة الله : من كبائر الذنوب ، فاحذر منهما أيها المؤمن ، وكن بين الخوف والرجاء ، ولا تغتر بربك ، ولا تجترىء عليه ، فإن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم .

الصبر

ومن المنجيات العظيمة : الصبر على بلاء الله ، والشكر لنعماء الله ، والزهد في الدنيا المشغلة عن الله .

أما الصبر : ففضائله عظيمة ، وحاجة المؤمن إليه في الأحوال كلها داعية وعامة ، وما ورد في الصبر عن الله تعالى ، وعن رسول الله ﷺ من الأمر والترغيب : كثير منتشر ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢/ ١٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢/ ١٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٤٦] .

وقال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل : ٢٧/ ١٢٧] .

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٥٢/ ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة : ٣٢/ ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ٣٩/ ١٠] .

وقال رسول الله ﷺ : « من يصبر يصبِّره الله ، وما أعطي أحد عطاءً خيراً ولا أوسع من الصبر » . وقال عليه الصلاة والسلام : « الصبر مِعْوَلُ المؤمن ، والصبر أميرُ جنود المؤمن » . وقال عليه الصلاة والسلام : « في الصبر على ما تكره خيرٌ كثير » . وفي الخبر أو الأثر : أن الإِيمان شطران : أحدهما الصبر ، والثاني الشكر ، فيحتاج المؤمن حاجة شديدة إلى الصبر عند ورود البلايا من الشدائد والمصائب ، والفاقات والأذيات ، بأن لا يجزع إذا نزل به شيءٌ منها ، بل ويطمئن ويتوقَّر ، ولا يضيق ولا يتضجر ، ولا يشكو إلى الخلق ، بل يرجع إلى الله بخشوعه وخضوعه ، ودعائه وتضرعه ، ويحسن الظن بربه ، ويعلم يقيناً أن الله تعالى لم ينزل به ذلك البلاء إلا وله فيه خير كثير من رفع الدرجات ، وزيادة الحسنات ، وتكفير السيئات ، كما وردت بذلك الأخبار الشهيرة الكثيرة .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما يصيب المؤمنَ من نَصَب ، ولا وَصَب ، ولا هَمّ حتى الشوكة يُشاكُها إلا كفَّر الله به من سيئاته » .

ويحتاج المؤمن إلى الصبر حاجةً شديدةً عند فعل الطاعات ، بأن لا يكسل عنها ، وبأن يؤديها كما أمره الله من كمال الحضور مع الله فيها ، والإخلاص لله ، وأن لا يكون بها مرائياً ، ولا متصنِّعاً للخلق . ومن شأن النفس التثاقل عن الطاعة ، والتكاسل عنها ، فيحتاج العبد إلى إكراهها على ذلك بحسن الصبر .

ويحتاج المؤمن إلى الصبر حاجة شديدة في كف نفسه عن المعاصي والمحرّمات ، لأن النفس قد تدعو إليها ، وتتحدث بالوقوع فيها ، فيمنعها بحسن صبره عن فعل المعاصي ظاهراً ، وعن التحدث بها والميل إليها باطناً .

ويحتاج المؤمن حاجةً شديدةً إلى الصبر عن الشهوات المباحات ، التي تكون رغبة النفس فيها مقصورة على التلذذ والتمتع بالدنيا المجرد ، فإن الانهماك في ذلك ، والاسترسال معه يجرّ إلى الشبهات والمحرمات ، ويكثر الرغبة في الدنيا ويهيج الحرص عليها ، ويحمل على الإيثار للدنيا والأنس بها ، وعلى نسيان الآخرة والغفلة عنها ، فقد عرفت ـ رحمك الله ـ بما ذكرناه حاجة المؤمن إلى الصبر في عموم أحواله ودوام أوقاته ، فعليك به تَفُزْ بكل خير ، وتظفرْ بكل سعادة .

الشكر

وأما الشكر : فهو من المقامات الشريفة ، والمنازل الرفيعة ، قال الله تعالى : ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل : ١٦/ ١١٤] .

وقال تعالى : ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾

[سبأ : ٣٤/ ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ٣٤/ ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٤٥] .

وقال رسول الله ﷺ : « من أُعطي فشكر ، وابتُلي فصبر ، وظُلِمَ فغفر ، وظَلَمَ فاستغفر ، ثم سكت عليه الصلاة والسلام ، فقالوا : ما له يارسول الله ؟ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً » الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام : « أول من يدعى إلى الجنة الحمَّادون ، الذين يحمَدون الله على كل حال » . وما ورد في فضل الشكر وفي الأمر به كثير .

وأصل الشكر : معرفة العبد بأن جميع ما به من النعم ، وما عليه منها في ظاهره وباطنه من الله تعالى ، تفضلاً منه سبحانه وامتناناً .

ومن الشكر : الفرح بوجود النعم من حيث إنها وسيلة إلى العمل بطاعة الله ، ونيل القرب منه .

ومن الشكر : الإكثار من الحمد لله ، والثناء عليه تعالى باللسان ، قال ﷺ : « لو أعطي رجل من أمتي الدنيا بأسرها ،

ثم قال الحمد لله ، كان قوله الحمد لله ، أفضل من ذلك كله » الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام : « الحمد لله تملأ الميزان » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله ليرضَى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها » .

ومن الشكر : العمل بطاعة الله ، وأن يستعين بنعم الله على طاعته ، وأن يضع نعم الله في مواضعها التي يحبها الله ، وذلك هو غاية الشكر ونهايته ، وأن لا يتكبر بالنعم ، ولا يفتخر بها على عباد الله ، ولا يبغى ولايطغَى ، ولا يتعدّى على العباد ، ومن فعل شيئاً من ذلك فقد كفر النعمة ولم يشكرها ، والكفران سبب لسلب النعم وتبدلها بالنقم ؛ قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٨/٥٣] أي : بتركهم الشكر عليها .

فالتارك للشكر متعرِّض للسلب والهلاك ، والشاكر متعرض للخير والمزيد ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ١٤/٧] .

ومن الشكر : تعظيم النعمة وإن كانت صغيرة ؛ نظراً إلى عظمة المنعِم بها تبارك وتعالى . ثم إن لله على عبده نعماً كثيرة لا تعدُّ ولا تحصى ، والعبد عاجز عن إحصائها فضلاً عن القيام بشكرها ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ١٦/١٨] .

وينبغي للإنسان أن لا ينظر إلى من فُضِّل عليه في النعم على سبيل الغِبطةِ والاستكثار ؛ فإنه ربما يزدري نعمة الله تعالى عليه ويستحقرها ، فلا يشتغلُ بشكرها ، فيكون ذلك سبباً لسلبها عنه وتحويلها منه ، فلا يُعطىٰ الكثير الذي غبَط عليه أخاه ، ويُسلَب مع ذلك القليل الذي قد أعطاه مولاه لتركه الشكر ، وعدم حفظه للأدب مع ربه . وفي الحديث : « انظروا إلى من هو دونكم ، فهو أجدر أن لا تزدَرُوا نعمة الله عليكم » . وقد فضل الله بعض العباد على بعض لأسرار له في ذلك ، وحِكَم لا يطلع عليها سواه ، ولمنافع ومصالح لهم لا يحيط بعلمها غيره . فلْيرضَ العبد بقمسة ربه ، وليشكره على ما أعطاه من نعمه ، وليسأله المزيد من فضله ؛ فإن خزائن السموات والأرض في قبضته ، وجميع الخير بيده ، يفعل ما يشاء ، وهو على كل شيء قديرٌ .

الزهد

وأما الزهد في الدنيا : فإنه من أفضل المنجيات ، وأجل القربات .

وقد قال الله تعالى مزهِّداً لعباده في الدنيا : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف : ١٨/ ٧ـ٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾

[القصص : ٢٨/ ٦٠ـ٦١] .

وقال الله تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى : ٨٧/١٦-١٧] .

وقال رسول الله ﷺ : « اِزهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس » . وقال عليه الصلاة والسلام : « كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل ، وعدَّ نفسك من أهل القبور » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أحب آخرته أضر بدنياه ، ومن أحب دنياه أضر بآخرته ؛ فآثِروا ما يبقى على ما يفنى » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه أمره ، وحفظ عليه ضيعته ، وأتته الدنيا وهي راغمة . . » الحديث .

وحقيقة **الزهد** : خروج حب الدنيا ، والرغبة فيها من القلب ، وهوانُ الدنيا على العبد ؛ حتى يكون إدبار الدنيا وقلة الشيء منها أحب إليه وآثر عنده من إقبال الدنيا وكثرتها . هذا من حيث الباطن ، وأما من حيث الظاهر فيكون الزاهد منزوياً عن الدنيا ، ومتجافياً عنها اختياراً مع القدرة عليها ، ويكون مقتصراً من سائر أمتعتها مأكلاً وملبساً ومسكناً ، وغير ذلك على ما لابد منه ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب » .

فأما من أحب الدنيا بقلبه ، ورغب فيها ، وسعى لجمعها

يقصد بذلك التنعُّم والتمتع بشهواتها ؛ فهو من الراغبين في الدنيا ، وليس من الزهد في شيء . فإنْ مال إلى الدنيا ورغب فيها ، لا للتنعم ولكن لينفقها في وجوه الخيرات والقربات ؛ فهو على خير إن وافق عمله نيته ، ولا يخلو في ذلك من خطر .

وأما من طلب الدنيا ورغب فيها فلم يتيسّر له ، ولم يحصل على مطلوبه منها فبقي فقيراً لا شيء له ؛ فهذا هو الفقير وليس بالزاهد ، وله في فقره فضل وثواب عظيم إن صبر عليه ورضي به .

وأما من تبسط في الدنيا وتوسع في شهواتها ، وادّعى مع ذلك أنه غير راغب فيها ، ولا محب لها بقلبه ؛ فهو مدع مغرور ، لا تقوم له حجة بدعواه ، وليس له في حالته تلك قدوة يقتدي به من الأئمة المهتدين والعلماء الصالحين ، لا من السلف ولا من الخلف . فاعلم ذلك والله يتولّى هداك .

التوكل على الله

ومن المنجيات الشريفة : التوكل على الله ، والحب لله ، والرضا عن الله ، وحسن النية مع الله ، والإخلاص في الظاهر والباطن لله .

أما التوكل على الله : فهو من أشرف مقامات الموقنين ، وأعز ثمرات اليقين .

قال الله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [النمل : ٢٧/ ٧٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ٣/١٥٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

[المائدة : ٥/ ١١] .

وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

[المائدة : ٥/ ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾

[النساء : ٤/ ٨١] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لو توكلتم على الله حق توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِمَاصاً وتروح بِطاناً » . وفي المأثور : « حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين قذف به في النار ، وقالها محمد ﷺ والمؤمنون حين قيل لهم : ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾

[آل عمران : ٣/ ١٧٣] .

وقال بعض السلف الصالح رحمه الله : من رضي بالله وكيلاً وجد إلى كل خير سبيلاً .

وأصل التوكل : يقين القلب بأن الأمور كلها بيد الله وفي قبضته ، وأنه لا ضار ولا نافع ولا معطي ولا مانع غير الله ، ثم طمأنينة القلب وسكونه إلى وعد الله وضمانه ؛ حتى لا يضطرب ولا يتزلزل عند ورود الشدائد والفاقات ، وحتى لا يفزع ولا يرجع في المهمات والملمات إلا إلى الله تعالى ،

وإن رجع في شيء من ذلك إلى الخلق كان ذلك في الظاهر دون الباطن ، ويكون على موافقة الأمر الإلـٰهي المشروع .

* * *

وليس من شرط المتوكِّل أن يكون متجرداً عن أسباب الدنيا ؛ بل قد يكون ملابساً للأسباب مع التوكل ، ولكنه يكون معتمداً على الله لا على الأسباب . وعلامة صدقه في ذلك : أن لا يسكن إليها ، ولا يطمئن بها في حالة وجودها ، ولا يتزلزل ولا يضطرب عند فقدها وتشوشها .

وقد يكون العبد متجرداً عن أسباب الدنيا ، وهو غير متوكل ، مهما كان متعلقاً بالأسباب ، وملتفتاً إلى الخلق وطامعاً فيهم .

ثم إن الأسباب على قسمين : دينية ودنيوية .

فالأسباب الدينية : مثل العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة التي لا بدّ منها ؛ فلا بد لكل مسلم من إقامة تلك الأسباب والعمل بها ؛ مع الاعتماد على الله دونها .

وأما الأسباب الدنيوية : فكالحِرَف والصناعات ، وسائر ما يتسبَّب به الناس لتحصيل معايشهم . وهذه الأسباب لا يجوز للإنسان ترك ما يحتاج إليه منها ، ولا يستغني عنه ؛ إلا إن كان عاجزاً لا يستطيع السعي والحركة ، أو كان ممّن أقيم في ذلك من عباد الله أهل المعرفة واليقين .

وعلى كل حال فليس يجوز للإنسان أن يترك التسبب لمعاشه الذي لا بد له منه ، إلا إن كان عاجزاً ، أو ممن أقيم في التجريد من أهله . ويحرم على الإنسان أن يقعد عن الاكتساب الذي يقدر عليه ويحتاج إليه ، ويترك نفسه وعياله ضياعاً يسألون الناس ، ويتشوّفون إلى ما في أيديهم ؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول » . والله سبحانه أعلم .

الحب في الله

وأما الحب في الله : فهو من أشرف المقامات وأرفعها . قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾

[البقرة : ٢/ ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾

[المائدة : ٥/ ٥٤] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاث من كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكونَ الله ورسوله أحب إليه ممّا سواهما . . » الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام : « أحِبُّوا الله لِما يغذوكم به من نعمهِ ، وأحبوني بحب الله » .

ومعنى الحب لله تعالى : ميل وتعلق وتألُّهٌ ، يجده العبد في قلبه إلى ذلك الجناب الأقدس الرفيع ، مصحوباً بنهاية التقديس والتنزيه ، وغاية التعظيم والهيبة لله تعالى ، لا يخالطه شيء من خواطر التشبيه ، ولا يمازجه شيء من أوهام التكييف ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

نبهنا على هذا ؛ لأن بعض العامة الذين لا بصائر لهم إذا سمعوا بأحوال أهل الله ، وبأذواقهم في محبة الله ، قد تسبق إلى قلوبهم وأفهامهم وساوس وأوهام عظيمة الخطر ، شديدة الضرر .

ثم إن مَن صدق في محبة الله تعالى دعاه ذلك إلى إيثار الله على ما سواه ، وإلى التشمير لسلوك سبيل قربه ورضاه ، وإلى الجد في طاعته ، وبذل الاستطاعة في خدمته ، وترك ما يشغل عن ذكره ، وحسن معاملته من كل شيء .

الرضا عن الله

ومن أعظم ما يدل على محبة الله : حسن الاتباع لرسول الله ﷺ .

قال الله تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣/ ٣١] .

وأما الرضا عن الله تعالى فهو حال شريف عزيز ، قال الله تعالى : ﴿ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [البينة : ٩٨/ ٨] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ؛ فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » .
وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله بحكمته جعل الرَّوح والفرح في اليقين والرضا ، وجعل الضيق والحرج في الشك والسخط . . . » الحديث .

والراضي عن الله : هو الراضي بقضائه ؛ فمهما قضى عليه

سبحانه بما يخالف هواه ، وبما لا تشتهيه نفسه من مصيبة في نفس أو مال ، أو بلية أو شدّة أو فاقة ، فعليه أن يرضى بذلك ويطيب نفساً ، ولا يسخط قضاء الله ولا يجزع ، ولا يتبرم ؛ فإن الله تعالى له أن يفعل في ملكه ما يشاء ، وليس له في سلطانه منازع ولا معارض .

وليحذر العبد عند ذلك من : لو ، ولِمَ ، وكيف . وليعلم أن الله تعالى حكيم عادل في جميع أفعاله وأقضيته ، وأنه لا يقضي لعبده المؤمن بشيء وإن كرهته نفسه إلا ويكون له فيه خير وخيرة ، وعاقبة حسنة ؛ فليحسن ظنه بربه ، وليرضَ بقضائه ، وليرجع إليه بذلِّهِ وافتقاره ، وليقف بين يديه بخضوعه وانكساره ، وليكثر من حمده والثناء عليه في يسره وعسره ، وشدته ورخائه . والحمد لله رب العالمين .

الإخلاص

وأما حسن النية والإِخلاص لله : فذلك من أعظم المنجيات وأهمها .

قال الله تعالى : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : ١٧/ ١٩] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إنما يبعث الناس على نيّاتهم » . وقال عليه الصلاة والسلام :

« من غزا ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى » . وقال عليه الصلاة والسلام : « نية المؤمن خير من عمله » ؛ وذلك لأن النية عمل القلب ، والقلب أشرف من الجوارح ، فكان عمله خيراً من عملها ، ولأن النية تنفع بمجردها ، وأعمال الجوارح بدون النية لا نفع لها . وفي الحديث : « من هم بحسنة ولم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة » .

فعليك ـ رحمك الله ـ بحسن النية وبإخلاصها لله ، ولا تعملْ شيئاً من الطاعات إلا أن تكون ناوياً بها التقرب إلى الله وابتغاء وجهه وطلب رضاه ، وإرادة الثواب الأخروي الذي وعد به سبحانه على تلك الطاعة من باب الفضل والمنّة .

ولا تدخلْ في شيء من المباحات حتى الأكل والشرب والنوم ، إلا وتقصد بذلك الاستعانة على طاعة الله ، وحصولَ التقوِّي به على عبادته تعالى ؛ فبذلك تلحق المباحات بالطاعات ، فإن للوسائل أحكام المقاصد . والمغبون من غُبِنَ في حسن النية .

واجعل لك في طاعاتك ومباحاتك نيات كثيرة صالحة ، يحصل لك بكل واحدة منها ثواب تام من فضل الله ، وما عجزتَ عنه من الطاعات والخيرات ، ولم تتمكن من فعله فانوه واعزم على فعله عند الاستطاعة ، وقُلْ بصدق وعزم وصلاح نية : لو استطعته لفعلته ؛ فقد يحصل لك بذلك ثواب الفاعل ، كما بلغنا أن رجلاً من بني إسرائيل مرَّ في وقت مجاعة على

كُثبان من رمل ، فقال في نفسه : لو كانت هذه طعاماً ، وكان لي ، لقسَّمته على الناس ؛ فأوحى الله إلى نبيهم « قل لفلان : قد قبل الله صدقتك ، وشكر الله حسن نيتك » .

وفي المأثور : « أن الملائكة إذا صعدوا بصحيفة العبد إلى الله تعالى ، يقول الله تعالى لهم سبحانه : أُكتبوا له كذا وكذا . فيقولون : إنه لم يعمله . فيقول تعالى : إنه نواه » .

وقال تعالى في الإخلاص : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾

[البينة : ٩٨/ ٥] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ [الزمر : ٣٩/ ٣] .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام : « أخلص دينك يُجْزِك العمل القليل » . وسئل عليه الصلاة والسلام عن الإيمان فقال : « هو الإخلاص لله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يقبل الله من الأعمال إلا ما كان منها خالصاً له ، وابتُغِي به وجهه » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من أخلص لله أربعين يوماً أظهر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » .

ومعنى الإخلاص : أن يكون قصد الإنسان في جميع طاعاته وأعماله مجرد التقرب إلى الله ، وإرادة قربه ورضاه ؛ دون غرض آخر من مراءاة الناس ، أو طلب محمدة منهم ، أو طمع فيهم .

قال سهل بن عبد الله التُّستَرِي رحمه الله تعالى : نظرَ الأكياسُ في تفسير الإِخلاص فلم يجدوا غير هذا : أن تكون حركته وسكونه في سره وعلانيته لله تعالى لا يمازجه شيء ؛ لا نفسٌ ولا هوى ولا دنيا . انتهى .

فالذي يعمل لقصد التقرب إلى الله ، وطلب مرضاته وثوابه هو المخلص ، والذي يعمل لله ولمراءاة الناس هو المرائي ، وعمله غير مقبول ، والذي يعمل لمراءاة الناس فقط ، ولولا الناس لم يعمل أصلاً أمره خطر هائل ، ورياؤه رياء المنافقين .

نعوذ بالله من ذلك ونسأله العافية من جميع البليات .

الصدق مع الله والمراقبة والتفكر

ومن المنجيات الفاضلة : الصدق مع الله ، والمراقبة لله ، وحسن التفكر وقِصَر الأمل ، وكثرة ذكر الموت والاستعداد له .

أما الصدق : فقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩/ ١١٩] .

وقال تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : ٥/ ١١٩] .

وقال تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : ٣٣/ ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٣/ ٢٤] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، وما يزال العبد يصدق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقاً . والكذب يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذَّاباً » .

وأول الصدق مجانبة الكذب في جميع الأقوال ؛ ثم إن للصدق مَدْخلاً في جميع الأعمال والنيات ، والأحوال والمقامات .

ومعنى الصدق فيها : الثبات عليها ، والإتيان بها على الوجه الحسن الأكمل الأحوط ، مع بذل الاستطاعة ، ونهاية الجد والتشمير لله في الظاهر والباطن .

وأما المراقبة لله فمعناها : استشعار قرب الله من العبد على الدوام ، وإحاطته به ، ومعيّته له ، واطّلاعه عليه ، ونظره إليه .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣/ ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٢٠/ ٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق : ٥٠/ ١٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٥٧/ ٤] .

وقال ﷺ : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

فالمراقبة من مقام الإحسان ، ومن تحقق بها أثمرت له : الخشية لله تعالى ، والحياء من الله تعالى أن يراه حيث نهاه ، أو يفقده حيث أمره ، أو يراه متثاقلاً عن طاعته ، متكاسلاً عن عبادته ، مشتغلاً عن خدمته ، غافلاً عن ذكره وحسن معاملته .

* * *

وأما حسن التفكر واستقامتُه ففيه منافع كثيرة ، وفوائد عظيمة .

وقد قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ [البقرة : ٢/ ٢١٩ـ٢٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٣٠/ ٢١] .

وقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠/ ١٠١] .

روي عن النَّبي ﷺ : « تفكُّرُ ساعة خير من عبادة ستِّين سَنَةٍ » . وقال علي كرم الله وجهه : لا عبادة كالتفكُّر .

والفكر على أنواع كثيرة ، وأشرف أنواعه وأفضلها : التفكر في أفعال الله وآياته ، وعجائب مصنوعاته في أرضه

وسماواته . ومن أحسَنَ التفكر في ذلك أثمر له زيادة المعرفة بالله ، وهي الإِكسير الأكبر .

ومن أنواعه : التفكُّر فيما لله عليك من النعم والآلاء الدينية والدنيوية . وحسنُ التفكُّر في ذلك يثمر زيادة الحب لله ، ويحُثّ على الشكر لله .

ومن أنواعه : أن تتفكَّر في عظيم حق الله عليك ، وكثرة تقصيرك عن القيام بحقوق ربوبيته . وحسنُ التفكُّر في ذلك يثمر الخوف والخشية والحياء من الله تعالى ، ويبعث على التشمير والجِد في طاعته وإقامة حقه تعالى .

ومن أنواعه : التفكُّر في الدنيا وسرعة زوالها ، وكثرة أكدارها وأشغالها . وحسنُ التفكُّر في ذلك يثمر الزهد في الدنيا ، والتجافي عنها وقلة الرغبة فيها .

ومن أنواعه : التفكُّر في الآخرة وبقائها ، وصفاء نعيمها ودوام لذاتها وسرورها . وحسنُ التفكُّر في ذلك يثمر إيثار الآخرة وكثرة الرغبة فيها ، والتشمير في العمل لها .

ومجاري الفكر كثيرة ، وكلما كانت بصيرة العبد أنفذ ، وكان علمه أغزر وأوسع ، كان تفكُّره أعظم وأكثر .

قصر الأمل

وأما قِصَر الأمل ، وكثرة ذكر الموت والاستعداد له : فنفع ذلك عظيم ، وفضله كثير . فإن من قَصُر أمله ، وكثر للموت ذكره ؛ جدّ في صالح العمل ، وترك التسويف والكسل ،

وزهد في الدنيا ورغب في العقبى ، وبادر بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى ، وتباعد عما يشغله عن طاعة الله تعالى وعن سلوك سبيل مرضاته . ومن طال أمله ، وقل للموت ذكره ، كان على الضد من ذلك .

وقد ذكرنا في أوائل هذا التصنيف ، قبيل الكلام على العلم ، طرفاً صالحاً في فضل قِصَر الأمل ، واستشعار قرب الأجل ، وما يتعلق بذلك ، فأغنانا ذلك عن إطالة الكلام فيه ههنا .

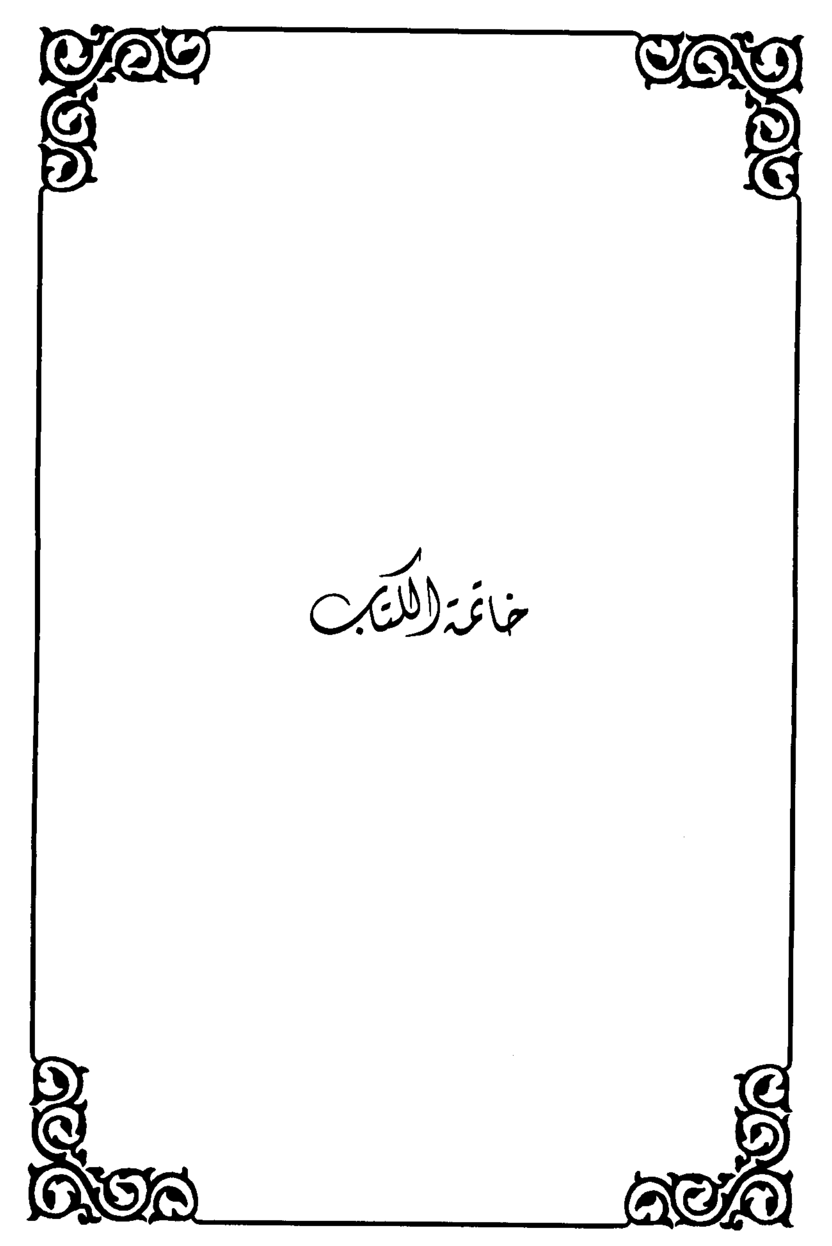
وعن الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « أكلُّكم يحب أن يدخل الجنة ؟ قالوا : نعم يارسول الله . قال : قصِّروا في الأمل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم ، واستحْيُوا من الله حقَّ الحياء » . وكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه : « اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة ، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات ، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل » . وقالت عائشة رضي الله عنها : يارسول الله ، هل يحشر مع الشهداء غيرهم ؟ فقال : « نعم ، مَنْ يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « أكثروا من ذكر الموت ؛ فإنه يمحِّص الذنوب ويزهد في الدنيا » . ولما سئل عليه الصلاة والسلام عن معنى الشرح المذكور في قوله تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر : ٣٩/ ٢٢] .

قال عليه الصلاة والسلام : « إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح . قيل : فهل لذلك من علامة ؟ قال : نعم ، التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » .

قال الإمام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ في « البداية » : وتفكَّر في قصر عمرك وإن عشت مثلاً مائة سنة بالإضافة إلى مقامك في الدار الآخرة وهي أبد الآباد . وتأمل أنك كيف تتحمّل المشقة والذل في طلب الدنيا شهراً أو سنة رجاء أن تستريح بها عشرين سنة ، فكيف لا تتحمّل ذلك أياماً قلائل رجاء الاستراحة أبد الآباد ، ولا تطوِّل أملك ، فيثقل عليك عملك ، وقدِّر قرب الموت ، وقل في نفسك إني أتحمَّل المشقة اليوم فلعلي أموت الليلة ، وأصبر الليلة فلعلي أموت غداً ؛ فإن الموت لا يهجم في وقت مخصوص وحال مخصوص ، وسن مخصوصة ، ولا بد من هجومه ، فالاستعداد له أولى من الاستعداد للدنيا ، وأنت تعلم أنك دلا تبقى فيها إلا مدة يسيرة ، ولعله لم يبق من أجلك إلا نفس واحد أو يوم واحد . فكرر هذا على قلبك كل يوم ، وكلف نفسك الصبر على طاعة الله يوماً يوماً ، فإنك لو قدَّرت البقاء خمسين سنة وألزمتها الصبر على طاعة الله تعالى نفرَت واستعصت عليك ؛ فإن فعلتَ ذلك فرحتَ عند الموت فرحاً لا آخر له ، وإن سوَّفتَ وتساهلتَ جاءك الموت في وقت

لا تحتسبه ، وتحسَّرتَ تحسراً لا آخر له ، وعند الصباح يَحمَد القوم السُّرَى ، وعند الموت يأتيك الخبر اليقين ، ولتعلمُنَّ نبأه بعد حين .

* * *



خاتمة الكتاب



خاتمة الكتاب

في عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة

في عقيدةٍ وجيزةٍ جامعةٍ نافعةٍ إن شاء الله تعالى على سبيل الفرقة النّاجية
وهم أهل السُّنَّة والجماعةِ والسواد الأعظم من المسلمين .

الحمد لله وحدَه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

وبعد : فإنّا نعلم ونقرُّ ونعتقد ، ونؤمن ونوقن ، ونشهد : أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له . إلٰه عظيمٌ ، ملك كبير ، لا ربَّ سواه ، ولا معبود إلا إياه . قديم أزليٌّ ، دائم أبدي ، لا ابتداء لأوَّليته ، ولا انتهاء لآخِريته . أحد صمَد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كُفُواً أحد . لا شبيه له ولا نظير ، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وأنه تعالى مقدَّس عن الزمان والمكان ، وعن مشابهة الأكوان ، ولا تحيط به الجهات ، ولا تعتريه الحادثات . مستوٍ

على عرشه على الوجه الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، إستواءً يليق بعزِّ جلاله ، وعلُوِّ مجده وكبريائه .

وأنه تعالى قريب من كل موجود ، وهو أقربُ للإِنسان من حبل الوريد ، وعلى كل شيء رقيبٌ وشهيدٌ . حيٌّ قيومٌ ، لا تأخذه سِنَةٌ ولا نومٌ . بديعُ السموات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيلٌ .

وأنه تعالى على كل شيء قديرٌ ، وبكل شيء عليمٌ ، قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً . وما يعزُب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . يعلم ما يلج في الأرض وما يخرُج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير . ويعلم السرَّ وأخفى ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبةٍ في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .

وأنه تعالى مريدٌ للكائنات ، مدبِّرٌ للحادثات . وأنه لا يكون كائن من خير أو شر ، أو نفع أو ضر ، إلا بقضائه ومشيئته ؛ فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . ولو اجتمع الخلق كلهم على أن يحركوا في الوجود ذرة ، أو يسكنوها دون إرادته لعَجَزوا عنه .

وأنه تعالى سميعٌ بصير ، متكلم بكلام قديم أزلي ، لا يُشبِه كلامَ الخلق .

وأن القرآن العظيم كلامُه القديمُ ، وكتابه المنزلُ على نبيه ورسوله محمد ﷺ .

وأنه سبحانه الخالقُ لكل شيء ، والرازق له والمدبِّر والمتصرفُ فيه كيف يشاء ، ليس له في مُلْكه منازعٌ ولا مدافعٌ ، يعطي من يشاء ، ويمنعُ من يشاء ، ويغفِرُ لمن يشاء ، ويعذِّبُ من يشاء ، لا يُسألُ عما يفعل ، وهم يُسألون .

وأنه تعالى حكيم في فعله ، عَادل في قضائه ، لا يتصوّر منه ظلم ولا جَوْر ، ولا يجب عليه لأحد حقٌّ . ولو أنه سبحانه أهلك جميع خلقه في طَرْفة عين لم يكن بذلك جائراً عليهم ولا ظالماً لهم ؛ فإنهم مِلْكهُ وعبيدُه ، وله أن يفعل في مُلْكه ما يشاء وما ربك بظلام للعبيد . يثيب عباده على الطاعات فضلاً وكرماً ، ويعاقبهم على المعاصي حكمةً وعدْلاً ، وأن طاعته واجبة على عباده بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام .

ونؤمن بكل كتاب أنزله الله ، وبكل رسول أرسله الله ، وبملائكة الله ، وبالقَدر خيره وشرِّه .

ونشهد أن محمداً عبدُ الله ورسوله ، أرسله إلى الجن والإِنس ، والعرب والعجم ، بالهُدَى ودين الحق ليظهِرَه على الدين كله ولو كره المشركون . وأنه بلَّغ الرسالةَ ، وأدَّى الأمانة ، ونصحَ الأمة ، وكشفَ الغُمَّة ، وجاهد في الله حَقَّ

جهاده ، وأنه صادقٌ أمين ، مؤَيَّدٌ بالبراهين الصادقة والمعجزات الخارقة . وأن الله فرض على العباد تصديقه وطاعته واتباعه ، وأنه لا يُقبلُ إيمانُ عبد وإن آمن به سبحانه حتى يؤمن بمحمد ﷺ ، وبجميع ما جاء به وأخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة والبرزخ .

ومن ذلك : أن يؤمن بسؤال منكر ونكير للموتى ؛ عن التوحيد والدين والنبوة . وأن يؤمن بنعيم القبر لأهل الطاعة ، وبعذابه لأهل المعصية .

وأن يؤمن بالبعث بعد الموت ، وبحشر الأجساد والأرواح إلى الله ، وبالوقوف بين يدي الله ، وبالحساب ، وأن العباد يتفاوتون فيه إلى مُسامَح ومُناقَش ، وإلى من يدخل الجنة بغير حساب .

وأن يؤمن بالميزان الذي تُوزَن فيه الحسنات والسيئات ، وبالصراط وهو جسر ممدود على مَتْن جهنم وبحوض نبينا محمد ﷺ الذي يشربُ منه المؤمنون قبل دخول الجنة ، وماؤه من الجنة .

وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء ثم الصديقين والشهداء ، والعلماء والصالحين والمؤمنين . وأن الشفاعة العظمى مخصوصة بمحمد ﷺ .

وأن يؤمن بإخراج من دخل النار من أهل التوحيد حتى

لا يخلَّد فيها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان . وأن أهل الكفر والشرك مخلّدون في النار أبد الآبدين ، لا يخفّفُ عنهم العذاب ولا هم ينظرون . وأن المؤمنين مخلّدون في الجنة أبداً سرمداً ، لا يمسهم فيها نَصَبٌ وما هم منها بمخرجين .

وأن المؤمنين يَرَوْن ربهم في الجنة بأبصارهم على ما يليق بجلاله وقُدْسِ كماله .

وأن يعتقد فضلَ أصحاب رسول الله ﷺ وترتيبَهم ، وأنهم عُدُول أخيار أمناء ، لا يجوز سَبُّهم ولا القَدْح في أحدٍ منهم . وأن الخليفة الحقَّ بعد رسول الله ﷺ : أبو بكر الصديق ، ثم عمر الفاروق ، ثم عثمان الشهيد ، ثم عليّ المرتضى رضي الله عنهم وعن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين ، وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعنا معهم برحمتك اللهم يا أرحم الراحمين .

* * *

خاتمة الخاتمة

وتشتمل على سبعة أحاديث ، تحتوي على حكم جامعة ومواعظ نافعة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

الحديث الأول : عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن ابن آدم لفي غفلة عما خُلِقَ له . إن الله إذا أراد خَلْقَه قال للملك اكْتُب رزقه ، اكتب أثره ، اكتب أجله ، اكتب شقيّاً أم سعيداً . ثم يرتفع ذلك الملك . ثم يوكِّل الله به ملكين يكتبان حسناته وسيئاته ؛ فإذا حضره الموت ارتفع ذانِك الملكان ، وجاء ملك الموت ليقبض روحه ؛ فإذا دخل قبره رُدَّ الروحُ في جسده ، وجاءه ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان ؛ فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات ، فانتشطا كتاباً معقوداً في عنقه ، ثم حضرا معه واحد سائقٌ وآخر شهيد . ثم قال رسول الله ﷺ : إن قُدَّامكم لأمراً عظيماً ما تقدرونه ؛ فاستعينوا بالله العظيم » . ذكره الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى في « شرح الصدور »

وقال : أخرجه ابن أبي الدنيا وأبو نُعَيْم .

الحديث الثاني : عن عبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « إني رأيت البارحة عجباً ! رأيت رجلاً من أمتى جاءه ملك الموت ليقبض روحه ؛ فجاءه بِرُّه بوالديه فرده عنه . ورأيت رجلاً من أمتي قد بُسط عليه عذاب القبر ؛ فجاءه وضوؤُه فاستنقذه من ذلك . ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين ؛ فجاءَهُ ذكر الله فخلّصه من بينهم . ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب ؛ فجاءته صلاته فاستنقذته من بين أيديهم . ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً كلما وَرَدَ حوضاً مُنع منه ؛ فجاءه صيامه فسقاه وأَرْواه . ورأيت رجلاً من أمتي والنبيّون قعود حِلقاً حِلَقاً ، كلما دنا لحلقة طردوه ؛ فجاءَهُ اغتساله من الجنابة فأخذ بيده وأقعده إلى جنبي . ورأيت رجلاً من أمتي بين يديه ظُلْمة ، وخلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة ، وعن يساره ظلمة ، ومن فوقه ظلمة ، ومن تحته ظلمة ، فهو متحير فيها ؛ فجاءه حجُّهُ وعمرته فاستخرجاه من الظلمة ، وأدخلاه النور . ورأيت رجلاً من أمتي يكلِّم المؤمنين ولا يكلِّمونه ؛ فجاءته صلة الرحم فقالت : يا معشر المؤمنين كلِّموه ، فكلَّموه .

ورأيت رجلاً من أمتي يتقي وَهَجَ النار وشررها بيده عن وجهه ؛ فجاءته صدقته فصارت سِتْراً على وجهه ، وظِلاً على رأسه . ورأيت رجلاً من أمتي أخذته الزبانية من كل مكان ؛

فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ؛ فاستنقذاه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة .

ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه بينه وبين الله حجاب ؛ فجاءه حسن خلقه فأخذه بيده فأدخله على الله تعالى . ورأيت رجلاً من أمتي قد هوت به صحيفته من قِبَل شماله ؛ فجاءه خوفه من الله ؛ فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه . ورأيت رجلاً من أمتي قد خفّت موازينه ؛ فجاءته أفراطه فثقَّلوا ميزانه . ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم ؛ فجاءه وَجَلُه من الله فاستنقذه من ذلك ومضى .

ورأيت رجلاً من أمتي هوى في النار ؛ فجاءته دموعه التي بكى بها من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار . ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعَفَة ؛ فجاءه حُسن ظنه بالله تعالى فسكن رعْده ومضى . ورأيت رجلاً من أمتي على الصراط يزحف أحياناً ويحبو أحياناً ؛ فجاءته صلاته عليَّ فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط . ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة ؛ فَغُلِّقت الأبواب دونه ؛ فجاءته شهادة أن لا إلـه إلا الله ففتحت له الأبواب فأدخلته الجنة . ورأيت ناساً من أمتي تُقرَض شفاههم ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ فقال : المشّاءون بالنميمة بين الناس . ورأيت رجالاً من أمتي معلقين بألسنتهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يَرْمُون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا » .

ذكره السيوطي أيضاً في كتاب « شرح الصدور » وقال : أخرجه الطبراني في « الكبير » ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » ، والأصبهاني في « الترغيب » .

الحديث الثالث : عن رَكب المصري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « طوبى لمن تواضع في غير منقصة ، وذلّ في نفسه من غير مسألة ، وأنفق مالاً جمعه في غير معصية ، ورحم أهل الذل والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة . طوبى لمن طاب كسبه ، وصلحت سريرته ، وكرمت علانيته ، وعزل عن الناس شره . طوبى لمن عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله » .

ذكره الحافظ المنذري رحمه الله تعالى في كتاب « الترغيب والترهيب » . وقال : رواه الطبراني .

الحديث الرابع : عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بئس العبد عبد بخل واختال ، ونسي الكبير المتعال! بئس العبد عبد تجبّر واعتدى ، ونسي الجبار الأعلى! بئس العبد عبدٌ سها وَلَهَا ، ونسي المقابر والبِلى! بئس العبد عبدٌ عتا وطغى ، ونسي المبتدأ والمنتهى! بئس العبد عبد يَخْتِلُ الدنيا بالدين![1] بئس العبد عبد يختل الدين بالشهوات! بئس العبد عبد طمع يقوده!

---

(١) أي يطلب الدنيا بعمل الآخرة .

بئس العبد عبد هوىً يضله! بئس العبد عبد رَغَبٌ يذله » .

رواه الترمذي وقال : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

الحديث الخامس : عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حلّ بها البلاء » . قيل : وما هي يارسول الله ؟ قال : « إذا كان المغنم دُولاً ، والأمانة مغنماً ، والزكاة مَغْرماً ، وأطاع الرجل زوجته وعقَّ أمه ، وبرَّ صديقه وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات في المساجد ، وكان زعيم القومِ أرذلهم ، وأُكِرم الرجل مخافة شرِّه ، وشُربت الخمر ، ولُبِس الحرير ، واتخذت القَيّنات والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء ، أو خسفاً أو مسخاً » .

رواه الترمذي : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه عن عليّ .

الحديث السادس : عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت : يارسول الله ، ما كانت صحف إبراهيم عليه السلام ؟ قال : « كانت أمثالاً كلها : أيها المَلِك المسلَّط المبتلى المغرور ، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم ؛ فإني لا أردها ولو كانت من كافر . وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن تكون له ساعات :

ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل أن لا يكون ظاعناً إلا لثلاث : تزوّد لمعاد ، أو مَرَمَّة لمعاش ، أو لذة في غير محرَّم . وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظاً للسانه . ومن حسب كلامه من عمله ، قلّ كلامه إلا فيما يعنيه . قلت : يارسول الله ، فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟ قال : كانت عبراً كلها : عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح! عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك! عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب! عجبت لمن رأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها ثم اطمأن إليها! عجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل . قلت : يارسول الله أوصني . قال : أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله . قلت : يارسول الله زدني . قال : عليك بتلاوة القرآن ؛ فإنه نور لك في الأرض ، وذكرٌ لك في السماء . قلت : يارسول الله زدني . قال : إياك وكثرة الضحك ؛ فإنه يميت القلب ، ويَذْهَب بنور الوجه . قلت : يارسول الله زدني . قال : عليك بالصمت إلا من خير ؛ فإنه مطردة للشيطان عنك ، وعون لك على أمر دينك . قلت : يارسول الله زدني . قال : عليك بالجهاد ؛ فإنه رهبانية أمتي . قلت : يارسول الله زدني . قال : أَحِبَّ المساكين وجالِسهم . قلت : يارسول الله زدني . قال : انظر إلى من هو دونك ولا

تنظر إلى من هو فوقك ، فإنه أجدر أن لا تزدري نعمة الله عليك . قلت : يارسول الله زدني : قال : قل الحق وإن كان مرّاً . قلت : يارسول الله زدني : قال : ليردّك عن الناس ما تعلمه من نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتي ، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهله من نفسك ، وتجد عليهم فيما تأتي . ثم ضرب بيده على صدري فقال : لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكفِّ ، ولا حسب كحسن الخلق » .

ذكره المنذري في كتاب « الترغيب والترهيب » ، وقال : رواه ابن حبان في « صحيحه » واللفظ له ، والحاكم . وذكر المنذري الحديث الذي قبله في الكتاب المذكور أيضاً . رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيراً .

الحديث السابع : عن أبي ذر رضي الله عنه أيضاً عن النَّبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « يا عبادي : إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . يا عبادي : كلكم ضالٌّ إلا من هديته فاستهدوني أهدكم . يا عبادي : كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم . يا عبادي : كلكم عارٍ إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم . يا عبادي : إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفِرْ لكم . يا عبادي : إنكم لن تبلغوا ضرّي فتضِروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادي : لو أن أولَكم وآخركَم ، وإنسكَم

وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَط إذا أُدخل البحر . يا عبادي : إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه » رواه مسلم والترمذي وابن ماجه .

وقد ختمنا الكتاب بهذه الأحاديث من حديث رسول الله ﷺ ، كما افتتحناه بشيء منها ؛ تبرُّكاً وتيمُّناً بكلام رسول الله ﷺ . ونرجو بذلك أن يجعل الله الكلام المؤلَّف بين ذلك مقبولاً لديه ، ومقرّباً إلى رضاه ، وفي سبيل طاعته وقربه . وأن يغفر لنا ويتجاوز عنّا ما وقع فيه من خطأ أو تخليط ، وما داخلنا فيه من رياء أو تصنُّع للناس ، أو مباهاة أو إعجاب . ونستغفر الله من جميع ذلك ، ومن سائر الذنوب ونتوب إليه منها (ومن يغفرُ الذنوب إلا الله) (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) (وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا

على القوم الكافرين) (لا إلـه إلا أنت سبحانك) اللهم إنِّي أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك . اللهم زدني علماً ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

* * *

تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) (سبحان ربك رب العزة عمّا يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين) ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم .

* * *

وكان الفراغ من إملائه يوم الأحد الثاني والعشرين من شهر شعبان المبارك سنة تسع وثمانين بعد الألف من هجرته ﷺ . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

[تم الكتاب بعونه تعالى]

الفهرس